الدكتور
محيي الدين رمضان



في صوتيات العربية

عمّان

الدكتور
محيي الدين رمضان



مكتبة الرسالة الحديثة
عمّان

ص. ب ٦٦٠٠
ت ٣٩٩٥٧

الإهداء

إلى جدتي لأُمي في ملئها الأَعلى التي طالما حرصت أن آخذ حظي من المعرفة موفوراً ، وأبلغ فيها الغاية القصوى ،

إليها أُهدي هذا الكتاب وأنا لم أزل في جنّة الكلمة بين الحلم واليقظة لما فيها من عجيب مشهد وشهي رونق .

محيي الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا البحث جانباً من الدرس اللغوي. كنت أُعنَى به منذ وقت، قبل أن أشرعَ في تدريس مُقرَّره، والقيام بمادته في المرحلة الجامعية. وتردَّدت فيه بين القديم من نصوص التراث، ولا سيما القراءات القرآنية، والجديد، وأغلبُه في لغة أجنبية ولا سيما الإنكليزية، وبعضُه مترجَم، وأَفَدت من ذلك مستطاعي بما أتاح لي وقتي وظروفي المتباينة. وانتهيت إلى أن أضع مختصراً في موضوع هذا البحث، جعلت عنوانه «علم اللغة في نصوصها الأصول»، وقررته على الطلاب الذين يدرسون هذه المادة ثم عاودت النظر في ذلك المختصر بشيء من التعديل مدة سنتين.

ورأيتُني بعد ذلك، وقد أفدتُ من اطلاع جديد، على هذا الجانب في التراث، وأُتيحت لي فرصة الانتفاع بأشياء فيه مخطوطة، وعلى مِثله فيما صَدَر في لغة أجنبية مترجماً وبنصه، رأَيتُني أُعاوِد النظر فيما كتبتُ، وأبدأُ بكتابة هذا البحث مستفيداً من اطلاعي وتدريسي للمادة.

فضمنت البحث كلاماً على تعريف اللغة ومناقشته وخلاصة لمواضيع يقتضيها الدرس اللغوي، ميّزت فيها صنفين: صنفاً هو من مواضيع الدرس اللغوي، ويُحتاج إليه، ولا بد من أن يتضمنه البحث. وصنفاً من شأنه أن يساعد على توضيح جوانب من الدرس اللغوي والكشف عنها، ورَفْدها ببعض المعلومات والأفكار.

وزدت فصلاً يتضمن جانباً من تاريخ علم اللغة وأبرز ظواهره. استوفيته من عدة كتب ودوريات، غير أن كتاب «تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين»، لِجُرْج مونَن وكذلك ما كتبه الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح في مجلة «اللسانيات»، كان مرجع مضمونه.

ويتضمن الفصل الثالث التعريف بأعضاء جهاز النطق وتوضيحها، والكلام على حدوث الصوت اللغوي. ثم أتبعته بصفات الأصوات. ونبهت إلى تعدد المصطلح وبعض الفروق بين قديم استعمالها وجديده.

وتضمن الفصل الرابع مخارج أصوات العربية. لكنني لم أقتصِر فيه على ذكر المخرج، وآلية حدوث الصوت، وبعض وجوه الاختلاف، وما إلى ذلك من مألوف ما هو مترجم أو موضوع، وهو ما يصلُح أن يكون بعنوان «دراسة الأصوات» دون أن يكون لها صلة بوظيفتها في اللغة، وملابستها لعناصرها الأخرى، أعني الصيغة لفظاً وعبارة والمعنى بل ذكرت شيئاً من تاريخه إن وُجد، وبعض آراء العلماء قدماء ومحدثين، وآليته بتعيين مخرجه والاختلاف فيه، واستعمال الصوت أصلاً وبدلاً وزائداً، وطائفة من الأمثلة الموضِّحة لكل حال. ويتضمن ذلك الجانب اللهجي في الماضي والحاضر، وتعليلاً لبعض الظواهر، وما راعت العربُ في نُطْقه صيغةً، أي الجانب الوظيفي للصوت، وأمثلة موضِّحة لكل وجه، وما يُشبه الصوت في الطبيعة، ثم خلاصة لمخرج الصوت وصفاته. وجُلّ معلومات هذا الفصل كانت من كتاب «سر صناعة الإعراب» لأبي الفتح ابن جني المطبوع منه والمخطوط، و«الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة» لأبي محمد مكي بن أبي طالب و«أسباب حدوث الحروف» لأبي علي بن سينا و«دروس في علم أصوات العربية» «لجان كانتينو» و« An outline of English Phonetics لمؤلفه دانيال جونز.

ومَقطعَ الصوتي في الصيغة مفهوماً ودلالةً ووظيفة.

وتضمّن الفصل الخامس المَقْطعَ الصوتي في الصيغة مفهوماً ودلالةً ووظيفة.

وعُنيتُ فيه بالكشف عن أثر الصوت في تشكيل اللفظ، وتأثير الأصوات بعضها في بعض، وشأن الصوت في ذلك كله، والحديث عن الظواهر التي تنشأ عن موقعية الصوت، ولا سيما الإدغام والإمالة والمدّ وغير ذلك. ومثّلت لذلك بما يكفي درساً وتوضيحاً.

وتناول آخر فصل وهو السادس موضوع الحركات، شأنها بين الأصوات، وأثرها في الصيغة، وعدّتها، وأنواعها، وضرورة البحث فيها لاستخلاص مضمون فيها يُحِلّها محلَّها بين غيرها من أصوات اللغة، والاهتمام بها في الخط كتابة وطباعة.

ويمثّل منهج البحث في هذا الموضوع ترتيب فصوله على ما تقدّم ذكره. وذلك لأنني اهتممت أن يكون موضوعاً يفيد منه طلاب هذه المادة قبل كل شيء، وحاجة الطلاب إليه تتمثل في: معرفة ما اللغة، وظواهرها، وتاريخ البحث فيها، وحدوث الصوت اللغوي وآلته، وصفات الأصوات ومخارجها، وشأن الصوت في الصيغة، وما يلحقه فيها من تأثير يختلف بحسب مُوقعه، والحركات وأثرها في تشكيل اللفظ، وتوجيه العبارة.

بيد أن أظهر شيء اهتممت له وكلِفْتُ به في هذا البحث وإقامة موضوعه هو الانتفاع بالجديد ولا سيما نتائج البحث في الدرس اللغوي، وبشيء من طرائقه، والتوفيق بينه وبين القديم مادةً ومنهجاً. وقد ساعدني على ذلك أصالة الدرس اللغوي القديم وحيويته المتمثّلة في درس القراءات، وجهد اللغويين الفَذّ. فهذا كلّه أَسعفني بالمادة المرنة الوافية، والمنهج الإجرائي، والنتائج الدقيقة.

وأجريت مقارنة بين أصوات العربية وأصوات الانكليزية، ولا سيما المتماثل منها والمتشابه، من حيث آلية حدوثها وصفاتها. وذكرت عدة أمثلة تَفي بالغرض من ذلك.

وقَرنت بين الاصطلاحات العربية والإنكليزية فيما تقاربَ واتحدَ دلالة للإيضاح والتفسير.

وحَرَصْت أن يكون التناول والبحث مقترنين بالجانب الحيوي، أي بالتطبيق والإجراء، واجتهدت أن أجعل هذا الجانب مقدَّماً على الجانب النظري. وراعيت جانب الاختصار ما أمكن، في غير إخلال ولا غموض. وفي هذا تحقيق لغرض اللغة عند أهلها، وهو الاستعمال بأجدى السُبل.

وبهذا توافرت لهذا البحث عدة خصائص منهجية. تتمثل في تجاوزه الاقتصار على الجانب الفيزيائي من الأصوات، وفي اهتمامه بالجانب الوظيفي أيضاً، وفي عَقْد بعض وجوه المقارنة، وفي تتبع تطوّرها اللَهجي، وهو الجانب التاريخي. فاقترب بذلك من واقع اللغة في كل أبعادها من حيث البحث الصوتي وشأنه في الدرس اللغوي.

ولا شك أن بحث الصوت مَقْطعاً، والحركات في العربية أصواتاً، توضيحٌ لِجانب مهمّ في البحث الصوتي لم يزل مهملاً، وتنبيه إلى استدراكه لدى الدارسين. وسيكون لذلك نتائج مفيدة في تعليم اللغة وتعلُّمها، وفي منهج البحث في اللغة عامة.

ولستُ أزعمُ أن المادة اللغوية التي ضمنتها هذا الموضوع، وأسلوب تناولها شيء يتجاوز هجاء الدرس اللغوي العربي، على ما يُرجَى له في قابل الأيام من الانتفاع بكنوز تراثه، وجهود السلف الذين يُباهَى بهم بحقّ في هذا المجال، والإصابة من معين الجديد في مناهجه ونتائج بحثه.

وبعد هذا فعسى أن أجد في ملاحظات الزملاء وذوي الاطلاع والرأي في هذا العلم شيئاً أُقَوِّم به زللي، وأَستدركُ به ما فاتني.

والله عز وجل أسأل التوفيقَ والسداد.

دمشق ٢٦/ ٣/ ١٩٧٩.

محي الدين رمضان

الفصل الأول

الدرس اللغوي بين المضمون والمنهج

الدرس اللغوي بين المضمون والمنهج

«أولاً» تعريف اللغة : تحليله ومناقشته

أ ــ إن الكلام الذي يجري بين الناس في شتى شؤون حياتهم : تفاهمهم في مرافق أعمالهم وحوارهم في أسواقهم ، وخطابهم في محافلهم ، وما يسمعونه بينهم مشافهةً أو قراءةً من شيء مدوّن إنما هو أحداث اللغة ووقائعها.

فهذا تعيين لمصطلح اللغة ، وتوضيحٌ لِماهيَّتها ، وتحديد لمواضيعها التي يتناولها الدرس اللغوي ، وتوجيه لمنهج البحث فيها.

بيد أن في عرض عدة تعاريف لها يزيد في دقة التعيين ، ويخرج ما ليس من مواضيعها ويَنفي عنها كل إشكال يتعلّق بعنصر من عناصرها المحددة.

ب ــ فإن تعريف الموسوعتين البريطانية والأمريكية لِلغة إنما هو: نظام مِن الرموز الصوتية أو نظام من العلامات الصوتية الاصطلاحية.

وهي عند فَندريس[١] «السمعية التي تُسمى أيضاً لغة الكلام أو اللغة الملفوظة». وعند هوايتهد[٢] «جوهر الفكر وماهيَّته».

وهي عند ابن سِيدَه[٣] «صوتٌ يُعبَّر به عن المعنى المتصوَّر في النفس». وعند ابن جني[٤] «أصوات يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم».

---

(١) انظر اللغة ٣٢

(٢) انظر الإعلام ولغة الحضارة ٢٧

(٣) انظر المخصص ١ / ٦

(٤) انظر الخصائص ١ / ٣٣

ونرى أنّ هذه التعاريف تتفق على أن اللغة أصوات مسموعة ، ولا شيء آخرَ سِواها ، ولكن لمّا كانت اللغة ، منذ عرفها بنو الإنسان وسيلة اتصال فيما بينهم ، مستحيلة على الاحتفاظ بها وإثباتها بحالتها المسموعة عند النطق بها ، فقد اجتهد الناس ليحتفظوا بها على نحوٍ ما ، فَصَوَّروها مرة ، ورمزوا إليها بأشكال من عالم الأشياء والطبيعة مرة أخرى ، ونقشوا ذلك في الحجر والطين حيناً ، وفي العظام والخشب حيناً آخر ، ثم رسموها وكتبوا رموزها التي اصطلحوا عليها بعد زمان طويل في الورق. وجعلوا يستعيدون ماهيّتها بقراءتها كلّما أرادوا ، حتى تَمَّ لهم قبل نصف قَرْن أن يجدوا فيما جاءت به التقْنية الحديثة مثل الأُسطوانة أولاً ثم الشريط المسجل ثانية ، وسيلة يحفظون بها اللغة ، ويُثبتون فيها أحداثها ووقائعها.

ولذا فاللغة هي أصوات مسموعة سواء أكانت مخاطبة أو ما هو مِن قِبَلها أم قراءة مِن نصٍّ مُدوَّن.

وإذا كان تعريف هوايتهد لا يَذكُر أنها أصوات ، كما جاء عند المذكورين معَه من أصحاب التعاريف ، فإنه يتضمن ذلك ، لكنه اهتمَّ بذِكْر مضمون اللغة أو أثرها في حياة أصحابها ،من أنها وسيلة الفكر والتفكير. وفي تعريف فندريس تأكيد على جانب من اللغة بذاته هو الملفوظ والمنطوق ، وتحديد لمضمون هذا الملفوظ إذ جعلَه أو وصفَه بأنه كلام ، والكلام هو القول المفيد معنى ولغرض بعينه. وكأنما يلتقي تعريفه وتعريف ابن جني أو ابن سِيده.

وأما تعريف الموسوعتين فيوشك أن يُشْكل بقول : الرموز الصوتية ، والعلامات الصوتية ، لأن أكثر هذه الرموز وكذا العلامات ، وإن تضمَّن ذكرَها في التعريف أنها سمعية أو مسموعة ، مقطوعة عن الغرض منها. لكنه تعريف يختص باللغة ظاهرة دون النظر إلى وظيفتها. وهو اتجاه في دراسة اللغة ، ومنهج معروف في تناولها والبحث فيها.

وبقي تعريفُ ابن جني في لفظه أَولَى التعاريف في اشتماله على عناصر الأحداث اللغوية ، ودلالته على إحاطة اللغويين العرب ودراستها في ذلك العصر البعيد . وهو بألفاظه وأجزاء عبارته ، وتحليلها ، والكشف عما وراء كل منها ، يمكن أن يوضِّح عناصر الأحداث اللغوية من جهة ، وفهم اللغويين العرب لِلغة من جهة ثانية . ونجد أن ألفاظه وأجزاء عبارته هي : أصوات ، ويُعبِّر بها كل قوم ، وعن أغراضهم .

جـ — وأول أجزاء التعريف هو أصوات . وذكرُه يوجب أشياء مهمّة منها :

١ — إن الأصوات يميزها السمع ، ولا يكون ذلك إلا من طريق الأُذُن . وقد بلغتْنا لغتُنا ، اللغة العربية ، من هذا الطريق ، إذ أُخِذت عن أهلها سماعاً ، ونُقلت مشافهةً ورُويَت مُسندة ، وزاد في ضَبْطها التقييد والكتابة[1] على نحوٍ تُمثِّله كتابة المصاحف ورسمُها . بلِ إن في صور أَخْذِ اللغة الأخرى حتى الوِجادة والمكاتبة ما يُشعر بالسماع فيها أو يدعو إلى السماع . فمن ذلك أن أبا زيد قال[2] « في نوادره : سمعت أعرابياً من بني تميم يقول : فلانٌ كِبْرة وُلدِ أَبيه أي أكبرهم » . وقال أبو حاتم : « وقع في كتابي إكبِرَّة ولدِ أبيه أي أكبرهم ، فلا أدري أغلط هو أم صواب » .

وذكرُ الكتابة ههُنا يوجِبُ ما يلي : إذا كانت الكتابة لا يَتعيَّن معها نُطق الكلام فإن الكتابة العربية أقربُ مِن سواها في ضبط ذلك النطق والأداء عنها[1] . وقد قمت ببحث هذه الظاهرة أي الكتابة ودلالتها على اللفظ ، محاولاً إثبات خصائص الكتابة العربية من هذا الوجه . وفي ذلك قال ابن جني عند ذكر الألف[2] : وذلك أن واضع الخطِّ أَجراه في هذا على اللفظ ، لأنه أصلٌ لِلخط ، والخط فرعٌ على اللفظ ، فلمّا رآهم قد توصّلوا إلى النطق بلا التعريف ، بأن قدّموا قبلها ألفاً ، نحو الغلام

---

(١) انظر المخصص ١ / ١٣

(٢) انظر المزهر ١ / ١٦٩

والجارية، لمّا لم يمكن الابتداء باللام الساكنة كذلك أيضاً، قدَّم قبل الألف في «لا» لاماً تَوصُّلاً إلى النطق بالألف الساكنة، فكان في ذلك ضَرْبٌ مِن المعارضة بين الحرفين».

وكان لهذا المكتوب المدوّن وما هو مِن قِبَله ما يُؤَيِّدُه من المسموع المرويِّ، يَضبطه ويُقوِّمُه بيد أن طريق السماع والمشافهة كانت أوثقَ طرق أخذ اللغة وأوسعها انتشاراً، وعليها التعويل حتى زمن متأخر، وحينذاك لم يكن لأهل اللغة من الانتفاع بطرق أخذ اللغة الأخرى كالوِجادة والإجازة والمكاتبة.

٢ــ وأن أهل هذه اللغة ميّزوا بين الأصوات والحروف، بل إن تمييزهم هذا شملَ تَعدُّدَ الصوت الواحد. أو ما يُعرف اليوم بالفونيم، ذكر ذلك ابن جني وقال: [٣] «وليس غرضُنا في هذا الكتاب ذكر هذه الحروف مؤلَّفة، لأن ذلك كان يقود إلى استيعاب جميع اللغة، وهذا مما يطول جداً، وليس عليه عَقَدْنا هذا الكتاب. وإنما الغرض فيه ذكر أحوال الحروف منفردة، أو منتزعة مِن أبنية الكلم التي هي مصوغة فيها لِما يخصّها من القول في أنفُسها».

٣ــ وأن العرب سبقوا إلى تحليل لغوي لأصغر وحدات اللغة، حمل بعض علماء اللغة والمؤرخين لعلمها أن يعترفوا بوجود هذا العلم في الأصوات، وبأنه علم فذّ ممتاز، لم يكن له مثيل في أوروبا طوال العصر الوسيط [٤] وحمل بعضاً آخرين

---

(١) انظر مجلة اللسانيات، المجلد الأول، الجزء الثاني.

(٢) انظر سر صناعة الاعراب ١/ ٥٠

(٣) انظر سر صناعة الإعراب ١/ ٤ وانظر أيضا المزهر ١/ ٣٦

(٤) أنظر تاريخ علم اللغة ١٠٧

على أن يفترضوا اقتباساً عن حضارات سابقة تتمتع بمفاهيم لغوية متطورة كالحضارة الإغريقية والهندوسية.

وقد أشار فولرز إلى وجوه التشابه بين جهود بانيني وجهود العرب الصوتية ولا سيما الجيل الأول مِن لُغويي العرب كالخليل مثلاً. وأما بروكلمان فقد اعتبر جهد العرب ظاهرة مهمة بذاتها بعد أن تخلّى عن وجهة النظر التي ذكرها فولرز[1].

وليس لمثل وجهات النظر هذه التي يتخذها جمهورٌ مِن علماء اللغة وسواهم مِن الأجانب إزاء جهود العرب غير احتمالين هما: أن هؤلاء جاهلون بهذه الجهود، لم يقفوا عليها أو وقفوا على أشياء منها غير وافية أو اطلعوا عليها مِن طريق أحدهم أو بعضهم ممن لم يُتْقنوا أسباب فهم تلك الجهود، أو أنهم مُغرِضون بقَصْد وسوء نية، ومتعصبون.

٤ — وذكرُ الأصوات في هذا التعريف، أي أصوات هي؟ أَهيَ أصواتُ اللغة الفصيحة في عهد ابن جني التي كان قُرّاء القرآن الكريم يُرتلون بها آياته، ويُنشدون بها الشعر، ويقرأون بها الخطب وفنون القول الأخرى، أَو أصوات اللغة التي كانت قبل زمانه، وكيف كان نطقُ تلك الأصوات، وهل كان نُطقها مختلفاً في عصر ابن جني عنه في العصر الذي قبله، وما مقدارُ اختلافه؟

وقد جاء ذكرُ اختلاف بعض أصوات اللغة العربية كالضاد والظاء والكاف والقاف مثلاً، ولم تزل أصواتٌ أخرى تتعرض لهذا الاختلاف. وهذا يُهمنا عند الكلام على مخارج أصوات العربية اليوم، فأَيُّ الأصواتِ تُختار ونحن إزاء عدة أصناف منها: أصوات الفصيحة المتمثلة في تلاوة القرآن الكريم وإنشاد الشِعر وقراءة الخُطب والنصوص المختلفة في شتى المجالات، وأصوات الفُصحى المشتركة

---

(١) انظر تاريخ علم اللغة ١٠٦

التي نشأت حديثاً ولم تزل تتكامل ، وهي في أغلبها ليست بعيدة من الفصيحة الأولى ، وأصوات اللهجات المتمثلة في كلام أهل كل قُطْر عربي؟.

وجواب هذا كلّه يتضمَّنه ما يلي : إن الأخذ بأصوات الفصيحة الأولى التي تعرف بالعربية الفصيحة وحدها إغفال لعنصر التطور في اللغة ، ومخالفة لمنهج علم اللغة الحديث الذي من شأنه أن يبحث في لغة الحياة والتعامل في شتى بيئات المتكلمين بها . وإن الأخذ بأصوات اللهجات أو لهجة أو اختيار أصوات من اللهجات جميعاً انقطاع من الفصيحة في مستويها وبُعْدٌ عن مُثُلِ الأمة في وحدتها ، وقربٌ من تأكيد انفصام عُراها ، واستدبارٌ لتُراثها ، وتضييع لكنوزه الثمينة . وإن الأخذ بأصوات الفصيحة المشتركة قبول لبعض التطور الذي سوف يزداد تأثيره في هذا الجانب أو ذاك من اللغة ، وتمهيد لتطور أكبر يمكن أن يقع فيما بعد . وهذا يضعنا أمام اختيار صعب مُحيِّر بيد أن الحزم وواقع الأمر يدفعنا إلى أن نتخذ سبيلاً معيناً من شأنه : أن نساير تطور البحث ومناهجه في علم اللغة ، وأن يجنبنا مزالق الخطر في انشعاب اللهجات وهو فُرقة الأمة وانقسامها على ما وقع للغة اللاتينية والمتحدثين بها ، وأن ندرك الفرق بين وضع لغتنا الفصيحة بمستويها ولهجاتنا العامية والصلة بينها ، وأن نفيد من نتائج البحث في الفصيحة والعامية ، وقيم الفصيحة وخصائصها .

فهذا كلُّه يحمِلنا بل يُلزِمنا أن نأخذ بأصوات الفصيحة المشتركة التي لم تختلف كثيراً عن الفصيحة الأولى في هذا الجانب ، ونلتزم بشَرط الاختيار الموضَّح بعدة مبادىء تتمثَّل في التعلم والتعليم وتاريخ اللغة والحياة البشرية والفكرية . أي أننا نختار أصوات الفصيحة بوجهيها مراعين ظاهرة التطور وقوانينه ، ومستفيدين من نتائج البحث اللغوي ومناهجه في دراسة الأصوات ، ومدركين أن الخلاف في هذا الجانب من اللغة ليس راجعاً إلى ذات اللغة وتقصيرها في الأداء عن حاجة أصحابها ، ولكن إلى أسلوب تعلُّمها وفقر مناهجها وتخلُّفها .

٥ــ وإن لاصطلاح «أصوات» معنى مزدوجاً، يشير أولهما إلى الجانب الصوتي من اللغة المتمثِّل في فيزيائية الصوت وصفاته العضوية. وهذا واضح في كلام مكّي بن أبي طالب على صوت القاف، إذ يُحدِّد مَخرجه وكيفية حدوثه، ويذكر صفاتِه التي تميِّزه من كل الأصوات ويشير ثانيهما إلى أثر هذا الصوت بين غيره من الأصوات التي تشاركه في صَوغ الألفاظ، وهو واضح أيضاً في كلام مكّي عليه من حيث تفخيمُه وتَبيينه، وإظهاره وإدغامه[١] وهذا كله مستويان في دراسة الأصوات اللغوية. أما أحدهما فيظهر فيما ذكره مكّي من كلامه على صوت القاف أولاً إذ درسه من حيث مخرجه فعيَّنه، وكيفية حدوثه، وصفاته. وهذا ما يُسميه علم اللغة الحديث دراسة الأصوات ومصطلحه في الإنكليزية هو "Phonetics" ولفظه في العربية هو الفوناتيك.

وأما ثانيهما فيظهر في كلام مكّي أيضاً على صوت القاف من حيث أثره في الأصوات التي تُشارِكه في صيغ الألفاظ وأثرها فيه، وما روعي من النطق به في كل موضع. وقد ذكر الدكتور كمال بشر هذين المستويين من بحث الأصوات ومنهجه، فقال إنهما خطوتان متلازمتان لأن مادتهما واحدة وهدفهما واحد، والفرق في المنهج، ولكن ينبغي ألا يفصل بينهما، لأن الأحداث اللغوية مؤتلفة لا تقع إلّا كذلك، وليس الفصل بينهما إلّا عند دراسة مستوى من مستويات اللغة المعروفة[٢].

د ــ وثاني اصطلاح في التعريف هو: يعبِّر بها كل قوم، وهو يفيد ما يلي:

١ ــ وفاء اللغة بحاجة أصحابها في كل ظروف الحياة ومختلف الشؤون. ذلك أن المتكلمين مُتفاوتون في بيئاتهم وأعمالهم وثقافتهم وعلمهم، فهي تَمُدُّ كل طائفة من

---

(١) انظر الرعاية لتجويد القراءة ١٤٥.

(٢) انظر علم اللغة العام، الاصوات ٧٤

هؤلاء بحاجتهم منها، وتَفي بغرضهم في كل عصر، وتتكيَّف مع كل تطوّر، حتى كأنما هي مرآة الحياة الصادقة تتلامح فيها كلُّ أبعادها، وتعكس شخصية المتكلمين بها وسماتهم العقلية والنفسية.

٢ــ وقدرتَها على الأداء والاستمرار فيه بما لها مِن خصائص تكمُنُ في عناصرها جميعاً، وبما لأصحابها من استعداد لاستعمالها ومعرفة بالتصرف بها، وبمناهج تعليمها وطُرق تدريسها.

٣ــ واحتواءَها على كل ألوان الأداء، فلا تؤدي عن العلم وحدَه ولا عن الأدب وحده ولا عن الفكر وحده، بل تؤدي عن كل ذلك، بل عن الحياة في كل ظروفها. فهي معادل الحياة بكل وقائعها، ومن ثمَّ صحَّ التعبير عن مستويات اللغة بأنها أحداث.

٤ــ واستغراقَ الاستعمال لكل مستوياتها، إذ تتعرض لكل تأثير في الحياة على شُمولها واتساعها، ولذا فإنها عُرضة لذلك التأثير، فيظهر فيها من هذا الجانب أو ذاك، حتى تكون سِجلاً لما يقع في الحياة.

٥ــ وأنها وسيلة، لا غاية، لِوَعْب الحياة وحِفظ التراث ونَقْله. ذلك أن استعمالَها والحرص على أن تكون مؤدية عن حاجة أصحابها موفية بحقِّ الحياة وتطورها، يَنفي عنها أن تكون غاية، ويجعلها وسيلة ناجعة في كل حال.

٦ــ وشيوعَ استعمالها لكل المتكلمين بها دون استثناء، فهي لكل الأعمار، ولكل الاختصاصات، ولكل مستوى ثقافي، أي أنها رهن الاستعمال في كل بيئة، ولدى كل فئة من المتحدثين بها.

هــ وثالث اصطلاح في التعريف هو: عن أغراضهم، وهذا يَعني أموراً أهمها:

١ــ سعَة تلك الأغراض وتطورها، وهو لا يكادُ يُحاط به، كما أن مضيَّ الزمان يَقتضي التطور في مضمون تلك الأغراض، ويُلزِم أصحابها أن يبحثوا عن معادل لها من اللغة، وهو شيء ملاحظ في اختراع كل ذي صنعة ومهنة، وتجدُّد الحياة وحاجاتها، وتأثير المجتمعات بعضها في بعض، وميل الإنسان إلى الابتكار، والبحث عن الوسائل وتطويرها بقصد الرفاهية، وتيسير الحياة وظروفها.

٢ــ وشمول حاجات المتحدثين بها، وتَنوُّع تلك الحاجات، وتعدُّد بيئاتها وحيوية التعبير عنها، ومرونة عناصرها في استغراق ذلك كله.

٣ــ وتجدُّد هذه الأغراض وصلتها بالحياة، وتأثيرها في اللغة كلها ومبادلة اللغة ذلك التأثير في قبولها للجديد وإعطائها له سِمَتَه وموضعَه منها.

« ثانياً »

معالم البحث في اللغة

١ ــ ماذا يُثير هذا التحليل لتعريف ابن جني للغة من مسائل تَتعلَّق بالدرس اللغوي ومناهجه؟ أَوْ لِمَ لا نُلَخِّص نِقاطَ ذلك التحليل فنحصرَ موضوعات اللغة وأحداثَها، ونستخلص غيرها من المسائل، فنتبين ما يُهِمُّ موضوع علم اللغة ويبحث فيه، وما يرفده ويُمَهِّد له، أو يساعد على فهم مسائله.

٢ ــ فأما موضوعات علم اللغة وعناصرها التي يبحثها، واستغرقَها التعريفُ فهي:

أ ــ أصوات الفصيحة المشتركة كما نسمعها اليوم في قراءة القرآن الكريم وإنشاد الشعر وإلقاء الخطب، وقراءة النصوص المكتوبة الفصيحة المذكورة، وملاحظة تطورها في اللهجات العامية، وتتبع ذلك في الحوار والمناقشة عند كل المتكلمين بها.

ب ــ كيفية نطق هذه الأصوات، وتعيين مخارجها وصفاتها، ووظائفها في صيغ المفردات والتعابير.

جـ ــ المزاوجة بين الأصوات والحروف، والانتفاع بالصوت في حرفه، وما يَطرأُ عليه في اللفظ من حيث عامل الصيغة شكلاً ونَظْماً وتعدُّدُ مقاطعِه.

د ــ ملاحظة هذه الأصوات في بعض اللهجات اليوم وذكر ما لحِقَها من تطور، وتتبُّع ذلك في أمثلة منه، وتحليله.

هـ ـ المقارنة في بعض الأحيان بين هذه الأصوات وأصوات بعض اللغات السامية أو الأُوروبية حيناً.

و ـ بحث صيغ الألفاظ، وموافقة ائتلافها الصوتي والدلالي والنحوي، وتحليل ذلك.

ز ـ دراسة نظم الكلام، وتحليل أحداثه الصوتية والمعنوية، وتوجيه أساليبه بما يَكشِف عن علائقه بالأفكار.

ح ـ الاهتمام بمعاني الأداء ألفاظاً وجُمَلاً، بِعَرْض الغَرَض من ذلك والكشْف عنه، وتحليل أمثلة منه.

ط ـ تتبُّع ظواهر التطور الدلالي ومقارنتها إذا اقتضى الأمر باللهجات العامية.

٣ ـ وأما المسائل التي تَرفِد علم اللغة وتُمهِّد له، وتساعِد على فهمه فهي:

أ ـ تعدُّد المصطلحات المستعملة لدى الدارسين، وتداخلُ بعضِها في بعض، وضرورة الاتفاق على ما هو موافق منها وتصنيفه وتوضيحه ونشره.

ب ـ اختلافُ استعمال اللغة بِتبايُن البيئات والمِهَن ولا سيما نُظمِها ومدلولها.

جـ ـ مناهج علم اللغة ومواضيعها الأخرى في المعاهد والجامعات وأساليب تعليمها ووسائله وأهدافه.

د ـ وسائل الإعلام والتثقيف والتوجيه وصلتها وآثارها فيها[1].

هـ ـ دراسة اللهجات العامية وصلتها باللغة الفصيحة، وخصائصها.

---

(١) انظر الإعلام ولغة الحضارة للدكتور عبد العزيز شرف، والإعلام والاتصال بالجماهير للدكتور إبراهيم إمام.

و ــ ظواهر لغة التراث اللهجية والدلالية، وحاجتُها إلى جَمْع وتَصنيف، ثم دراسة وبحث.

ز ــ الفصيحة والعامية وحقيقة مسألتهما، وصلة إحداهما بالأخرى.

ح ــ الكتابة بالحروف العربية وتطورها، ومسألة رسم القرآن الكريم، وصلة ذلك كله بأصوات اللغة.

ط ــ أمثلة ونماذج تطبيقية وافية تشمل كل عناصر اللغة.

ي ــ تاريخ علم اللغة ورصْد أبرز ظواهره وتتبُّعها عند الباحثين لدى الأمم ذات الحضارة ونتائج البحث فيها.

ك ــ جهود العرب في هذا العلم، ومناهجهُم في بحثه ودَرْسه، ونتائج ذلك وآثارهم فيه.

٤ ــ بيد أن بحثنا في هذا الكتاب سوف نقتصره على ما له صلة بما خلصنا إليه من تحليل تعريف ابن جني للغة ولا سيما الأصوات، وما يتصل بموضوعها، ويتمثّل في النقاط الأولى «١ ــ ٥» المذكورة في المقطع الثاني من «معالم البحث في اللغة» دون غيرها، غير أننا سوف نفيد من بعض المسائل التي أثارها التحليل المذكور في المقطع الثالث ولا سيما النقطة «ي» وذلك لِما لها مِن أهمية في توضيح الجهود في الدرس اللغوي واتجاهه. وربما أفدْنا من النقطة «أ» لِما يمكن أن يساعد على منهج البحث في اللغة وتحديد المواضيع التي يتناولها.

ويتمثل هذا المنهج الذي نميل اليه في دراسة اللغة فيما ذكره الدكتور كمال بِشْر من حيث مستويات الدرس اللغوي إذ جعَلَه على النحو التالي: علم الأصوات،

وعلم الصرف، وعلم النحو[1] والدراسات المعجمية. ووَصَفَ ذلك بقوله[2].
«وليس الترتيب بين هذه العلوم ترتيب أهمية أو أفضلية إنما هو ترتيب يقتضيه منطق الأشياء».

وهذا الفهم لمنهج الدرس اللغوي وموضوعاته هو الذي يدعو الباحثين في اللغة عندنا اليوم إلى مناقشة الاصطلاح والانتفاع به، فكما أن الاسم يجب أن يُوافق مُسمّاه مِن وَجه أو أكثر، فكذلك أمرُ الاصطلاح لا بدّ مِن أن يوافق مضمونَه ويدُلّ على أجزائه. وكلما اقترب هذا التوافق بين المصطلح ومدلوله كان ذلك أَولى، وأَدلَّ على ما يُراد مِنه. ولهذا فقد ذكر الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح أن مصطلح «فقه اللغة»، الذي بدأ استعماله في القرن الخامس للهجرة، لا يدُلّ أبداً على ما يدل عليه مصطلح «علم اللسان الحديث» الذي هو في الانكليزية: Linguistic وأوضح أن دلالة فقه اللغة في استعمال العلماء العرب قديماً مقتصر على دراسة اللغة في عُمق[3] دون أن تتجاوز إلى أسرار اللسان وقوانينه التي باتت من خصائص الدرس اللغوي اليوم. وآثَرَ غيرُه الإبقاء على المصطلح القديم، وإن تناولَ بعض مفرداته تحت مصطلحات «علم اللغة» أو «علم اللسان». دفعاً لِما ذهب إليه نَفرٌ من الباحثين الذين قالوا بتأثر هذا العلم بما تُرجِم عن اليونان وغيرهم، إذ أن ذلك يوقع في أخطاء وخطورة في فهم المضمون والمنهج على حد سواء[4].

وبالرغم من هذا التداخل في تناول المصطلح بين مواضيع فقه اللغة وعلم اللغة أو

---

(1) وقد جمع بعض العلماء علمي الصرف والنحو في مصطلح واحد يسمى عامل الصيغة، انظر منهج البحث في الأدب واللغة ٦٧.

(2) انظر دراسات في علم اللغة، القسم الثاني ٨٤.

(3) انظر مجلة اللسانيات، المجلد الأول، الجزء الثاني ٥٥.

(4) انظر فقه اللغة في الكتب العربية ٣٤، ١٧٥.

علم اللسان أو اللغويات أو اللسانيات فهذه ظاهرة لا بدّ منها في كل علم ناشىء أو مُستفاد منهجه ومصطلحه، وسوف يأتي الوقت الذي يماز علمُ اللغة أو ما هو من قبله في العنوان من فقه اللغة.

وقد بدأت بعض المؤلفات تدل على ذلك وتُؤكّده.

وقد ألف اللغويون المحدثون، ولا سيما في الغرب عدة مصطلحات توَّجت البحث في اللغة وظواهرها. وإن الاطلاع عليها يزيد في توضيح سمة الدرس اللغوي مضموناً ومنهجاً ولا يتسنى الاطلاع عليها والعرض لها دون أن تكون في سياقها من تاريخ هذا العلم. وتناولُ الكلام على ذلك مُحوِج إلى تمهيد يتناول البحث في اللغة ومناهجه. وهناك طائفة من الاصطلاح تخصُّ الأصوات، وقد ذُكِرَ كثير منها في لغة التراث، وهي متفقة أو مقاربة لِما يستعمل مثلُها في الدرس الصوتيِ اليوم. وهذه المصطلحات تقتضي معاودة للتنظيم والتوجيه.

والآن ما تلك المصطلحات، وما الظواهر التي تضمنتها، وما ذلك السياق التاريخي الذي اشتمل عليها؟ فكل ذلك سوف نعرض له في الفصل التالي.

الفصل الثاني

معالم الدرس اللغوي

معالم الدرس اللغوي

«كلمة على الدرس اللغوي»

بات البحث في اللغة منذ أقلَّ مِن رُبع قرن يُطالع هذه الفئة مِن طلاب الجامعات وأساتذتها من أهل الاختصاص ، وطائفة مثقفة لها كَلَفٌ بِمِثْلِ هذا اللون من البحث ، بمضامين تبدو كأنها جديدة كل الجِدّة ، ولا سيما بعض الاصطلاحات والعناوين التي تَوَّجت تلك البحوث و بمناهج وأساليب أكثر طرافةً ، وأبعد غرابةً مما عَهِدَت تلك الفئات[1] .

ولم تزل هذه الظاهرة تتزايد وتَقوى ، حتى كأن البحث في اللغة على هذا النحو أو ذاك شيء لم يكن لأهل هذه اللغة به عهدٌ ، وقد بعث على ذلك عدة بحوث ، ما بين مؤلَّف ومُترجَم ، نُشرت وذاعت . واجتذبت تلك الظاهرة نَفراً هم مزيج ثقافي : مختصون ، وهم قلة قليلة ، وغيرُ مختصين وهم الغالبة . ودارت على أقلامهم أحاديث وبحوث ، وعقدت بينهم نَدوات ولقاءات عرضَت لها كلٌّ وسائل الإعلام . ثم لم تزل أن هَدَأت ، لتعود إلى ما كانت عليه ، في هذه الجهود التي جعلت تأخذ في البحث على هذا النحو الجديد ، وتنتفع بما تدفَّق عليها ، من جديد منهج ومصطلح في اللغة ، في البلاد الغربية .

بيد أن هذا الفهم لمثل تلك البحوث وتقويمه لها لم يزالا على حالها من أنّ هذا شيء جديد ، ليس للغة العربية عهدٌ به ، ولا سيما كثير من المواضيع ، وأغلب

---

(١) انظر علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة ٢٠ .

المناهج ، بل إن فهم الأكثرين يوشك أن يَعُدّ ذلك فتحاً في العلم باللغة والبحث فيها ، وإنّ عكوف المختصين عليه وقيام الدارسين به سوف يأتي بما لم يعرفه الأوائل.

وغاب عن بال هؤلاء أن اللغة ظاهرة إنسانية ، أدركت كل أمة كان لها شأن في الحضارة أو شاركت فيها ، أن اللغة أَولى وسيلة تحفَظ بها ذِكرَها وتُشيد بإنجازاتها ، وَتَدَّخِر بها ما لا يدَّخِره غيرُها من وسائل التراث ، حتى كأن تلك الأمم ائتلفت على ذلك وارتضته . وشرعت منذ زمن بعيد تُعنى بلغاتها ، وتبحث فيها ، على تفاوت فيما بينها ، واختلاف في العناية والبحث موضوعاً ومنهجاً.

والمُهِمّ من ذلك كله أن عِدّة ظواهر في الموضوع والمنهج انتظمت عمل اللغويين عند كل أمّة ، فقد تكرّرت ظاهرة البحث في أصل اللغة ونشأتها والكتابة بوصفها تحليلاً لغوياً ، والنظريات اللغوية ، وتحليل الكلام إلى ألفاظ ، وتحليل الألفاظ إلى جزئياتها ، والوصف الصوتي ، ووصف اللغات ومثل هذه الظواهر وغيرها ، مما نجدُه في البحث اللغوي ، يقِف الدارس على خصائص هذا العلم وقِيمه وتوضح للقاريء أن اللغة ظاهرة إنسانية يقع عليها في بيئة ما يقَعُ عليها في بيئة أخرى تتحدَّث بلغة أخرى ، ولا يعدو الاختلاف في ذلك إلّا أن بعض الظواهر تَقْوى حتى تشغَلَ الباحثين والدارسين ، وبعضها الآخر يَضعُفُ فلا تُلفِت مِن أهل الاختصاص باللغة أحداً إليها .

وهذا ما نجدُه بين أيدينا في عدد من المراجع التي تُؤَرِّخ لعلم اللغة أو تُلمُّ بتاريخها وتُفيد منه عند تناول موضوع أو بحث.

ولعل إطلاق أكثر الباحثين في اللغة اصطلاح « علم » يوضح لنا هذه الوحدة التي تؤلف بين لغات الأمم الحضارية ، بل غير الحضارية أيضاً ، كما يُمكن أن نجد فيها من ظواهر توضِح لنا شيئاً أو أشياء عن لغة حضارية انقرضَ أولُها ، وذهب تراثُها القديم ، فغابت عن مؤَرِّخ اللغة تلك الأشياء ، كما يوضِّح هذه الجوانب المهمة التي

حصّلها باحثو اللغة المعاصرون ، ولا سيما في الغرب ، فانتفعت بها علومٌ أخرى ولا سيما في مجال الوصف والتحليل والتقنين والإحصاء والمناهج ، وهذه أشياء يحتاج إليها البحثُ والدرس في عدة موضوعات.

وإن هذه الخصائص سوف تتكشَّف لنا عند عرضِنا لموجز تاريخي لعلم اللغة ، ونحن نتتبع عدة ظواهر ، انتظمت عدة لغات حضارية . وهي أيضاً في الوقت نفسه تصِل ما بين القارىء لمضمون الدرس اللغوي الحديث ومنهجه اليوم وما سبق من ذلك سواء في تراثه أم في تراثِ أُمم اللغات التي سيأتي ذكرُها في هذا الموجز. وأَحسَب أن في ذلك تمهيداً موافقاً لقارىء مثل هذا البحث بعد الذي تقدَّم من الحديث عنه.

«موجز في تاريخ عدة ظواهر لغوية»

إن مجموعة الظواهر التي ستكون محور هذا المختصر لتاريخ علم اللغة قصدتُ إلى جَعْلِها متوالية بحسب سَبْقِها أحياناً إما تاريخياً وإما منزلةً بين غيرها من الظواهر، ولكن هذا لا يعني أَلَّا تتقدَّمَ إحداها فتتجاوز هاتين الخاصتين لأمر ما، قد يكون لِتأخُّر وجودها بين سواها، وقد يكون لأهميتها أو لقلتها.

١ — وفي كلّ حال فإن أبرز ظاهرة ظلَّت تلِحّ على المُشتغلين باللغة وغيرهم مثل الفلاسفة وعلماء الأجناس البشرية هي: أصل اللغة ونشأتها.

ومن الأمم التي ذُكِرَ لها شيءٌ في هذه الظاهرة قديماً الإغريق والرومان. ففي حوارية «كراتيل» لأفلاطون، وفي نظرية أرسطو التي تقول باصطلاحية اللغة شاهدٌ لِجهود الإغريق في درس هذه الظاهرة.

وأما جهود الرومان فتتمثَّل في استنباطهم الاشتقاقات الصحيحة، والنظرية المادية الطبيعية في نَشْأة اللغة، وقد أعَدَّها بصياغة مُحكمة الشاعرُ المشهورُ كوركيس، حتى كانت حجةً لِمن تَصَدَّى للنظريات الدينية في اللغة بالدَحْضِ والتفنيد فيما بعد.

وفي التوراة بعضُ الأفكار عن أصل اللغة ونشوئها. وكان دانتي يرى أن العبرية أم اللغات. وكان هذا رأياً ساد أحقاباً طوالاً، حتى القرن التاسع عشر[1]، ونشر

---

(١) مرت الإشارة إلى هذا الرأي ومدلولها، وفي ترجمة دانتي نفسه دليل على ما قلنا.

غيشار في القرن السابع عشر كتاباً يُؤكِّد فيه التوافق الاشتقاقي بين اللغات، وأن اللغات ترجع إلى العبرية، وكان يرى ذلك أيضاً مشهورون كبار من مفكرين وفلاسفة مثل روسو وآدم سميث، ولوك وهوبز وكوندياك. وقد حاول الفيلسوف لايبنيتز أن يدحضَ هذا بنظرية تقول بأن اللغة الأصلية لا بدّ من أن تسبق اللغات المعروفة، وتتمثّل في لغة مُفْتَرَضة.

وقام غيرُ باحث مثل هِرْدر ودوبروس وجبلان في بحث أصل اللغات بطريق دراسة نماذج صوتية عامة.

وإذ اكتُشِفَت السِنسكريتية ذهبَ نفرٌ إلى الاعتقاد بأنها أم اللغات. ومن هؤلاء فرانزبوب (— ١٨٦٧) ثم رجع عن ذلك معتقداً أن اللغات جميعاً تحوُّلات للغة أصلية.

وبحث العرب في هذه الظاهرة. فكان لعدة من جهابذة اللغة ومشاهيرها مثل أبي الحسن الأخفش وأبي بكر بن السراج وأبي علي الفارسي وأبي الفتح ابن جني وغيرهم ممن يذكرُهم السيوطي بحوثٌ قيمة، من أهمها بابان عقدَهما ابن جني في الخصائص أحدهما «باب القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح» والثاني «باب في هذه اللغة: أفي وقت واحد وُضِعت أم تلاحق تابع منها بفارط».

وقد استغرقت بحوثُ هؤلاء الدارسين من العرب الفَرضيات التي احتوت عليها النظريات الأربع وهي: النظرية البيولوجية، أي المتعلقة بالحركة والوظائف العُضوية عند الإنسان والحيوان والطير والحشرات. والنظرية الأنتربولوجية، أي تاريخ الجنس البشري ودلالة الصوت والعلاقة الرمزية بينه وبين مصدره. والنظرية الفلسفية بكل افتراضاتها الفِطْريّة والاكتسابية والعَرَضية. والنظرية الدينية التي تجعلها من عند الله تعالى.

بيد أن طائفة مِن اللغويين في أواخر القرن التاسع عشر ولا سيما جمعية باريز اللغوية قرَّرت منع مناقشة أيِّ بحث في هذه الظاهرة. وقال فندريس : إن هذه القضية لا تَمتُّ إلى اللغة بصلة. وقال توفار : إن مشكلة أصول اللغة تستعصي على الحلّ. وهذا المعنى نفسه قال به قبل هؤلاء ابنُ السُبْكي ووافقه ابنُ الأنباري وقال به غيرُهما، نقلَ ذلك السيوطي فقال :[1] «قال في رَفْع الحاجب : الصحيح عندي أنه لا فائدة لهذه المسألة، وهو ما صَحَّحه ابن الأنباري وغيره. ولذلك قيل : ذكرُها في الأصول فُضول».

بيد أن هذه النظريات هي التي يسَّرت لِعلم اللغة التاريخي[2] «أن يتصوَّرَ أوضاعاً لغوية ترجع إلى أحقاب من التاريخ أقدمَ مما تَرجِع إليه النصوص المعروفة».

٢ — وتعد الكتابة بِوَصْفِها تحليلاً لغوياً من أكبرِ الظواهر التي أَعانت الباحثين على اكتشاف تاريخ اللغة وتتبع ظواهرها.

ولا بد من أن نذكر أن الكتابة بدأت عند بعض أُمم الحضارة تصويرية أي أنّ الصُور كانت رموزها ولا سيما المصريين القدماء. وقد عُرِفَتْ كتابتهم هذه بالهيروغليفية[3]، ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وهو التاريخ نفسه الذي ترجع إليه الكتابة برموز الحروف عند الصومريين والأكاديين. لكن الكتابة الهيروغليفية كما قرَّر المؤرخ مُورُ وشامبليون مُحلِّل رموزها تحتوي على خصائص إبداعية متقدّمة من حيث الرمز والإشارة اللذان يدلان على ألفاظ وأصوات. وإذا كانت هذه الكتابة صوراً[4] فهي تؤدي عن المعاني مجازاً، وهذا ما

---

(١) أنظر المزهر ١ / ١٨.

(٢) أنظر تاريخ علم اللغة ٢١.

(٣) أنظر فقه اللغة ٣١.

(٤) انظر فقه اللغة ٢٦.

بيد أن طائفة مِن اللغويين في أواخر القرن التاسع عشر ولا سيما جمعية باريز اللغوية قرَّرت منع مناقشة أيِّ بحث في هذه الظاهرة. وقال فندريس: إن هذه القضية لا تَمِتُّ إلى اللغة بصلة. وقال توفار: إن مشكلة أصول اللغة تستعصي على الحلّ. وهذا المعنى نفسه قال به قبل هؤلاء ابنُ السُبْكي ووافقه ابنُ الأنباري وقال به غيرُهما، نقلَ ذلك السيوطي فقال[1]: «قال في رَفْع الحاجب: الصحيح عندي أنه لا فائدة لهذه المسألة، وهو ما صَحَّحه ابن الأنباري وغيره. ولذلك قيل: ذكرُها في الأصول فُضول».

بيد أن هذه النظريات هي التي يسَّرت لِعلم اللغة التاريخي[2] «أن يتصوَّرَ أوضاعاً لغوية ترجع إلى أحقاب من التاريخ أقدمَ مِما تَرجِع إليه النصوص المعروفة».

٢ ــ وتعد الكتابة بِوَصْفِها تحليلاً لغوياً من أكبرِ الظواهر التي أَعانت الباحثين على اكتشاف تاريخ اللغة وتتبع ظواهرها.

ولا بد من أن نذكر أن الكتابة بدأت عند بعض أُمم الحضارة تصويرية أي أنّ الصُور كانت رموزها ولا سيما المصريين القدماء. وقد عُرِفَتْ كتابتهم هذه بالهيروغليفية[3]، ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وهو التاريخ نفسه الذي ترجع إليه الكتابة برموز الحروف عند الصومريين والأكاديين. لكن الكتابة الهيروغليفية كما قرَّر المؤرخ مُورُ وشامبليون مُحلِّل رموزها تحتوي على خصائص إبداعية متقدّمة من حيث الرمز والإشارة اللذان يدلان على ألفاظ وأصوات. وإذا كانت هذه الكتابة صوراً[4] فهي تؤدي عن المعاني مجازاً، وهذا ما

---

(١) أنظر المزهر ١/ ١٨.

(٢) أنظر تاريخ علم اللغة ٢١.

(٣) أنظر فقه اللغة ٣١.

(٤) انظر فقه اللغة ٢٦.

حَفَز علماءَها على أن يميِّزوا بينها دفعاً للبس والإشكال بإشارات تُفيد اختلاف المعنى في سياق النص.

وفي التاريخ نفسه كان للآشوريين والكلدانيين أي السومريين والأكاديين كتابة تؤكدها مُكتشفات مدينة أوغاريت في الساحل السوري. وفي كتابتهم ما يدلُّ على نوعين من تمييز اللغة: الألفاظ والأصوات. وفيها إشارات صوتية بلغَت عِدّتُهَا مئة. وبهذا تمكَّنت كتابتُهم من تدوين كل شيء مستعينةً بتلك الإشارات حتى القرن الأول قبل الميلاد.

وفي أول الألف الثالث قبل الميلاد كان للصينيين كتابة يُسمى أُسلوبها «با — كوا» وينسب إلى امبراطور خرافي يدعى «فو — هي». وليست كتابة الصينيين اليوم بتلك، ولكن هي من إبداع كُتّاب وزراء آلوا إلى آلهة من مستوى دنيوي. وتمتاز الكتابة الصينية بأنها رمزية ذات إشارات توضِّح نُطْق اللغة في سياق الكلام، وقد بَلَغت هذه الإشارات بضعة آلاف، وتختلف بحسب مناطق الصين، ولكنها ليست كتابة صُورية ولا صوتية فهي أشبه بالأرقام في اللغة العربية، أي يُمكِنُ فصلُها عن النطق ولا تؤدي عنه. بيد أن لهذه الإشارات هيئات وشكولاً توحَي بصُوَر مختلفة من حيوان وحشَرات وأشياءَ، مما يُظَن معه أن تكون مرحلة لكتابة سبقت، كانت تُرسَم فيها.

وتاريخ كتابة الفينيقيين منتصف الألف الثاني قبل الميلاد كما تُمثِّله الآثار التي عُثِرَ عليها في جُبَيل وأُوغاريت وسيناء وجنوب الجزيرة العربية. وهي تمثل ثورة فكرية وتجديداً جذرياً في تاريخ الكتابة كما يرى مايّيه فيما نقل عن جورج مونان[1]: «لقد توصل الناس حول بحر إيجه إلى تدوين اللغات تدويناً صوتياً صرفاً بواسطة

---

(١) تاريخ علم اللغة ٧٣ وانظر أيضا فقه اللغة وأشتات مجتمعات ٢١.

بضع عشرات فقط من الإشارات واستغنَوا عن ذلك التدوين المعقد ذي الإشارات العديدة المستخدمة في مصر وبابل لكنهم اقتصروا على تسجيل المَقْطع أي تسجيل واقع لفظي يسهُل عزلُه عن غيره. ولمّا كانت حروف المدّ في اللغات السامية عناصر متحوّلة تصلُح لإنشاء الكلمات وتحديد الصيغ النحوية، فإن اللغة الفينيقية لم تُدَوِّن من المقطع سوى حروفه الصحيحة. وهي من العناصر الأساسية الدالّة على معنى. وتركت للقاريء مهمة إضافة حروف العلة إليها «ومعنى هذا أن الكتابة الفينيقية نتيجة تحليل لغوي كامل. ولذا فهي ممتازة بخصائص في استعمال اللغة المنطوقة في أغلب مستوياتها من دون كل اللغات الأخرى.

وإذا كان عنصرُ النهضة في أوروبا جعل اللغويين يهتمّون بظواهر اللغة أكثر، فمن ذلك محاولة نفر منهم أن يجعلوا الحروف والكتابة متفقة واللفظ، والاقتصار على الحروف الملائمة لتركيب الأصوات حتى حفزَ هذا كلُّه فئة على وضْع أَبجدية، تمتاز بتلك الخصائص.

وتناول النقاش مدى نصف قرن في فرنسا أمر الكتابة الصحيحة. فصدر لِلُغويٍّ وَالي كتاب عنوانه «الكتابة الصحيحة للسيدات» دعا فيه إلى الأخذ بأُسلوب صوتي مبني على النطق.

وعُني اللغويون في إنكلترا بالاختزال مدى قرن ونصف، وصدرت لكثرة من المؤلفين منهم كتب في ذلك. وكان من أشهرهم تيفان الذي يسَّر له الموضوع تحليل أصوات اللغة الإنكليزية، وجعلها في إشارات واضحة.

وأما الحديث عن جهد العرب في هذا الجانب فيتصل بالكتابة الكنعانية أو الفينيقية من جهة وبجهد الأنباط الذين يُعزى إليهم من حيث الكتابة الخطّ العربي. في آثار «رأس شمرا» التي تُرجِم كثير من نصوصها تبيّن التوافق الشديد بين هذه

النصوص ونصوص اللغة العربية من حيث المفردات والتعابير والقواعد[1] . وأصل الخط النَبْطي هو الخط المُسْند ، أي الخط اليمني . ووصفُهُ بالمُسْند ترجع إلى الطراز المِعماري في تشييد القصور عند أهل اليمن . فقد تماثل الخط وذلك الطراز ، إذ تستند معظم حروفه إلى أعمدة . وإن هذا الخط مُشتق من الرسم الكنعاني الذي يمتاز بجمال التنسيق والأشكال الهندسية ، والجهة التي يبدأ به غالباً ما تكون من اليمين إلى الشمال[2] .

بيد أن أروع ما تمَّ في القرن الأول للهجرة الشريفة أي في القرن السابع الميلادي ما تمثَّل في ما فعله أبو الأسود الدُؤلي مِن وَضْعه المُصوِّتات الصغرى أي الحركات . وهو ما اشتُهر اليوم مثلها في اللغات الأوروبية الراقية ولا سيما الإنكليزية والفرنسية والألمانية ،وسُمِّيت « الحركات المعيارية » ، وذلك بعد قصة وقعت لأبي الأسود الدؤلي مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ومع زياد بن أبي سفيان . وهي مروية بأسانيد في عدة مصادر[3] . وأحسب أن أحداً من الناس في ذلك العصر المتقادم ، لم يَسبِق أبا الأسود إلى هذا العمل الرائع غيرما كان للهنود من عناية في ضبط تلاوة كتابهم المقدس « الفيدا » ، وشأن النَفَس ، ومقاطع الأصوات في ذلك حتى تأتّى لهم أن يُقدِّمُوا عملاً مُتْقناً للغتهم المتمثلة في تلاوة كتابهم .

ومثل عمل أبي الأسود لا بدّ أن تكون قد سبقتْه خُطوات يسَّرت لأبي الأسود أن ينتفع بها في وَضْعِه تلك الحركات على هذا النحو المبيَّن في كتب نَقْط المصاحف . والمهم من ذلك هذه الوقائع بِحَرْفيتِها ونصِّها وروحِها دون مباينة ، تَمَّ مثلُها فيما

(١) انظر معلومات موجزة عن رأس شمرا — أوغاريت ٢٠ .

(٢) انظر فقه اللغة ٧٤ .

(٣) انظر البيان والتبيين ٢/ ٢٣٦ ومراتب النحويين ١٠ وأخبار النحويين البصريين ١٦ وإيضاح الوقف والابتداء ٣٦ وأنباه الرواة ١/ ١٦ .

وضعه اللغوي الإنكليزي المعاصر «دانيال جونز» من حركات معيارية وضمَّنها كتابه[1] الذي صدر أواخر الربع الأول من القرن العشرين. وسيأتي توضيحُ عملِ أبي الأسود في هذا الموضوع في بحْث الحَركات المعيارية من هذا الكتاب.

٣ــ وهذه الظاهرة، وهي الوثائق اللغوية، كان أَولى أن تُدمَج في الظاهرة السابقة، على أن دلالة الظاهرة السابقة لا تتضمَّن دلالة هذه، ولذا فقد أفردتها. ثم إن فيها بعض التوضيح لهذا الجانب من اللغة من حيث احتواءُ نصوصها المكتوبة على عناصر اللغة وجهدُ أهلها، ووفرتُها وتنوّعُها أَوْ قِلّتُها.

فمن ذلك ما كان للأشوريين والكلدانيين من تلك الوثائق المتمثلة في ألواح الطين المشوي التي توافرَت في غير مكان أثري، وتنوَّعت في موضوعها مثل الهجاء والمفردات والإشارات الدالّة المتنوعة الدلالة وقد بلغت عندهم مائة. وتتمثَّلُ في نوعين مِن المقاطع وحيدة ومركبة.

وكذلك الفينيقيون الذين اتصفت وثائقهم بالوفرة والتنوع اللذين يوضحان خصائص موضوعية ومنهجية ولا سيما في الأبجدية.

ولا تقِلُّ هذه الظاهرة عند الإغريق عنها عند سواهم ولا سيما وفرتها وتنوعها، وما كشَف عن إبداع وُصِفَ بأنه ثَوْري. ذلك هو تدوين حروف المدّ، وإن كانت بعض الروايات الإغريقية تعزوه إلى الفينيقيين.

وتتمثَّل الوثائق عند الرومان في عدة نصوص، حفَلَت بمضامين تتناولُ الكتابة في لغات غير لاتينية.

وسوف تكثرُ هذه الوثائق بعد ذلك وتتنَوَّعُ، ولكن سنراها ذات أهمية معينة فيما

---

(١) انظر. An outline of English Phonetics, P 29

تركته العرب منذ أواخر القرن الأول للهجرة وما بعد ذلك بقرنين أي في القرن الثامن الميلادي لأنّها تمثّل جهداً لم تزل آثاره حتى اليوم، تُلفِت المطلعين من الباحثين الأجانب، وتَقِفهم على مستوى من البحث اللغوي مضموناً ومنهجاً لم يسبقوا إليه. والمهم أن تلك الوثائق كثيرة ومتنوعة ومتوافرة لِما اتصَفَ به أُسلوب كُتّاب العربية وباحثيها بخصائص عدة قرون متطاولة، فإذا كلٌّ منهم يُراجِع ما كتَبَه سلفُه لِيَصِلَ ما قاله هؤلاء بما يقوله له هو، ويفرُق بين ذاك وهذا تمييزاً وتوضيحاً، وإن كانت هذه الظاهرة تثير نفراً من الناس على نحو يُستغرب منهم ذلك ويُحمل على التساؤل في سببه[1].

وإذ اتصل الغربُ بالشرق الأقصى ولا سيما الهند، وتَقوى صلاته به، تبدأ محاولات فردية بتأثير المنهج المقارن الذي انتفع به اللغويون حينئذ، فكان اكتشاف السنسكريتية في وثائقها المهمة التي لَقِيَت عناية فائقة لدى مختلف العلماء ولا سيما اللغويين مثل القاضي وليام جونز الذي وَصَف تلك اللغة من حيثُ بنيتُها، وقارنَها باليونانية واللاتينية، وتبعَه آخرون حتى كان البحث في السنسكريتية فاتحة اتجاه جديد في علم اللغة في الغرب.

٤ — وظاهرة التفكير اللغوي، وإن كانت تتصل بالظاهرتين السابقتين أيضاً، ذلك لأنها مستوفاة إما من الكتابة وإما من الوثائق فإنها تمثّل جانباً جديداً يحسن معه إفرادها. فهي تَعني هذه الشواهد التي تؤكد على لون من التفكير عند أمة، ولا سيما ذات الحضارة، يتصل بموضوع اللغة وظواهره ومناهج البحث فيه.

ولا شك أن للمصريين من تصوير المعاني في كتابتهم الهيروغليفية أقدم شيء في هذه الظاهرة، ويمكن أن يُضم إليهم الصينيون، لأن كتابتهم فيها شيء مِن الشكول ورسوم المخلوقات التي تَدلُّ على معان.

---

(١) تجديد الفكر العربي ٥٤.

ويشترك الإغريق والصينيون في موضوع المناسبة بين الأسماء ومسمياتها فإن لأحد فلاسفة الصين ويُدعى هسونغ ، وقد تُوفي منتصفَ القرن الثالث قبل الميلاد ، قولاً قيماً يؤكد على أن أسماء الأشياء إنما هي مُواضعة وبرغبة مَنْ سَمَّى بها ، ولا علاقة لها بمُسمياتها . لكن الهنود في وصفهم الدقيق للغتهم يُعدون أسبقَ مَنْ له جُهد في التفكير اللغوي . وأما الإغريق ففضلاً عن مشاركتهم في نظرية المناسبة بين الأسماء ومسمياتها ، فإن لهم بحثاً وجهداً في مسألتين مهمتين هما : القياس والاستعمال .

وكان للرومان فيما عُزي إلى لُغويِّهم الشهير « فارون » من آراء جهد يُذكر . فمِن ذلك قوله بالحاجة إلى مراجعة التاريخ لمعرفة أصول الألفاظ البدائية . وملاحظاته في الوظيفة البنيوية ، وإدراكه مبدأ الاقتصاد ، وتصنيفه ألفاظ الأفعال في أربع زمر بحسب الزمن .

وللعرب ، من ذلك ما كان للهنود من وصف لغتهم الوصف الدقيق لم يكن له مثيل مدى عشرة قرون في أوربا ، ولا سيما في نتاج مدرستي البصرة والكوفة ، حتى ذهب بعض الباحثين من المستشرقين إلى أن جهدهم ذلك اهتدوا فيه بمَنْ سبقهم إلى مثله كالهنود ، بيد أن آخرين دحضوا ذلك وردّوه . وفيما كتبَه بعد ذلك مثلُ ابن جني والزجّاج وابن السّراج وغيرهم ولا سيما تعليل القراءات ، شيءٌ يستحقّ التوقف والنظر لِما فيه من خصائص التفكير اللغوي الدقيق .

وبنهاية القرن الرابع عشر كان لريمون لول الفرنسي جهد يتعلّق بدلالة اللفظ التوافقي ويذكر « مونن » احتمالَ انتفاعه بذلك مِن ابن خلدون . وظهر أثرُ جهده ذاك في نظرية « لايبنتز » حول « الخاصة الكونية » .

وشاعَ في القرن السادس عشر القولُ بوَحْدة تكوين اللغات ، وأنّ العِبْريّة أصلُها المشترك ، ونشِطت دراسات حول ذلك . ولا يخفى مثل هذا على القاريء من حيث

ما كان يبيّته اليهود ومَنْ شايعهم لرفع ما لحقهم ببغيهم وإفسادهم في المجتمعات الأوروبية.

٥ ـــ ولهذه الظاهرة اصطلاحان هما «التقطيع الأول» و«تحليل قواعد اللغة» وقد ذكرهما «مونن» منفصلين، على أنّ النظر يقتضي جعلهما شيئاً واحداً. وذلك لأن أولها لا يعدو معرفة وظيفة اللفظة في السياق والبحث عن قانونها في الكلام، وهذا التفسير واضح في ثانيهما. ولذا فقد قَرنت بينهما.

ويُذكر للهنود منه تقييدُهم لمعنى الكلمة في سياق العبارة، ولكنهم ينفونَه عنها وهي مفردة.

وفيما تدلّ عليه النقوش الفينيقية ما يتصل بتوجيه صيغ المفردات ومواضيعها النحوية.

وللإغريق في ذلك جهد واضح جداً، يتمثّل في عنايتهم بتصنيف الألفاظ، وفي كلام أفلاطون وأرسطو على الاسم والفعل، وتعريف أرسطو للإعراب وتوضيحه مفهومه في خصائص المدلول متصلاً بالصورة، وهو ما ذلّل السبيل لأحد الرواقيين وهو «دوني التراقي» المتوفي مطلع القرن الأول قبل الميلاد أن يضعَ كتاباً في قواعد اللغة عند الإغريق.

وبحلول القرن الثاني الميلادي توسّع اللغوي «أبولون ديسكول» في مفهوم المُسْنَد والمُسند إليه المعزو إلى أرسطو، حتى إن تلك المفاهيم قد رسَخَت في النحو وأُسسه حتى الزمن الحاضر.

وجهدُ الرومان في ذلك كان ظاهراً جداً، ولعل هذا بعض ما يوصفون به من التنظيم والتقنين، ويوشك أن يكون جُلّ جهدهم في كتب مضمونُها القواعد. فللغوي «فارون» كتاب «في اللغة اللاتينية»، ولكوينتلين «في فن الخطابة» ولايليوس دوناتوس «الأجزاء الثمانية في فن الخطابة».

ويتمثّل جهدُ العرب في ذلك ما حواه «الكتاب» مما رواه أو ذكره سيبويه عن شيوخه، ولا سيما يونُس بن حبيب والخليل بن أحمد والأَخفش الكبير، وكتابا[1] عيسى بن عمر وما لمثل قُطْرب والمُبَرِّد وغيرهم، ومَنْ بعدَهم حتى القرن الخامس الهجري، وأعظِمْ بذلك ذخراً.

وظلّت القواعد طوال العصر الوسيط في أوربا مقتصرة على ما كان للاتينية القديمة وامتاز بتفاسير وشروح اشتقاقية رمزية، وظهرت بعض الكتب التي عُنيت بقواعد لهجات عامية ولا سيما كتاب «فيلاد» الذي اقتبسه عن كُتُب مؤلفين لاتينيين رُوّاد مثل «دونات وبرسيان».

ولاحظ أحدُ الرهبان الفرنسيين فرقاً بين اللاتينية الكلاسيكية عند «شيشرون» واللاتينية الكنسية، فرأى الكتابة بالثانية.

وفي هذه الفترة ظهرت عدة نظريات، منها نظرية «روجر باكون» القائلة باتفاق أُصول علم القواعد مهما اختلفت اللغة، وإن لحِقَه بعضُ التحوُّل العارض، حتى أخذ بها علماءُ «بورويال» الذين طغى عملُهم وما ذهبوا إليه من قواعد أحقاباً طِوالاً، تميَّزت بأحكام تشمُل كلَّ عبارة تفرض رابطة بين الألفاظ.

وظهر في القرن السابع عشر عدة كتب منها كتاب «القواعد اللغوية العامة والمعللة تعليلاً عقلياً» للراهبين «آرتو ولانسلو».

وبقيت نزعة «بورويال» الأَرسطْطالية مسيطرة، كما تؤكد ذلك مادةُ لغة في الموسوعة الفرنسية. واستمرّ ازدهارُ النحو كما يظهر ذلك عند «كوكنهايم وبرونو». ولكن دون أن يذكر أي كتاب تقدّماً في هذه الظاهرة، إلّا ما سجَّله كتاب «هرمس» لمؤلفه الإنكليزي «هاريس». وقد ظهر فيه أحياناً اتجاه إلى التحليل

---

(١) انظر مراتب النحويين ٢٣ والبلغة في تاريخ أئمة اللغة ١٨٠.

البُنيوي المنهجي . ولعله سيتمكن من تحديد اللغة بما يقارب ذلك عند « سوسور » كما ذكر الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح[1] .

بيد أن القواعد السنسكريتية وما فيها مِن صَرْف وتقسيم للكلام يُعَدّ من أبرز أمثلة هذه الظاهرة فيما يخُصّ الغرب ، وذلك بعد أن أطلع عليها واكتشف فيها صلة القُربى بينها وبين لغته .

٦ــ ولهذه الظاهرة وهي التقطيع الثاني ما يوهِم أنها متطابقة وظاهرة أخرى هي التحليل الصوتي ، بيد أن الأُولى منها تُعنى بهذا التقطيع من حيث إدراكُ أصغر جزء في الكلمة المكتوبة ، والثانية تُعنى بذلك أيضاً ولكن من حيث هو منطوق في اللفظ .

وما للصينيين من ذلك مجموعة إشارات هي مثل الأرقام العربية ، وقد بلغت نحو بضعة آلاف ، يختلف نطقُهَا من مكان إلى آخر .

وللهنودِ مثل تلك الإشارات . وهي متنوِّعة بحسَب المفردات التي يُراد تمييزها بالنطق ، وعِدتُهَا أثنتان وثلاثون ، واستعمالها أشبه ما يكون بالصوائت الصغرى أي الحركات في اللغة العربية ، وشأنُهَا أن تحدّد نطق المقطع الذي تلازمه .

واختص الفينيقيون بحرف لكل صوت ، ونبذوا الإشارات الصوتية المتعددة المقاطع .

وفي حوارية كراتيل لأفلاطون تصنيفٌ لنوعين من المقاطع هما الحروف الصحيحة والحروف المعتلة ، ولم يتِمّ هذا التمييز إلاّ بعد محاولات تمّت قبل القرن السابع قبل الميلاد .

---

(١) انظر مجلة اللسانيات ، المجلد الأول ٧٠ .

وظهرت كتابة في العصور الوسطى عُزيت إلى مُبشِّرين بالنصرانية هما « سيريل وميتود » ، وقد أُضيفت إلى تلك الكتابة حروف جديدة للدلالة على أصوات خاصة بلهجة تلك البلاد. وإن الأُسقُف « فولفيلا » استحدث أَبجدية خاصة بلهجة قبائل القوط لترجمة الأناجيل إليها.

وامتازت اللغة العربية بوضوح الحروف كما امتازت من قبل اللغة الفينيقية بل اللغات السامية جميعها. إذ كانت تقتصِر على كتابة الحروف الصامتة دون الحروف الصائتة ، وهذا واضح في كثير من النقوش والآثار.

وازداد تمييز اللغويين ما بين الحرف والصوت ، في القرنين ١٥ — ١٦م ، حتى أكّدوا على ثلاث خصائص للحرف : اسمه ، شكله ، طاقته.

وتمثَّلت هذه الظاهرة في القرن السابع عشر فيما عرضته مسرحية موليير « البرجوازي النبيل » من مشهد تعليم الكتابة ، وما نُشر من كتب في الكتابة وقواعدها مثل كتاب « لويس لكلاش ».

وفي القرن الثامن عشر ظهر كتاب لمؤلفه « والي » خصَّه بالكتابة الصحيحة للسيدات. وكتب الإنكليزي « ستيل » دراسة في الكتابة وتأديتها.

٧— ورأيت إتباع الظاهرة المتقدمة ظاهرة التحليل الصوتي بالرغم أن هناك ظواهر يجب تقديمها ، وذلك رغبة في التمييز بينهما متلازمتين.

فأول مَنْ اشتهر بهذه الظاهرة على أهميتها هم الصومريون والكلدانيون وذلك واضح في ترتيب مقاطع كلماتهم الثابت ، وتفريقهم بين الحروف الصِحاح والحروف المُعتلة [١].

---

(١) انظر فقه اللغة ٣٤.

وكذا في الكتابة الصوتية ذات الإشارات التي ترمز إلى معنى ، حتى استطاعت لغتهم تدوين كلِّ شيء ، وبقيت حتى القرن الأول قبل الميلاد.

وتقدَّم ذكرُ ما للصينيين من إشارات بلغت عشرات الألوف ، ثم احتاجوا معها إلى إشارات أخرى تُعين على نطقها ، كما كان الحال في المصرية القديمة والسومرية ، وكانت تلك الإشارات تُعرف بالمفاتيح. ولكنهم ما لبِثوا أن ميزوا اللفظ بالأسلوب الصوتي باستعمال إشارتين في مجال التدريس منذ القرون الميلادية الأولى. وعرَفوا علامات تميز النَّبْرة الصوتية في الكتابة. ومنذ أواخر القرن الثالث للميلاد تخلَّوا عن الإشارات المتشابهة واستبدلوا بالإشارات المميزة « المفاتيح » التي كان لها أثر في علم الآثار المصرية بعد.

وكان للهنود سَبْق إلى استعمال إشارات تُحدِّد نطق الصوت ، جعلوها ملازمة للمقطع من الكلمة بحيث يتسنى أن تُقرأ بوضوح ودِقّة. وميزوا الحروف الصحيحة من المعتلة في النطق كما هو واضح في كتاب « بانيني » ، واستعملوا إشارات لنحو خمسين ومائتي مجموعة صوتية مختلفة وفرَقوا بين الحروف المتجانسة صوتاً ، وكذا بين الحروف اللهوية والرئوية والغُنّية ، والحرف الصوتي وآثاره الصوتية الفردية.

ويُذكر للإغريق فضلُ استحداث حروف المد بسبب من المصادفات التي تتصل بالنطق اليوني لمثل صوت الهاء، إذ لا يُنطق عندهم بشهيق وإنما يُنطق ممدوداً أو صار يُنطق ممدودا ، فغلبَ عليه المدُّ. وبذلك حدثت حروف المد. وإن كان بعض الإغريق يعزون ذلك ، أي حروف المد كتابياً إلى الفينيقيين.

ولم تزل كتبُ التُراث العربي تحتفِظ بكل آثار جهودهم في هذه الظاهرة التي لم يطلع عليها أكثر مَنْ كانت لهم عناية بالموضوع عند غير أُمتهم وفي غير لغتهم مِن هؤلاء الذين يتصدون لتاريخ العلوم. وبين جهود العرب والهنود مشابهة قوية غير أن تصنيف الهنود للأصوات ظلَّ مقطعياً بحسب نطقها الذي اعتمد النَفَس عند قراءة

كتابهم المقدَّس ، وأما تصنيف العرب للأصوات فيقتصِر على الصوت وحدَه ، وإن عَدَّ سيبويه أصواتاً تَزيد على المستعمَل الغالب ، وهو يُريد أن يستقصي ذلك في كل حالات النطق[1] ، ولكن دون أن يجعل هو ولا سواه ، ممن تابعوه أو بحثوا في الأصوات وصنفوها ، نُطْقها مقطعياً.

وفي العصر الوسيط مدى عشرة قرون نشأت عدة عوامل أَثَّرت في التحليل الصوتي ونبَّهت إلى مسائل ، منها إحداث بعض الأصوات في لغة من اللغات ، وإنشاء أبجدية كالكلتية والجرمانية ، وذلك لترجمة التوراة والإنجيل الى تلك اللغات.

واهتمَّ بعض العلماء في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بالأصوات من أجل الكتابة وضبطها ، ولِوضع أبجدية موافقة للنطق ، وحروف للإشارة بها إلى الأصوات. وغلبَت هذه العناية بالأصوات على كثير من الدراسات ، فكان مِن ذلك استخدام الباحثين الإيطاليين « تولومي وكاستفلرو » القياس المقارَن في الاشتقاق الصوتي ، وتناول البحث كيفية نطق اللغتين اللاتينية واليونانية.،

وتمَّ في القرن السابع عشر بحثٌ في تحليل أوضاع النطق وتمييز كل صوت ، فوُضعت عدة كتب تُمثِّل ذلك بوضوح. منها كتاب « فن الكلام » لمؤلفه الهولندي « مونتانو » ، وكتاب « فن النطق » لمؤلفه « ربنسون » الإنكليزي ، وكتاب « محاولة باتجاه الحرف الحقيقي » لمؤلفه الانكليزي أيضاً « جون ولكنس » ، وعُني « دوهامل » بوَصْف الحروف الصوتية والتغيُّرات التي تصيبها وبتصنيف الأصوات حسب مخارجها ، وعُني البحث أيضاً بالنبرات الصوتية في اللغة الصينية.

وفي القرن الثامن عشر لم يتجاوز خط تحليل الأصوات ما كان عليه من قبل ،

---

(١) انظر كتاب سيبويه ٢/ ٤٠٤.

فإن عناية الباحثين الإنكليز بالاختزال مدى قرن ، قد ساعدَ أشهرهم وهو « تيفان » على تحليل أصوات اللغة الإنكليزية ، وجعلها في إشارات مميزة ، واهتم الفرنسيان « فودلان ووالي » بالأصوات من حيث الكتابة الصحيحة ، وعكف الهولندي « لامبرت » على التحقيق في الأصوات ، وعَرَضَ « توكر » لكيفية النطق من أجل الأجيال المُقبلة ، واقتراح الكتابة الصوتية في المعاجم.

وكان القرن التاسع عشر فاتحة عهد جديد في هذه الظاهرة بعد اكتشاف اللغة السنسكريتية ، وقيام العلماء على جهد الهنود في وَصْفهم للغتهم ذلك الوصف المعجب ، حتى ظهر تأثير ذلك في كتاب « أبحاث في الاشتقاق » لمؤلفه « بوت ».

٨ــ وصف اللغات : وكان لهذه الظاهرة عناية بها لدى اللغويين ، وكان له أثر في جانب آخر من دراستهم هو وصفهم للغتهم وللغات التي عرفوها ودرسوها.

وللهنود كثير من النتائج التي تُلخِّص وصفَ لغتهم ، ولا سيما أنهم وقفوا على أدق خصائصها وأصواتها ، وميزوا بين الحروف ما يُنطق وحدَه وما لا يُنطق وتصنيفها ومخارجها وجهاز النطق ، ولم يكن لهم عناية بلغة أخرى غير لغتهم.

وليس في آثار الإغريق ، ولا سيما كتب « هيردوت وأسكيلوس » ما يدلُّ على عناية لهم بلغات غير لغتهم ، بل إنهم عدُّوا مَنْ لم يتكلَّم بغير لغتهم برابرة ، وهذا يعني تقويمهم لسواهم من الأمم حضاريا . بيد أن « لهزيشيوش » معجماً اشتمل على مفردات أجنبية ، وذلك في القرن الخامس الميلادي.

وكان للعرب عناية معجبة باللغات الأجنبية . ولولا ذلك لما تابعوا ما بدأه بعض أهل تلك اللغات التي عرفوها من فارسية ورومية وهندية ، وأسلوب المقارنة الذي نرى أمثله منه ، لا حصر لها في كتب اللغة والأدب والمعاجم خير دليل على ذلك[1] ، وهي على حالها إلى اليوم.

---

(١) أنظر الفهرست ٣٢ وفقه اللغة وسر العربية ٤٥٠.

واستمر الاقتصار على وصف الحروف اللاتينية ، وتكرار ما ذكَره النُحاة الرومان ، وظلّت اللاتينية مسيطرة ، وكان غيرُهَا موضع ازدراء المثقفين ، وبقيت اليونانية مجهولة حتى القرن الرابع عشر.

وإذ حلّ القرنان الخامس والسادس عشر ، ظهر كتاب « القراءة الصحيحة للغة الايطالية » لمؤلفه الإنكليزي « جون ريس » ، وقد امتاز هذا الكتاب بموازنة بين الإيطالية وغيرها من اللغات الأوربية . ثم ازدادت البحوث التي تتناول وصف اللغات لكثرة الأسفار ونشاط البعثات من الطلاب والمبشِّرين ، فتعلّم هؤلاء لغات جديدة ، وترجموا عنها ؛ فألّف « وليم بوستيل » كتابا في قواعد اللغة العربية ، ودوّن الفلمنكي « بوبك » بقايا اللغة القوطية كما وجدها في شبه جزيرة القرم ، وأذاع « برايت » الكتابة الصينية لأول مرة .

وتمثّل وصف اللغات في القرن السابع عشر في عدة بحوث وكتب مثل « كنوز اللغات » و « معجم كوتغراف » وهو في « الانكليزية والفرنسية ، ومعجمي أودان في اللغتين الإيطالية والإسبانية .

وكذا الأمر في القرن الثامن عشر إذ استمر الرحالة والمبشرون في وصف اللغات ، فلمثل « شاردان » الفرنسي بحثٌ مستفيض في اللغة العربية . ووضعت الأمبراطورة « كاترين » أسئلة عن اللغات لوُلاتِهَا هنا وهناك من مستعمراتها ، ليجيبوها عنها .

ولم ينتفع اللغويون من اكتشاف اللغة السنسكريتية الذي كان يمكن أن يهدى إلى أسلوب جديد في وصف اللغات في القرن التاسع عشر ، ولذا اقتصر الوصف على مثل كتاب « أدلنغ » المسمى « متريدات » وهو لا يعدو محاولات غيرَ دقيقة حول لغات العالم ، وكتاب بالبي الذي عنوانه « الأطلس الأتنوغرافي للكرة الأرضية أو تصنيف الشعوب القديمة والحديثة حسب لغاتهم » ، وإحصاءات « كلابروت »

للغات الآسيوية ، وإحصاء الضابط «بويل» للغات الهندية في أمريكا ،. وسيكون لهذه الإحصاءات أثر في كتاب «لمولر» ، ولغات العالم «لماّييه وكوهن» .

و«لراسموس راسك» جهدٌ يملأ أُفق هذا القرن بما كتبه في وصف بُنية مختلف لغات العالم ، كما أصدر كتباً في القواعد الوصفية لعدة لغات مثل الإسبانية والإيسلندية والهولندية .

٩ــ وهذه الظاهرة ، وهي الأبجدية وترتيب الحروف ، على قلة شواهدها وعناية غير من نسب إليهم بها ، ينبغي أن نذكرها لما في ذلك من توضيح شيء خطير في اللغة وعلمها . وخطر ذلك راجع إلى وجود الأبجدية وحروفها على هذا النحو أو ذاك ، وبه حُفظت اللغة من التبدّد والاضمحلال ؛ وإلاّ فكيف يكون حال اللغات جميعاً بغير الأبجدية التي وعتها وحفظتها رمزاً لها ودليلاً عليها .

وإذا كان فيما حقّقه المصريون والصومريون والكلدانيون من اتخاذ الصور والإشارات للدلالة على اللغة خطوات مهّدت لوجود الأبجدية ، فإن اختراع الأبجدية نفسه شيء مهم وخطير في حياة اللغات جميعاً ، وذلك فضل يرجع الى الفينيقيين وتُثبت ذلك الروايات المختلفة ، وتؤكّده الوثائق المكتشفة في جُبيل وأُوغاريت وسيناء وشبه الجزيرة العربية ، وتاريخ ذلك يرجع الى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، وكان الفينيقيون بهذا الاختراع ، وأسلوبهم فيه ، رواداً لأغلب لغات الحضارة . وهذا واضح في نسبة الأبجديات المقْطعية كالحبشية والفارسية القديمة والهندوسية إلى أبجديتهم ، التشابه بينها في تدوين الحرف الصحيح مقترناً بحرف «آ»[1] .

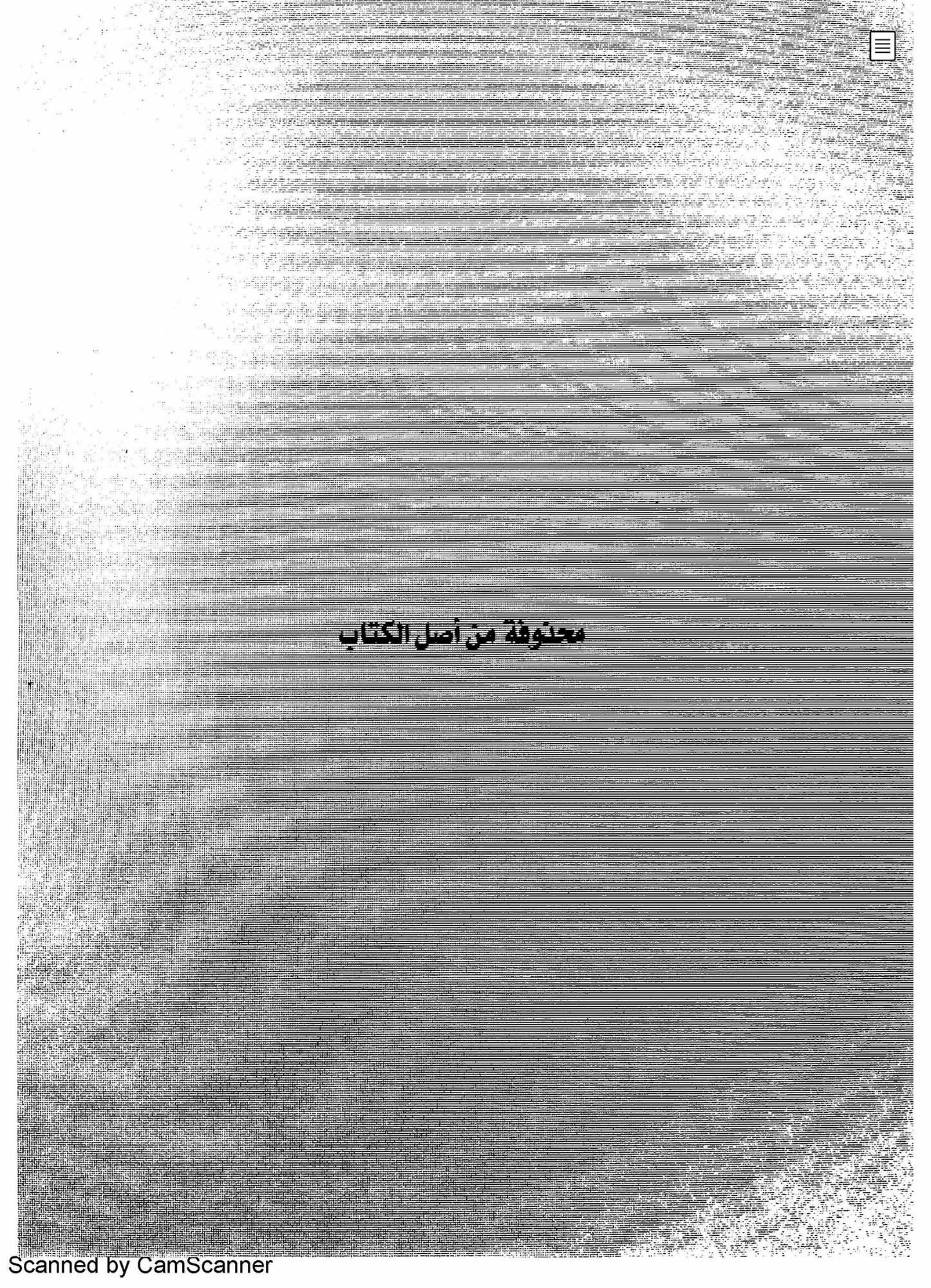
ومن خصائص هذه الأبجدية أنها مجردة ، أي هي منعزلة الجذور بعضها عن

---

(١) انظر فقه اللغة ٣٢.



محذوفة من أصل الكتاب


محذوفة من أصل الكتاب

السامية. ومثله «ليت» الذي أكّد على صلة القُربى بين القوطية والهولاندية. وسبق «لويد» في كتابه «علم الألسن» الأبحاث المقارَنة في اللهجات الكلتية.

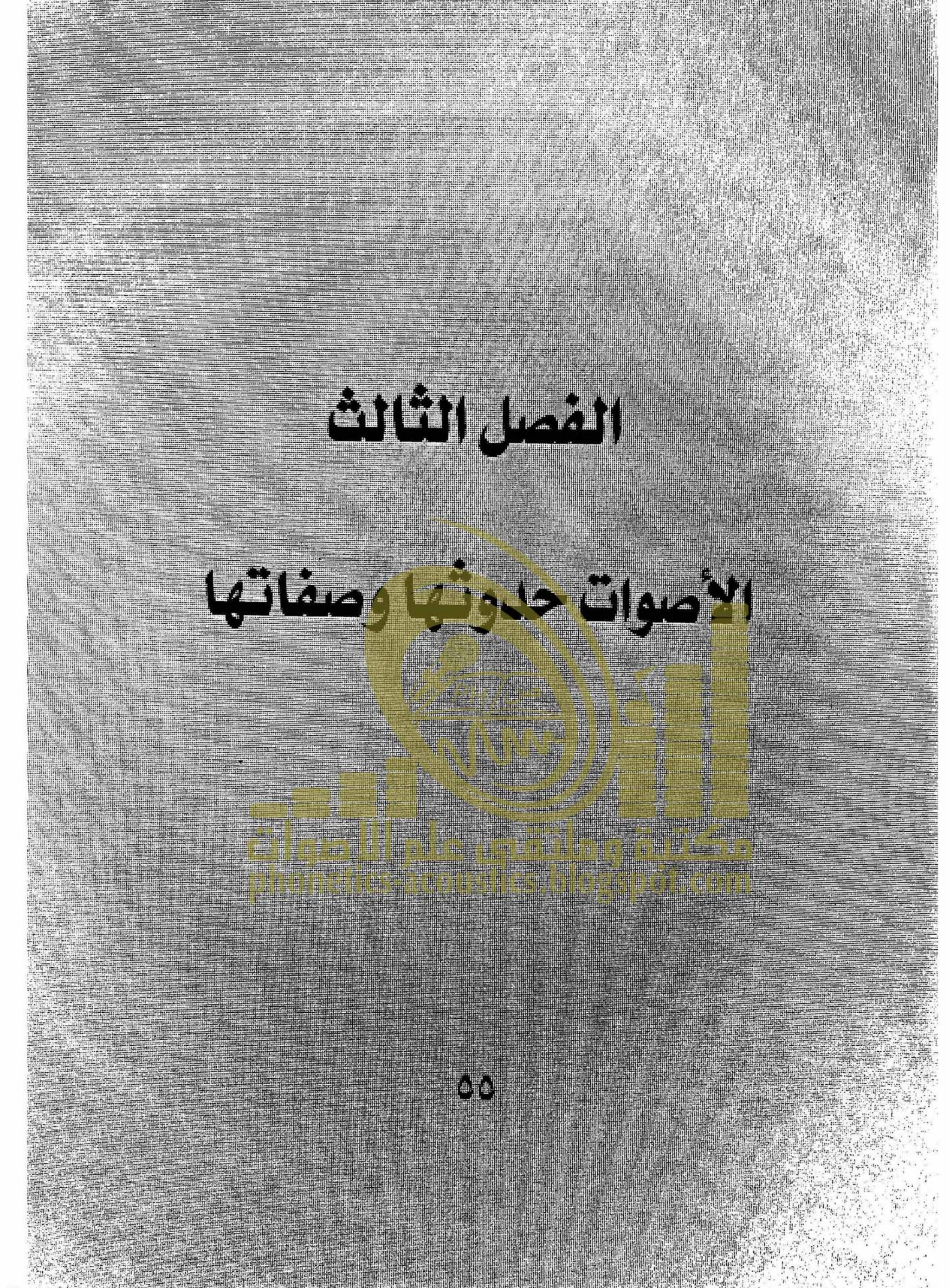
وقدّم الأب «كوردو» بحثاً يذكر فيه الصلة بين السنسكريتية واليونانية، ومثله «ساسيتي» الذي كتب رسائل قارن فيها بين السنسكريتية والإيطالية، وبينها وبين الألمانية ولغة مقاطعة «كرواتيا». وذكر «بوب» السنسكريتية في مُقدّمة كتابه «القواعد المقارنة». وقدّم الإنكليزي «وليم جونز» بحثاً وصف فيه روعة السنسكريتيّة وعلوها على اليونانية واللاتينية ومدى الصلة الوُثقى بينها.

وكان للغويين الألمان فضل إيجاد القواعد المقارنَة، إذ وَفدوا على باريس فوجدوا فيها الرعاية والأُهبة للبحث بفضل المستشرق «سلفستر دي ساسي».

وقد مهّد للطريقة المقارنة هذه خطواتٌ تمثّلت في بحث الأديان، ثم في علمُ التشريح والحياة والمستحاثات، إذ خطفت الطريقةُ وتطبيقُهَا في هذا العلم نظرَ اللغويين، وأمعَنَ الأخوان «شليغل» في مقارنة اللغة بالنبات، واستعملا بعض مفرداته. وكان قد ظهر أسلوب المقارَنة فيما كتبه اللغوي «بالبي» مثل «الإحصاء المقارَن في بلاد البرتغال» و«الإحصاء المقارَن بين التعليم والجرائم». وكثُر البحث في القرن التاسع عشر في القواعد المقارَنة لمثل «بوب وبورتوف وجيارماتي وزوس.

فهذا الموجز التاريخي لعلم اللغة في أبرز ظواهره يُطلع القارىء لِمثل هذا اللون من الدرس اللغوي على عدة ظواهر مهمة وأساليب في تناولها من جهة، ويضع الدرس نفسه في مكانه من سلسلة البحث والدرس في اللغة من جهة ثانية. وإن في كثير من هذه الظواهر التي انتظمها الموجز نصيباً مشتركاً بين اللغات من ناحية وبحثها ومناهجه من ناحية أخرى. وهي في كثير من جوانبها ونتائج البحث فيها تصل بين جهود الباحثين هنا وهناك، وذلك واضح في موضوع أصل اللغة ونشأتها مثلاً، وفي تحليل

القواعد وظاهرة التقطيع الأول والتحليل الصوتي والبحث فيه ، حتى كأن اللغات جميعاً لغة واحدة تثير أسئلة متوافقة ومشكلاتٍ متقاربة ، ولكن تختلف الأجوبة وتتباين أساليبها . وإلى هذا كان القصد بكتابة الموجز ، حتى يكون للقارىء فرصة الاطلاع على مدى الصلة بين اللغات والبحث فيها والظواهر التي ائتلف عليها الدارسون .



الفصل الثالث

الأصوات حدوثها وصفاتها

الأصوات : حدوثها وصفاتها

أعضاء النطق وحدوث الصوت اللغوي

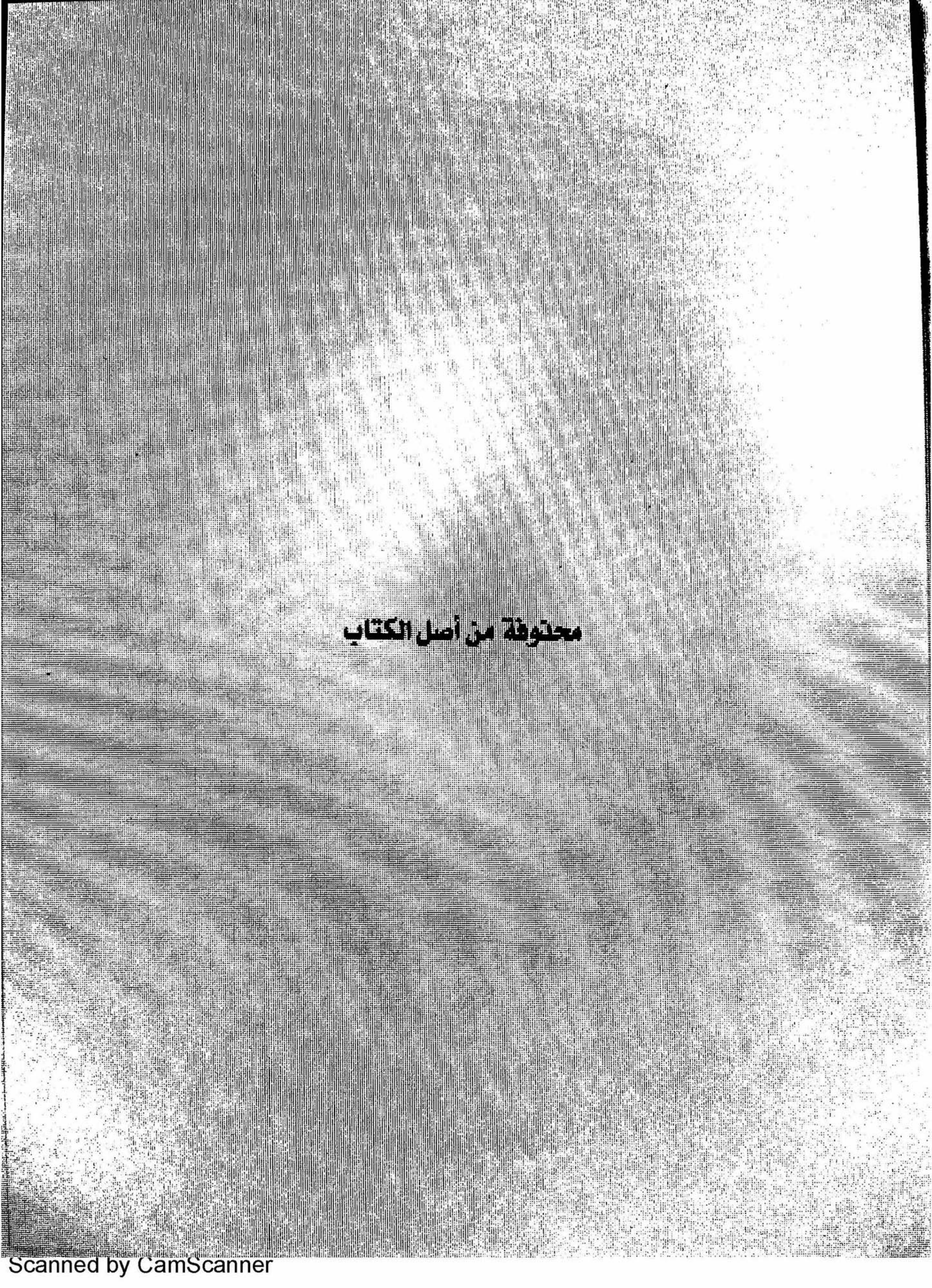
وأما المصطلحابت التي تتفِق أو تُقارب مثلَهَا في الدرس اللغوي الحديث فهي التي تتعلق بصفات الأصوات وما هو من قبَلها. وهذه المصطلحات كثير منها جاء ذكرُه في لغة التراث وعند السلَف من علماء اللغة.

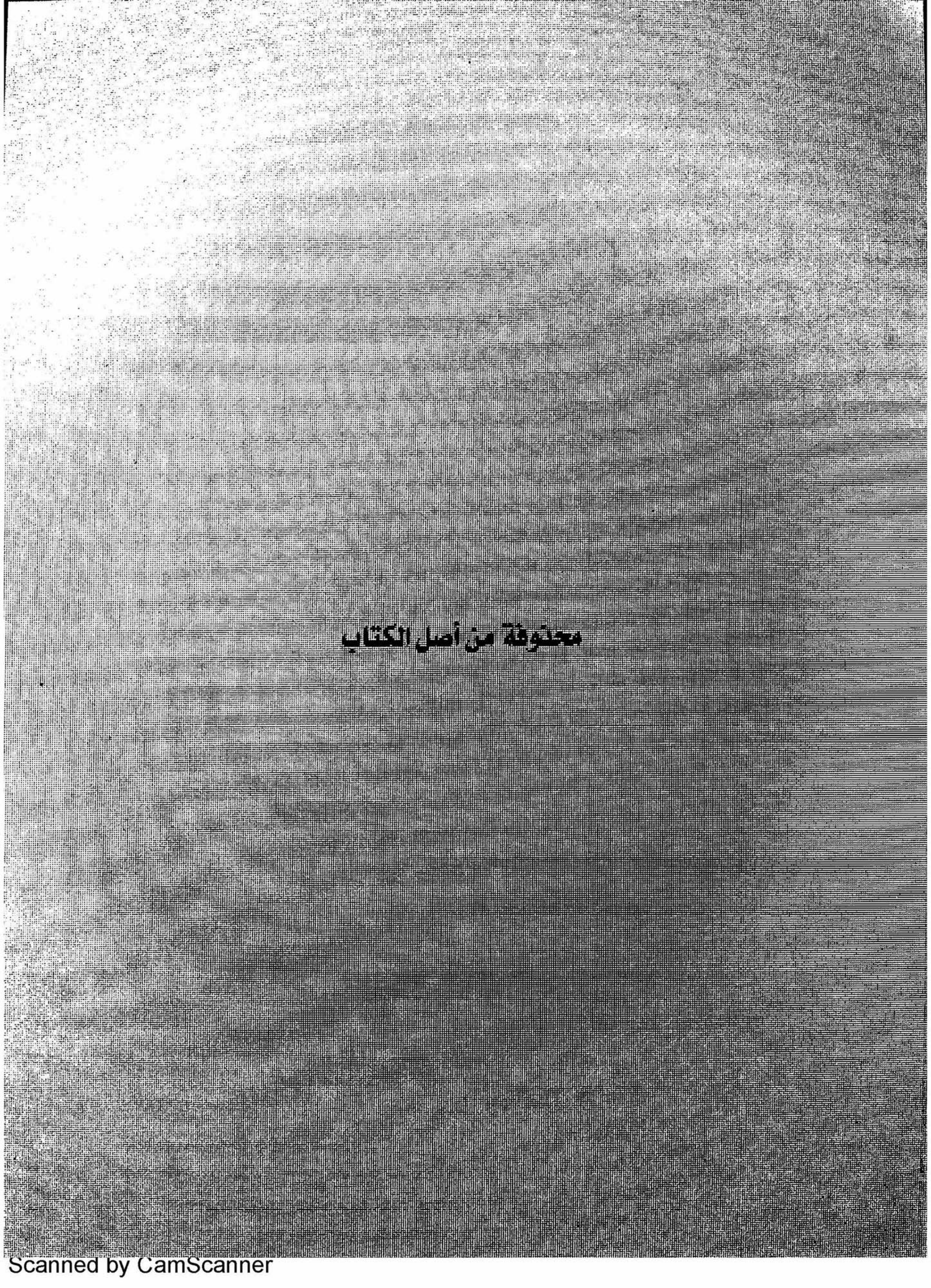
ومن ذلك أيضا ما له صلة بأعضاء النُطق، وما له صلة بكيفية حدوث تلك الأصوات وآلية ذلك الحدوث، ومواضع تكوُّنهَا، وصفاتها، وفيما يلي الكلام على جهاز النطق.

جهاز النطق «التصويت»

إن حدوث الصوت اللغوي لا بدّ له مِن هواء، نجده يتوافر في «الرئتين» اللتين تُشبِهَان المِنفاخ، إذ تمتلئان بالهواء في كل شهيق، وتفرُغان من أكثره في كل زفير. وهذا الهواء المزفور يساعد على احداث الصوت اللغوي عند التكلم.

وتساعد حركةُ «أضلاعِ الصدر» الرئتين على استنشاق الهواء وزفْرِه وامتلائهما به وإفراغهما، إذ ترفَع العَضلاتُ تلك الأضلاع فتزيد في استدارة الصَدْر في حال الشهيق، وتَنْبسِط العضلات فتعود الأضلاع إلى ما كانت عليه في حال الزفير.


محذوفة من أصل الكتاب


محذوفة من أصل الكتاب

وإذا جرى النفَس بلغ قسماً آخر من الحنَك يختلِف عن القسم السابق بأنه صُلْب وثابت ومُقعَّر، ولذا سُمي «غارَ الحنَك أو سَقْفَه» وربما سُمي وسط الحنك.
وللحنك شأنٌ في صِفة بعض الأصوات التي تحدُث في هذا الجزء من جهاز النطق، ولا سيما الإطباق والاستعلاء.

ويقابل «غار الحنك» القسمُ المنبسِط من اللسان، ويُسمى هذا الجزء وسْط اللسان وهذا الموضع مِن الفم يُعرف بشَجْر الفم أي مُنفَرجُه، وانحصار النفَس بهذا الجزء من اللسان وبما يقابِله من وسط الحنك أو غارِه يحدُث عَددٌ من الأصوات مثل الجيم والشين والياء اللينة.

وإذا جرى النفَس بعد هذا الجزء بلغ «طرف اللسان» وقابله من الحنك مقدَّمُه وحصَر النفس في مواضع من هذا الجزء يحدُث معه عدد من الأصوات مثل الضاد والظاء والراء. ويُسمى جانبا طرف اللسان «ذلقه وأسلَتُهُ». والأصوات التي تحدُث عندهما توصف بأنها «أسلية وذَلْقية». وانحباس النفَس في «مقدَّم الحنَك» يحدُث معه صوت الطاء والظاء. وهو امتدادٌ لغار الحنَك لكن غشاءَهُ اللحمي متجعِّد، ولذا سُمي بالمخطط.

والأسنان التي في هذا الحيِّز من جهاز النطق، ولا سيما «الأنياب والضواحك» و«الثنايا» لها أهميّتها في حدوث بعض الأصوات إذا انحصر النفَس باللسان عندها. وذلك مثلُ صوت الضاد، الذي للضواحك شأنٌ فيه. ومثل صوت التاء والثاء اللذين للثنايا شأن فيهما.
ومنبت الأسنان، ولا سيما الأمامية والعُلْوية منها ينحَصر النفَس باللسان عندها فيحدُث بعض الأصوات مثل التاء والنون واللام ويُسمى «اللثة أو منغرَز الأسنان أو أسناخها» وتُنسب تلك الأصوات إليه فيقال: لثوي وسِنْخي.
وإذا انحصر النفَس بانغلاق الفَم وانطباق الشفتين حدَث صوت الميم الذي

يسمع من الخيشوم ، وصوت الباء إذا انفرَجت الشفتان ، وصوت الفاء إذا التقت الشفة السفلى بأطراف الثنايا العليا .

وللشفتين في حدوث الأصوات وتمييزها شأن كبير. فهما بمرانتِها تُحدّدان وتشاركان في تكوين عِدة مخارج . وهو ما لاحظَه أبو الأسود الدُّؤَلي إذ استعان بهما على رَسْم الحركات العربية ، كما استعان بهما في عصرِنا الحديث عالمُ الأصوات الإنكليزي «دانيال جونز» ، فاستخلصَ عدة حركات مفردة ومزدوجة ، قُدرت بأربعة وعشرين صوتاً .

وأما اللسان فهو مجموعة عضلات مرنة جداً ، وذلك لِما له من قُدرة على الحركة في الفم . وكذلك حركة طَرَفه خارج الفم بين الأسنان وحوالي الشفتين . وهو أهم أعضاء النُطق ، لأنه بحصره النفسَ في مواضع من الفم يُشارك في حدوث عدد من الأصوات . ولهذه الأهمية سُميت اللغة به كما نُسبت علومها اليه فقيل : اللسان ، أي اللغة ، وقيل : علم اللسان أي علم اللغة ، وقيل : اللسانيات ، أي علوم اللغة .

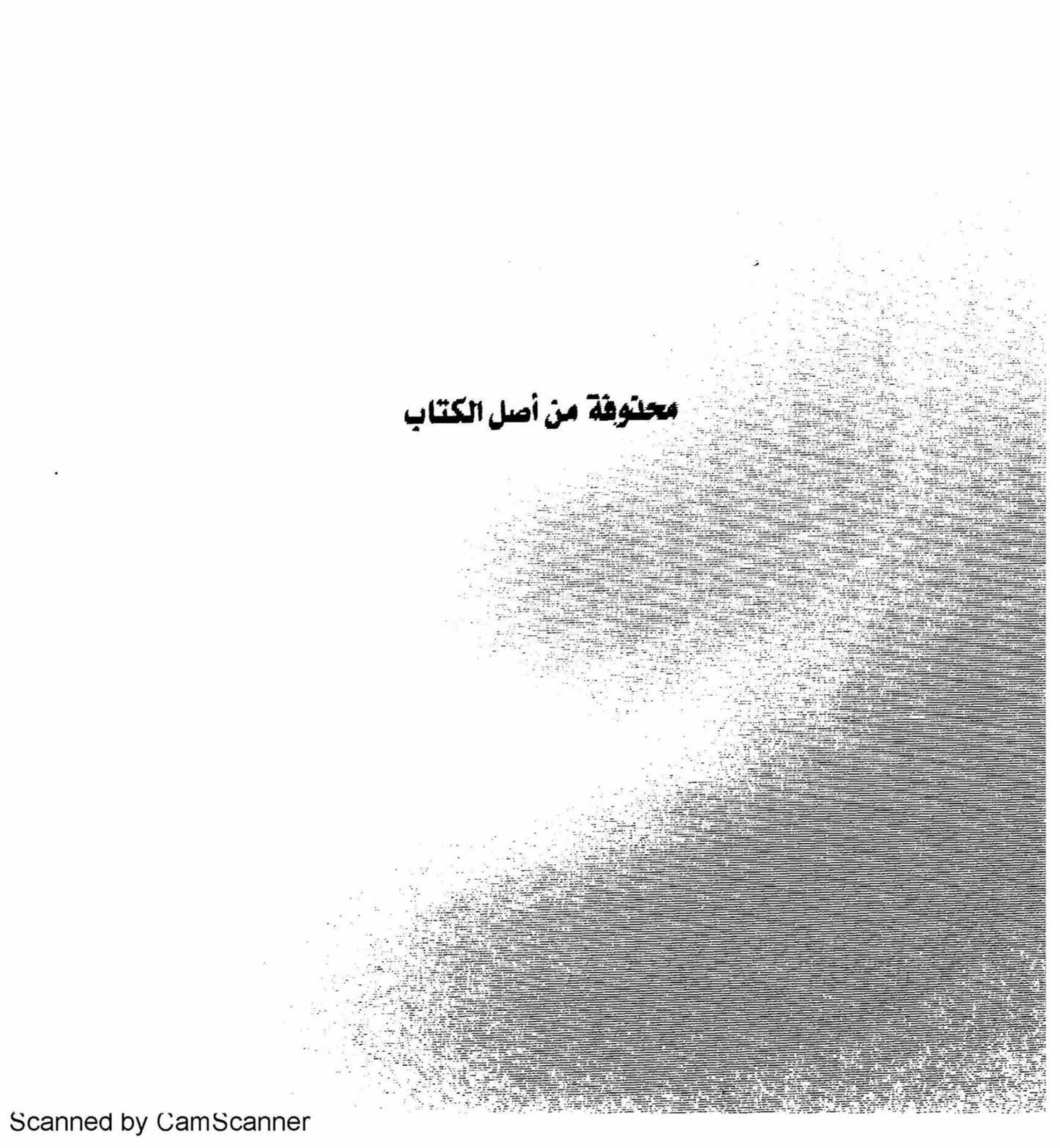
وتوضيحاً أكثر لهذه الأعضاء التي تُحدث النطق ، وكيف تحدُث الأصوات فيها أذكر تمثيلين لذلك أحدهما لأبي علي مِسكَوَيْه قوله[١] : «مثال ذلك مثلُ مِزْمار فيه ثَقب متى أطلق الإنسان فيه النفسَ وخرَق موضعاً بإصبع إصبع اختلفت الأصواتُ في السَمع بحسب قُرْبه وبُعده . ولايكون المسموع من الاقتراع الذي يحدُث عند الثقْب الأخير المسموع من الاقتراع الذي يحدُث عند الثقب الأول وكذلك سائرُ الاقتراعات التي بين هذين الثقبين مختلفة المواقع من السمع ، لا يُشبه واحدٌ الآخر ، فيُقال لبعضها : حادّ ، ولبعضها : حُلْو ، ولبعضها جَهير ، ولبعضها : ليِّن» .

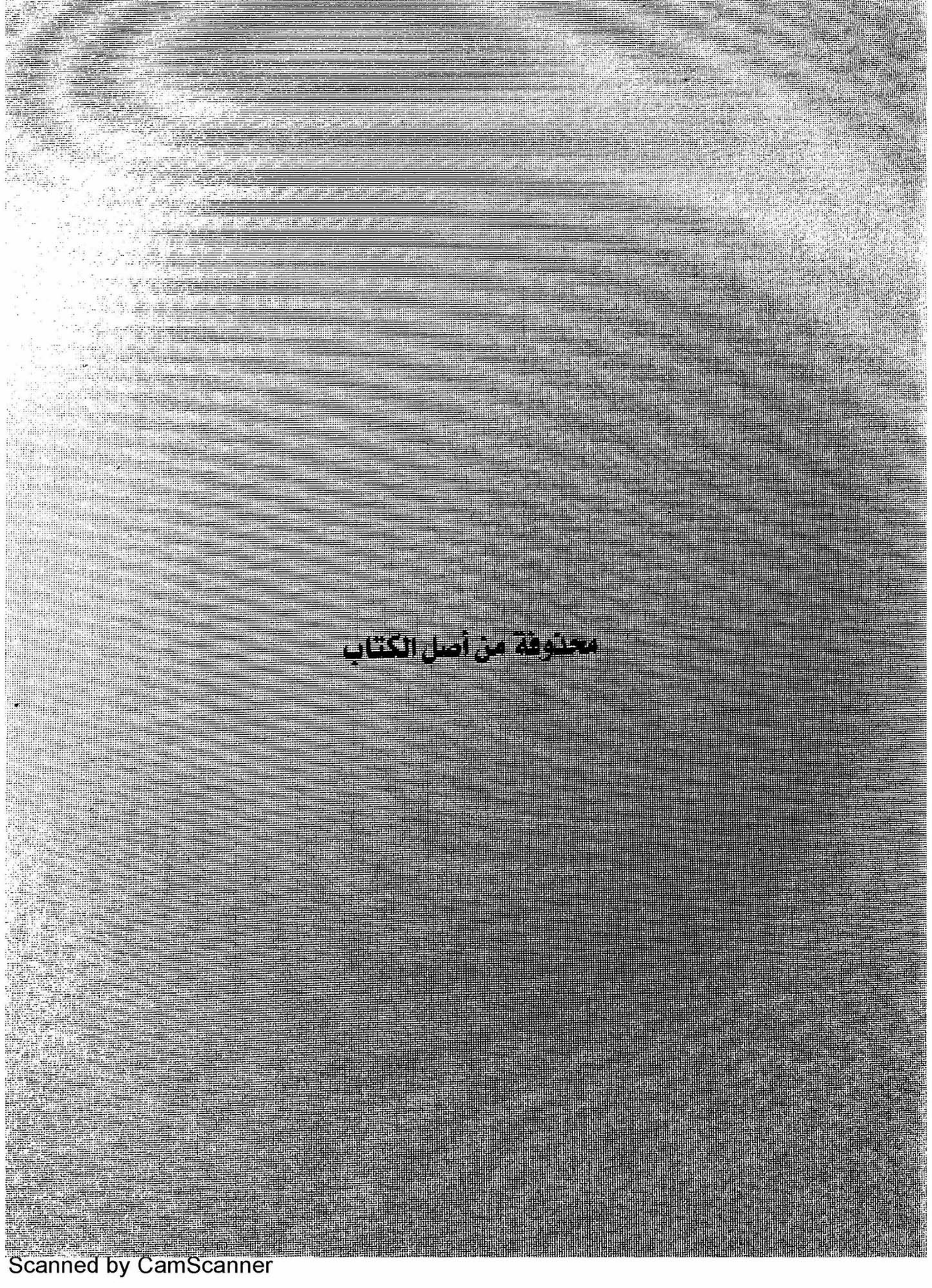
وثانيهما قولُ ابن جني[٢] : «ونظير ذلك وتَر العُود ، فإن الضارب إذا ضربه

---

(١) انظر الهوامل والشوامل ٢٢ . (٢)انظر سر صناعة الإعراب ١/ ٩)

محذوفة من أصل الكتاب




محذوفة من أصل الكتاب

صفات أصوات الحروف

إن تعريف اللغة بأنّها أصوات يُميزها بأبرز خصائصها. ولولا أنّ هذه الأصوات تنوَّعَتْ واخترَقَت في مواضع من أعضاء النُطق لظلَّت أصواتاً غيرَ مميزة، ولصارت إلى عدد محدود لا يُميِّزها غيرُ امتدادها واتصالها، ولكن لمَّا عرَضَ ما حجزَها في تلك المواضع و«قطعَها» عن امتدادها واتصالها سُمي الموضع الذي قُطِع عندَه الصوت «حَرْفاً». ولهذا اختلفت أنغامُ «المقاطع» أي «الحرِوف».

والحروفُ من حيثُ امتدادُ الصوت واستطالتُه أو قِصَرُهُ وانقطاعُه نوعان: أولها إذا نُطق به نحو مقْطع أيِّ مَوضِع يحجزُ النَفَس بالصوت لم يُسْمَع منه «نغَم» أو «صَدى»، وذلك مثلُ أصوات حروف الهمزة والقاف والطاء، لكنها تتفاوت في هذه الخاصة.

وثانيهما إذا نُطق به نحو مَقْطَع حرفِه امتدَّ صوته واستطال حتى ينفدَ النَفَس به، وذلك مثلُ أصوات الألف والواو والياء المَدِّيتين. وزاد في امتياز هذين الصِنفين مِن الأصوات وفي ما بين أصوات كلِّ صِنف اختلافُ أَشكال أَعضاء النُطق.

وقد سُمي الصنفُ الأول مِن هذه الأصوات «الساكن» والصنف الثاني «المتحرِّك» قال ابنُ جني في ذلك: «اعلم أنَّ الحروف في الحركة والسكون على ضربين: ساكن ومتحرك فالساكن ما أمكنَ تحميلُه الحركات الثلاث... والمتحرِّك هو الذي لا يُمكن تحميله أكثرَ مِن حركتين».

والأصواتُ الساكنة، وهي كلُّ أصوات الحروف ما عدا أصوات حروف الألف

والواو والياء المدّيتين والحركات الثلاث : وُصفت بأنها « صامتة » كما وُصِفَت المتحركة بأنها « صائتة » .

ويُلاحظ في جَرْي النَفس أثناء النُطق أنَّ مواضع حدوث بعض الحروف تعترض النَفَس ، كما أنَّ الوترين الصوتيين يتأثران بجَرْي النفس فهما إما منقبضان مُتشنّجان والنَفَس في هذه الحال منحبِس بهما وذلك عند نُطق صوت الهمزة وأصوات الحركات الصغرى الفتحة والضمة والكسرة ، وإما مُسترخيان منبسطان ، والنفس في هذه الحال يجري من بينهما « فتحة المزمار » فلا يُلاحظ عليهما تذبذُب ، وإما منقبضان بعضَ انقباض ، والنَفَس في هذه الحال يجري مِن بينهما في شيء من الانحباس .

والوتران في أُولى حالهما يعترِضان النفَس مُنْقبضين مُتشنجين فلا يَتَذَبذبان ولا يهتَزان لاندفاع النفَس ، وفي ثانية حالِهما لا يعترِضان النفَس مُسترخيين مُنبسطين فهما يتذبذبان ويهتزان بعضَ الذبذبة والاهتزاز ، وفي ثالثة حالِهما يعترِضان النفس مُنقبضين متشنجين فيتذَبذبان ويهتزان أكثرَ مراتٍ وأشَدَّ .

وبهذه الحالات من وَضْع الوترين وُصفت أصواتُ الحرف ، فما اهتزّ الوتران عند حدوثه وُصف بالجهر ، وما لم يهتَز عند حدوثه وُصف بالهمس . والوصف بالجَهْر والهمس مقيَّد باهتزاز الوترين الصوتيين واسترخائهما ، دون أن يكون لجَرْي النَفَس شأن في ذلك ، بيد أنّ المتقدمين مِن سَلَفِنا اللغويين قيَّدوا الوَصْفَ بالجهر والهمس بجَرْي النفَس دون ذِكر الوترين الصوتيين[1] . وملاحظة جَرْي النفَس واهتزاز الوترين في حدوث الصوت أَجدى في تَعيينه ووضعه .

والصوتُ الذي لا يَجْري النفَس به ويمتنِع كلَّ الامتناع فهو صوت « أُشْبِع الاعتماد » في مَوْضِعه ، فإذا انقضى وانطلَق النفَسُ وُصِفَ بأنه « مهموس » .

---

(1) انظر دروس في علم أصوات العربية ٣٤.

وإذا جرى النفَسُ بالصوت دون أن يعترِضَ طريقَه شيء فهو صوت «أُضعِف الاعتماد» في موضعه، ووُصف بأنه «مجهور». وهذا خِلافُ تَعريف المتقدمين لهاتين الصفتين قال ابن جِنّي فيهما[1]. «المجهور حرف أُشبع الاعتماد من موضِعه، ومُنع النفَس أن يجري معه حتى ينقضِي الاعتماد ويجري الصوت «والهمس» حرف أُضعِفَ الاعتماد في موضِعه حتى جرى معه النفَس».

بيد أنّ أصوات الهمس صنفان: أحدهما مثلُ الهمزة والباء والدال، وهذا لا يجري النفَس إلّا بحدوثه. وثانيهما مِثلُ الهاء والحاء والسين وهذا يَجري النفَس بها بأَقلَّ كلفَة مِن أصوات الجهر.

ومن الأصوات المهموسة حروف عبارة: «أجدت طبقك» غير حرف الجيم. والمجهورة حروف غير هذه العبارة.

وإذا حاولت مَدَّ صوتِك بأَحَدِ حروف الهمس مثل القاف أو التاء امتنع أن يَمتدّ بها. وامتناعُ جَري الصوت بهذه الحروف يُعرف «بالشدّة» والأصوات التي توصف بهذا هي حروف عبارة «أجدت طبقك» غير الجيم.

وإذا حاولتَ مَدَّ صوتِكَ بأحد حروف الجَهْر مثل السين والصاد امتَد بلا عائق. وامتدادُ الصوت بهذه الأصوات يُعرَفُ بـ«الرَخاوة أو الاحتكاك» وهي صفةُ غيرِ حروف الهمس وحروف عبارة: لم يروعنا».

وإذا حاوَلْتَ مَدَّ صوتك بحروف العبارة السابقة امتَدّ، ولكن بين امتناع الصوت وجَرْيِه: وهذه الحالُ مِن امتداد الصوت تُعرف بالتوسط بين الشدة والرخاوة. وأحرف اللام والضاد والراء في حال ترقيقها تُوصَف بأنها «مائعة» لانحرافها إلى طرفِ اللسان عند النُطق بها.

---

(١) انظر سر صناعة الإعراب ٦٨.

وإذا حاولتَ نُطقَ أصوات حروف : الضاد والصاد والطاء والظاء يرتفعُ لِسانُكَ إلى الحنك الأعلى مُطبِقاً له . وهذه الحال تُعْرَف بـ« الإطباق » وتوصف أحرفُه بأنها مُطبِقَة .

وما سوى هذه الحروف مفتوحة لأنّ النُطق بها لا يَستدعي رفعَ ظهْر اللسان إلى سَقْفِ الحنَك ، ولذا توصَف بأنّها « مُنفَتِحة » .

وذكر ابن جني الإطباق فقال : « أن ترفَعَ ظهرَ لسانك إلى الحَنَك الأعلى مُنطبقاً له » .

ونطقُك أصوات حروف الإطباق المذكورة مضافاً إليها أصواتُ حروف الخاء والغين والقاف تُحِسُّ أنها تَعلو في غارِ الحَنَك . وتُعرَفُ هذه الحروف بـ« الاستعلاء » وتوصف حروفها بأنّها مُسْتعلِية . قال ابنُ جني في صفة هذه الحروف : « أن تتصعَّد في الحنك الأعلى » .

وأصواتُ غير هذه الحروف لا تَسْتعلي عندَ النُطق بها في الفم ، تُحِسُّ انخفاض اللسان بقاع الفم ، ولذا توصَف بأنّها « مُسْتفِلة » .

وإذا نطقتَ حروف الإطباق أينما كانت تُحِسُّ أنّ الفم امتلأَ بها . وكذلك صوتا حرفي الراء واللام في بعض مواضعها التي سيأتي الكلامُ عليها بعد ذلك ، وصوت ألف المدّ أيضاً . وهذا الامتلاء للفم بها يُعرَف بـ« التفخيم » ووُصفت تلك الحروف إذا اقتضت التفخيم بأنها « مُفَخّمة أو مُغَلّظَة » .

ونطقُك أصوات مثل حرف القاف والطاء والباء ساكناً لا يُمكِنُك إلا بصوت زائد أو بِنَبْرَة . وذلك لانضغاط هذه الأصوات في مواضعها . وتُعرف هذه الحال بـ« القَلْقَلة أو اللقْلَقَة أو المُشْرَبة » وحُروف أصواتها في عبارة : قطب جد . ويُفهم مِن كلام سيبويه أن صوت حرف التاء يُلحق بها أيضاً . ويعُدُّ المبرِّد صوت حرف الكاف صوت قلقلة .

وتُسمى هذه الحروف أيضاً «مضغوطة» لأنها ضُغطت في مواضعها.

ونطقُك أصواتاً مثل حرف الزاء والظاء والذال والضاد وقْفاً عليها أي وهي ساكنة تحِسُّ معها نفْخاً. وهي في هذا مثلُ السابقة بانضغاطها في مواضعِها، لكنها أَقَلُّ منها. وتوصف أصوات هذه الحروف بأنها مُشْرَبة نفْخاً. قال ابن جني في صفة هذه الحروف: «اعلم أنّ في الحروف مُشْرَبة... ومِن المشربة حروف يخرُج معها نحو النفخ إلّا أنها لم تُضغَط ضغط الأول وهي الزاي والظاء والضاد».

ونطقُك أصوات حروف الألف والواو والياء قبلَها حركةٌ مُجانِسَة لها، تُحِسُّ خروج النفَس دون عائق، وتُلاحظ أنّ طول هذه الأصوات أَزيد في كلٍّ أصوات حروف العربية التي يطول بها الصوت. وتوصَف هذه الحروف بالمَدّ، وتضاف إلى تلك الصِفة فيقال: «أصوات المدّ». ويختلِف مدُّها بحسب مواقعها من الألفاظ ويجاورها مِن بعض الأصوات مثل الهمزة والمشدَّد. قال مكّي في هذه الصفة: «إنّ المدّ لا يكون إلّا في حروف المدّ واللين وهي الألف التي قبلها فتحة، والواو التي قبلها ضَمّة، والياء التي قبلَها كسرة وإنّما يكون المدُّ في هذه الحروف عندَ ملاصقتِهن لهمزة أو ساكن أو مُشدّد أو غير مُشدّد».

ونطقُك صوتي الحرفين الواو والياء، مَسبوقين بفتحة وهما ساكنان، تُحِسُّ أن النفَس معَهما أقصرُ منه في حالتهما السابقة، وأنهما أوضح لفظاً منهما فيما تقدَّم. ولسهولة نطقِهما وضعفهما في اللفظ بعضَ الضعف وُصِفا بـ«اللين» وأُضيفا إلى صفتِهما فيقال «صوتا لين».

وتلاحِظُ أن جَري النفَس في نُطق أصوات المدّ لا يَعوقه عائق. وإنما يجري بها حتى ينفُذَ الهواء المزفور كما أن اللسان في نُطقها لا يعتمِد على موضع، ولهذا وُصفت هذه الأصوات أيضاً بأنها «هوائية وهاوية».

ونطقُك الألف والفتحة التي قبلها في مثل هذه الألفاظ : مشارب ، منازل ، جاء ، زاد ، فإنك لا تجري لهما شيئاً إذا أبقيت الألف على حالها ممدودة والفتحةَ التي قبلها كما هي ، فأنت حينئذ أبقيتَ الكلام على حالِه وهو « الفَتْح » أي لم تُغَيِّرْهُ عن أَصله ووجهه . ولكنك إذا نطقت الألف نحوَ الياء والفتحةَ نحو الكسرة ، كما هو حالُ نطق بعضِ سُكّانِ الساحل الشاميّ ، فإنك عندئذ تكون قد أَخَذْتَ ميلاً في الكلام ، وهو ما يعرف بـ« الإمالة » أو الإضجاع أو البَطْح » . وهي ظاهرة لَهْجية لبعض القبائل منذ القديم . وللإمالة ضوابط لا تصحّ دونها ولا سيما في القراءات القرآنية . قال مكّي في هذه الظاهرة « اعلم أنّ معنى الإمالة هو تقريب الألف نحو الياء ، والفتحة التي قبلها نحو الكسرة » . وقال قبل ذلك : « اعلم أنّ أصل الكلام كلِّه الفتحُ . والإمالة تدخلُ في بعضه في بعض اللغات لعِلّة ، والدليل على ذلك أنّ جميع الكلام ، الفتحُ فيه سائغٌ جائز وليست الإمالة بداخلة إلّا في بعضه » .

ونطقُك أصوات الحروف : التاء والثاء والدال والذال وأخواتها مِن جنسها ، في الألفاظ المُعَرَّفة بلام التعريف . وكذلك نطقُك أصوات حروف : الدال والذال وتاء التأنيث واللام من « هل وبل » والباء والفاء عند أصوات حروف عبارة : ستصدجز . وكذلك نطقك أصوات حروف : الذال والصاد والظاء والشين والثاء والنون والباء والفاء عند مُقارِبها في مثل العبارات الآتية :برد ثواب ،ودت طائفة ، إذ ظلموا ، تُحِسُّ تَقارُبَ صَوْتَي الحرفين جداً في الوصل ، حتى كأن أحد الحرفين يدخُل في الآخر أو يوشك ، وتكاد تَنطِقُ بهما معاً . وتُعرف حروف الأصوات الأُولى بالحروف الشمسية ، وتوصف اللام التي أُدغِمَ فيها أحدُ تلك الحروف بـ« اللام الشمسية » حمْلاً لها على حال اللام في لفظة الشمس . وكذلك حالُ حروف الأصوات الثانية إذْ تُدغِمُ أحدَ صوتي الحرفين في صاحبه مجانِساً بينهما أو مُقرباً أو

مماثِلاً أو مُقدِّماً أولهما على ثانيهما أو راجعاً بالثاني على الأوّل ، وذلك بحسب خصائص هذه الأصوات[١] .

ونطقُك أصوات : الشين والفاء والثاء ، وهي ساكنة ، تُحِسُّ أن النفس عند النطق بها يَتَفَشّى وَيَنتشِر من بين اللسان والحَنَك ، ويُعرف هذا بـ« التفشي » ، وتوصف أصواتُ حروفه بأنّها مُتفَشّية . قال ابن الجَزَري في هذه الصفة : « وحروفُ التَفَشّي هو الشين اتفاقاً لأنه تَفَشّى في مَخرجه حتى اتصلَ بمَخْرَج الطاء . وأضاف بعضهم إليها الفاء والضاد ، وبعضٌ الراء والصاد والسين والياء والثاء والميم » .

ونطقُك صوت حرف : الضاد ، تُحِسُّ النَفَس يَجري ويتردَّد بين جانِبَي اللسان حتى طرفه ويُعرف هذا بـ« استطالة » صوت الضاد . قال ابن الجزري في هذه الصفة : « والحرفُ المستطيل هو الضاد لأنه استطالَ عن الفم عند النُطق به حتى اتصل بمخرج اللام ، وذلك لِما فيه من القوة بالجهر والإطباق والاستعلاء » .

ونطقُك صوت حرف : الراء ، تحِسُّ النفَس يُرعِد طرفَ اللسان بهذا الصوت ويُعرف ارتعادُ اللسان بـ« التكرير » وهو صِفةٌ لِصوت الراء .

ونطقُك صوتي حرفي : الراء واللام ، تحِسُّ بِجَرْي النفَس في أولهما إذ يبدأ قويّاً ، فإذا حدثَ الصوتُ سُمِع وقد بلغ طرفَ اللسان . فكأنّما انتقَلَ مِن شدّة إلى رَخاوة ، وتُحِسُّ جَرْي النفَس في ثانيهما إذ يَبْدأ مِن طرَف اللسان ، فإذا حدَثَ الصوتُ سُمِعَ وقد انحصَرَ صوتُه بين طرفي اللسان ومقدَّم الحنَك وكأنما انتقل من رَخاوة إلى شدة . فهذا الانتقال في حدوث صوتي الراء واللام يُعرف بـ« الانحِراف » ، ويوصف كلُّ صوت منهما بأنه مُنحَرِف . ويُشبه نطق صوت

(١) انظر أسرار العربية ٤١٨ .

حرف: «النون» نطقَ صوتي الراء واللام من حيث إنها مِن طرف اللسان. ولهذا وُصفت بأنها أصوات «ذَلْقِيَّة أو مُذْلقَة».

ونطقُكَ أصوات حروف: السين والزاي والصاد، تَسمَع مِن جَري النفَس بها صَفيراً وتحِسُّ أن نطقَها تَمَّ بمُستَدقِّ اللسان ملتقياً بالثنايا العُليا أو السُفلى. فإذا خرج الصوت بجَرْي النفَس سُمِعَ معَه ذلك «الصفير». فهذه الأصوات توصف بأنها «صَفيرية» أو ذات صفير، وبأنها «أسلية» لأن لِمُستَدَقِّ اللسان أي طرفه شأناً في إخراجها.

ونطقُك أصوات أحرف: الميم والنون الساكنين والتنوين، تحِسُّ النفَس يُحدِثُ صوتاً مميزاً يخرُج مِن الخياشيم، وهو أشبه في هذه الأصوات بـ«الإطباق» في أصوات حروفه من حيث قوَّةُ كُلِّ صوت منهما. ويُعرف هذا الصوت بـ«الغُنَّة» وتُضاف أصوات حروفه إليه أو توصف به.

ونطقُك صوتَي حرفَي: الراء واللام، في كثير مِن مواضعها، ساكنين أو مكسوراً ما قبلَها أو بعدَ اللام حرفُ استعلاء، تُحِسُّ أنهما يحسُن فيهما ترقيقُ لفظِها، ويوصف صوتُها حينئذ بأنه «مُرقَق».

ونطقُك لصوت حرف الهمزة مفردةً ومزدوجةً في مثل: أأمن، أؤتي، ائمان، بأس، شيء، جزء، سواء، تظهر صوتَها تاماً غيرَ منقوص فذلك «تحقيق» لها. وتوصف حينئذ «همزةً محققةً»، وإجراء ذلك في اللفظ بها يُسمَّى «تحقيقَ الهمز».

ونطقُك بصوتها في مثل هذه الألفاظ: هؤلاءين، جاأأمة، أونبئكم، ائذا، بإبدال الأولى أو الثانية مِن المزدوجة في مثل: أامن، أوتي، ايمان، باس، شي، جزو، فجعلتَه في المفردة مُبدلاً مِن جنس حركة ما قبلها، فالفتحة ألفاً والضمة واواً والكسرة ياءً. وجعلتَه في المزدوجة في ما هو مِن كلمة أو كلمتين «بين بين» أي بين

صوت الحرف الذي مِن جِنس حركتِها والهمزة. فهذا يُعرَفُ بـ« تخفيف الهمز وإبداله وتليينه بين بين».

ونطقُك بجزء من صوتها مفردة في كلمة وكلمتين أي بما عليها مِن حركة دون صوتها في مثل هذه الألفاظ: المشأمة، مسؤولاً، الأرض، لَوْأن، رِدْءاً. فتجعل الفتحةَ أو الضمةَ التي على حرفِها على حرف الصوت الذي قبلَها وتُلغي صوتَها، فتصبحُ الألفاظ المذكورة على هذه الصورة: المشَمة، مسُولاً، لَرْض، لَوَنْ، رِدَاً. ويُعرف هذا «بنَقْل حركة الهمزة» قال مكّي في هذه الظواهر التي تقدَّم ذكرها في الهمز: «إن الهمزة على انفرادها حرف بعيد المخرج جَلْد صَعْب على اللافظ به، بخلاف سائر الحروف، مع ما فيها من الجَهْر والقوة، ولذلك استعملت العربُ في الهمزة المفردَة ما لم تستعمله في غيرها من الحروف، فقد استعملوا فيها: التحقيقَ والتخفيفَ وإلقاء حركتِها على ما قبلَها، وإبدالها بغيرها من الحروف، وحذفَها في مواضعها، وذلك كله لاستثقالهم لها».

ونطقُك أصوات الحركات: الفتحة والضمة والكسرة، بمَدِّ الصوت بها في مثل هذه الألفاظ: شَم، لُب، حُر، رِف، عِد يجعلُ أصواتَ هذه الحركات كما في صورة الألفاظ المذكورة بعد مَدِّها: شام، لوب، حور، ريف، عيد. فهذا الذي حدث لأصوات الحركات يُسمى «مَطْلاً وإشْباعاً» وتوصف الأصوات التي يحدُث لها ذلك بأنها «مُشْبعة وممطولة» قال ابنُ جني في هذه الظاهرة: «إنك متى أشبعت ومَطَلْتَ الحركة أنشأْتَ بعدَها حرفاً مِن جنسِها».

ونطقُك صوتي حركتي: الضمّة والكسرة، ببعْضِ الصوت بهما في مثل هذه الألفاظ: سؤدُدُه، يسمُركم، يشركُه، في منازِلكم، لشمائِله، من طرائقه. كما تتضحان في مواضعهما من الخطِّ على تواليها على: الدال والكاف في اللفظين، والزاء واللام والقاف، جئتَ بما يُقدَّر بنصفِ صوت الحركة، وهذا يُسمى «اختلاساً»

وصوتا هاتين الحركتين إن أجري عليهما ذلك وُصِفتا بالاختلاس. قال مكي في ذلك: «ولما كان تمام الحركة مُستثقلاً لتوالي الحركات وكثرتها، والإسكان بعيداً، لأنه يغير الإعراب عن جِهته فتوسَّط الأمرين، فاختلس الحركة فلم يُخِلّ بالكلمة مِن جهة الإعراب ولا ثقَّلها من جهة توالي الحركات، فتوسَّط الأمرين».

ووقفُك على آخر الألفاظ المنتَهية بصوت الضمة إعراباً أو بناء، وبصوتِ الكسرة غير التي لالتقاء الساكنين والتي هي تنوين عِوَض في مثل هذه الألفاظ: نكتبُ، جد، دمشقُ، بوادٍ، ضوارٍ، شيء، له، لولدِهِ، كتبهُم، جهدُهُم، فالمضموم إعراباً وبناءً إن وقفت عليه وأردت أن تُري صورة حركة الضمة في أحد وَضْعَيها دون صوتِها جعلتَ شفتَيْكَ على هيئة صورة حركتها، وبهذا تُشير إليها. ويُسمّى ذلك «إشماماً». وصوت الضمة التي أُجريَ لها ذلك يوصف بأنه «مُشَمّ». وإن وقفتَ على آخر الألفاظ المنتهية بالضمة والكسرة غير المتقدم من نوع الكسر، وأردتَ نطقَ بعضِ صوتِها، فضلاً عن إظهار صورة حركتها نطقتَ ببعضِ صوتِ الضمة وببعض صوت الكسرة، ووضَّحْتَ صورة هذين الصوتين، وبهذا تَسمعُ هذا الصوت للحركتين وتُشير اليهما. ويُسمى هذا «رَوْماً» وصوتا الضمة والكسرة المسموعان هكذا يُسمى كل منهما «صوتاً مَروماً».

قال مكي في هذا: «إنما استعملتها العربُ في الوقفِ لِتبيين الحركة، كيف كانت في الوصل. وأصلُ الروم أظهرُ للحركةِ من أصل الإشمام، لأن الرَوم يُسمع ويُرى، والإشمام يُرى ولا يُسمَع».

والأصوات تتناظر بعضُها معَ بعض، المجهورة مع المهموسة، والشديدة مع الرُخوة. وعلةُ ذلك اتحادُ مَخرج الصوتين مثلُ صوتي الخاء والغين، وصوتي الشين والجيم، أو قُرب المخرجين مثل صوتي الزاي والذال والتاء والسين. فصوت الغين مجهور ونظيرُه المهموس هو صوت الخاء، وصوتُ العين مجهور ونظيره المهموس هو

صوت الحاء. وصوت الدال شديد ونظيرُه الضعيف صوت الذال ، والتاء صوت شديد ونظيرُه الضعيف صوت السين أو الثاء.

ولمّا كانت أصوات اللغة يُؤلِّفُ بين كل عدد منها مخرجٌ ، وكانت أصواتُ كل مخرج لا تختلِف فيما بينها إلّا بقليل من الميزات العامة ، فقد لزم البحثُ عن ميزات أخرى تنحاز بكل صوت وحده ، فكانت هذه الصفات التي عرضنا لبعضها . وقال أبو عُثمان المازني فيها : « إن الذي فَصَلَ بين الحروف التي أُلِّف منها الكلام سبعة ... إذا جهرْتَ أو هَمَسْتَ أو أطبَقْتَ أو شَدَدْتَ أو مَدَدْتَ أو لَيَّنْتَ اختلَفَت أصواتُ الحروف التي مِن مخرج واحد . قال : فعند ذلك يأتلِفُ الكلام ويُفهَم المُراد . قال : ولو كانت المخارج واحدة والصفات واحدة ، لكان الكلام بمنزلة أصوات البهائم التي لها مخرجٌ واحد وصفةٌ واحدة لا تفهم » .

غير أن ما تقدَّم مِن صفات الأصوات ليس كلُّه سواءً في تمييز الأصوات . ولهذا لم أعرض لصفات أُخرى ، واقتصرت على ما ذكرتُ منها لِما لها في رأيي من أهمية . وقَصَدْتُ بذكرِ طائفة مِن تلك الصفات إلى توضيح غير المألوف منها في استعمال المحدَثين اليوم ، ولا سيما أن كثرتهم ينتفِع بما يستعمله علماءُ اللغة المعاصرون في الغرب والشرق مترجَماً كان أم بلفظِه ، وهذا ما يُسبِّب بعضَ الاضطراب في الاصطلاح .

وإذا اقتضى الأمرُ أن أذكرَ بعضَ تلك الصفات عندَ الكلام على مخرَج صوت فعلتُ ذلك في موضعه .

والآن ما مخارجُ أصوات اللغة التي ندرُسُها ، وكيف يحدُثُ كل صوت منها ، واستعمالُها أصلاً وبدلاً وزائداً ، وظواهرُها اللهَجية ، وما شذَّ منها ، وأي شيء يُشبه في أصوات الطبيعة ، وما رُوعي فيه ، وتعريفُه وصفتُه؟.

الفصل الرابع

مخارج الأصوات

عدة حروف أصوات العربية تسعة وعشرون عند أغلب علماء اللغة ، وعدَّها نفرٌ ثمانية وعشرين ؛ ومِن هؤلاء أبو العباس المُبرِّد إذ ترك الألف لأنها لا تَثبُت على صورة معلومة ، وليس لها شكل بينَ الحروف محفوظ[1] .

والنظرُ في ترتيب هذه الأصوات عند الخليل وسيبويه وعند علماء القراءات يدُل دلالة قاطعة على ما ذهب اليه علماءُ اللغة المحدثون في تعيين مخارج الأصوات ، وخصائص تلك المخارج ، وبعض أعضاء النُطق مثل الحنجرة ، ففي ذلك قال أبو نصر الفارابي[2] : «وعلمُ قوانين الألفاظ المفردة : يَفحَص أولاً في الحروف المعجمة عن عددها ، ومن أين خرج كلٌّ واحد منها في آلات التصويت ، وعن المصوِّت منها وغير المصوِّت ، وعما يتركب منها في ذلك اللسان ، وعما لا يتركب» .

وذكر أبو علي مِسْكَوَيه عدة الحروف واختلاف مطالعها ثم عيَّنها بقوله[3] : «وذلك مِن أدنى الرِئة إلى أدنى الفم ، على ما قَسَّمه أصحاب اللغة وبيَّنه الخليل وغيره ، وعلى خلاف بينهم في مخارجها ومواضعها» .

وذكر ابن الجَزري الاختلاف في عدة المخارج فجعلها عند المحققين وسَمّى طائفة منهم الخليل بن أحمد ومكّي بن أبي طالب والهُذَلي وأبو الحسن شُرَيح سبعة عشر ، وذكر أنّه الصحيح المختار[4] .

---

(١) انظر سر صناعة الاعراب ٤٦ ، وانظر أيضاً الهوامل والشوامل ٢١ .

(٢) انظر إحصاء العلوم ٦ .

(٣) انظر الهوامل والشوامل ٢١ .

(٤) انظر النشر ١/ ١٩٨ .

وذكر مكّي بن أبي طالب أن قُطْرُباً والجَرْميَّ والفَرّاء وابن دُرَيد عَدّوها أربعة عشر[1].

فهذا الخلاف بين هؤلاء حُجة قاطعة على أن النتائج التي بلغوها تقتضي إحاطتهم بأعضاء النطق، وكيفية حدوث الصوت، ودقة تعيين كل مخرج. وهذا واضح في ترك المبرِّد لصوت الألف، وذكر الفارابي لآلات التصويت، والفرق بين الحروف المصوِّتة وغير المصوتة أي الصامتة والصائتة، وذكر ابن مِسكَوَيه لحدود مخارج الأصوات في جهاز النُطق، وذكر ابن الجزري ومكيٍّ لاختلاف أهل اللغة والقراءات في عدة المخارج.

ويُهمُّنا بعد ذلك أن نذكر الاشياء التي اختلف عليها هؤلاء الأعلام من لغويين وقراء ولا سيما المخارج. فأما ابن الجزري ومَنْ كان على رأيه وقوله إن المخارج سبعة عشر فخلافهم في مخرج سموه «مخرج الجوف» جعلوه لأحرف المد واللين، أي الألف والواو ما قبلها ضمة والياء ما قبلها كسرة، وألحقَ الخليل بها الهمزة لأنها تخرُج أيضاً من الجَوف.

وأما قُطرب ومَنْ وافقَه فعِدة المخارج عنده أربعة عشر، وأسقطوا ثلاثة مخارج أصوات: النون والراء واللام وجعلوا هذه الأصوات من مخرج واحد هو طرف اللسان.

وأما سيبويه ومَنْ تابعه فعِدة المخارج ستة عشر، وجعلوا أصوات المد واللين ملحقة بمخارج مناسبة لها، فالألف من أقصى الحنك، والواو تابعة لصوت الواو المتحركة والياء مُلحقة بالياء المتحركة.

---

(١) انظر الرعاية ٢١٧.

وأصوات الفصيحة اليوم لم تزل مخارجها قريبة مِن فصيحة التراث في أغلبها كما أن أكثر الأصوات الصامتة في لغتنا تُقارِب مثلَها في اللغة الإنكليزية ، وهذا يتيح لنا أن نتبين حدوثَها بدقة كلما اطلعنا على وصف علماء الأصوات لها في اللغة الإنكليزية ، وننتفع بذلك في التعرف على ما لحق هذه الأصوات عندنا من تطور.

وأقرب ترتيب لأصوات الحروف ما نجده عند سيبويه ومَنْ وافقه . وهي عند ابن جنّي هكذا : الهمزة والألف والهاء ، والعينُ والحاءُ ، والغين والخاء ، والقاف ، والكاف والجيم والشين والياء ، والضاد ، واللام ، والراء ، والنون ، والطاء ، والدال والتاء ، والصاد والزاي والسين ، والظاء ، والذال ، والثاء ، والفاء ، والباء والميم والواو ، والغنة أو النون الخفيفة . وقال ابن جني في هذا الترتيب[1] : فهذا هو ترتيب الحروف على مذاقها وتصعُّدها وهو الصحيح . وبين مَنْ أخذ بهذا الترتيب خلاف يظهَر في ترتيبِ أصوات المخرج الواحد كمثل اختلافهم في أصوات مخرجي الحادي عشر والثاني عشر أي أصوات حروف الطاء والدال والتاء ، وأصوات حروف الصاد والزاي والسين ، واختلافهم في مخارج أصوات اللام والراء والنون[2] . وعَرَضَ ابنُ جني لهذا الخلاف معيِّناً مخارج الأصوات فقال[3] : «اعلم أنّ مخارج هذه الحروف ستة عشر : ثلاثة منها في الحلق فأولها مِن أسْفله إلى أقْصَاه مخرج الهمزة والألف والهاء ، هكذا يقول سيبويه . وزعم أبو الحسن أن ترتيبها : الهمزة ، وذهب إلى أن الهاء مع الألف ، لا قبلَهَا ولا بعدَهَا والذي يدُل على فساد ذلك وصحة قول سيبويه أنك متى حرّكت الألف اعتمدت بها على اقرب الحروف منها إلى اسفل ، فقلَبتها همزة ، ولو كانت الهاء معك لقلَبتها هاء. وهذا واضح غير خفي.

---

(١) انظر سر صناعة الإعراب ١/ ٥٠.

(٢) انظر أسرار العربية ٤٢٠ وأسباب حدوث الحروف.

(٣) انظر سر صناعة الإعراب ١/ ٥٢.

ومِن وسَط الحلق مخرَجُ العين والحاء. ومما فوقَ ذلك مع أول الفم مخرج الغين والخاء. ومما فوق ذلك مِن أقصى اللسان مخرج القاف. ومِن أسفل مِن ذلك وأدنى إلى مقدّم الفم مخرج الكاف. ومِن وسَط اللسان بينَه و بين وسَط الحنك الأعلى مخرجُ الجيم والشين والياء. ومِن أول حافة اللسان وما يليها مِن الأضراس مخرج الضاد، إلاّ أنك إن شئت تكلّفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر. ومِن حافة اللسان من ادناها إلى منتهى طرف اللسان، مِن بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، مما فُوَيق الضاحك والناب والرُباعية والثَنية مخرج اللام. ومِن طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون. ومِن مخرج النون غير أنه أَدخل في ظَهْر اللسان قليلاً، لانحرافه إلى اللام مخرج الراء. ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء. ومما بين طرف الثنايا وطرف اللسان مخرج الصاد والزاي والسين. ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العُليا مخرج الظاء والذال والثاء. ومِن باطِن الشَفة السُفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء. ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو. ومِن الخياشيم مخرج النون الخفية، ويقال الخفيفة أي الساكنة فذلك ستة عشر مخرجا».

ولكن هذا لا يُلزِمنا تركَ ملاحظةِ التطور في كلّ صوت ومخرج سواء كان عند المتقدمين أم وقع بعد ذلك حتى زماننا، والانتفاع به في تقرير حقيقة أو صفة أو حالة أو قاعدة توضح أمراً ذا بال.

وسوف أحرِص على ذكر عدة نقاط في مخرج كل صوت مثل أنواع استعماله في اللفظ ومواضعه من صيغته، وإبداله إن كان يُبدَل من صوت آخر، وزيادتُه إن كان يُزاد، ومواضع هذه الزيادة، واختلاف اللفظ به في بعض اللهجات، والفرق في نُطقه في مواضع من اللفظ، وذكر بعض الظواهر التي تتعلق به، وما روعي في نُطْقه وهو ما يتصِل بالظاهرة التعليمية، وذكرُ طائفة من الألفاظ تشتمِل على أغلب ظواهره، والتعليقُ على نقطة من هذه النقاط أو أكثر قصْدَ التوضيح والتفسير.

وأغلبُ حروف الأصوات تُستعمل أصلاً وبدلاً وزائدة. ومعنى الأصل أن يكون الحرف فاءَ الفعل أو عينه أو لامه. والزائد لا يكون فاءً ولا عيناً ولا لاماً. والبدلُ أن يُقام حرف مقام حرف إما ضرورة وإما استحسانا وصنعة وإما لهجة مروية.

فلا نذكر هذه الأمور عند كلِّ حرف، لأننا سوف نستوفيها في مكانها من دراسة كل مخرج، ولكن إذا خالف صوتُ حرفٍ عن غيره أشَرْنَا إليه ووضّحنا الظاهرة التي تخُصه.

وقد لاحظنا أن المخارج ستة عشر، وهذا يعني أن بعض المخارج تختَص بأكثَر من صوت، وربما اختصت بصوتين كمخرج العين والحاء ومخرج الغين والخاء، وربما اختصت بثلاثة أصوات كمخرج الجيم والشين والياء ومخرج الباء والميم والواو، والمخارج نفسها قسمان: أحدهما ثلاثة مخارج هي للحلق، وثانيها ثلاثة عشر مخرجاً هي للفم. ونبدأ بمخارج الحلق.

١ ـ مخرج أقصى الحلق.

وهو لثلاثة أصوات: الهمزة والهاء والألف.

١ ـ الهمزة «أ» صوت الهمزة أولُ هذه الأصوات مخرجاً مِن الحنجرة، إذ النفَس منحبس بالوترين الصوتيين بقوة وحَفْز، ويُساعد على الحَفْز وقُوته مقاومةُ حجابِ الحاجز وعَضَلُ الصَدْر، وانغلاقُ الوترين ومنعُهما للنفَس المتَرَدِد بينهما وبين الصَدْر بعضَ وقتٍ، فإذا انفرج الوتران فجأة اندفع الهواء بالصوت وسُمع صوتها شديداً قوياً.

وذكَر الخليل أن الهمزة هوائية، لذلك جعلها مع الواو والياء والألف اللينة. فتوهَم بعضُ المحدثين[١] أن الخليلِ لم يعرِف مخرجَها، وأنّ في كلامه عليه ما يُشعر بالاضطراب فيها. وعرض كلام الخليل على وصْف حدوث صوتها يوضح قولَه الذي أُرى أنّ ملخصه يتمثَّل في أن الهواء يسبب حدوثها في وضع الوترين الصوتيين على نَحْو ما وُصِف مِن أمرهما قبل اندفاع النفَس بصوتها؛ وقد تأدَّت عبارة الخليل عن ذلك بطريق المجاز.

والمحدثونَ ينسبونها إلى الحنجرة، وهي موضع انحباس النفَس الذي يُحدِثها. وعلماءُ اللغة في الغرب يسمونها الوقفة الحنجرية "Glottal Stop" وتحدُث عندهم

(١) انظر علم اللغة العام، الأصوات ١٤٣.

في بعض الحالات النَفْسية كالغضب والمفاجأة عند اللفظ بالكلمات الآتية مثلاً :

absolutely, away, else, over, again

إذا استُعملت في نحو هذه العبارات :

It is absolutely false, fare away, any where else ، all over again.

وخصّه علماؤهم في كلامهم عليه بهذه العلامة « ؟ » ورمزوا إليه صوتياً بالإشارة التي تشبه حرف « ب ».

وتُستعمل أصلاً في المواضع الثلاثة : أتى ، ثأر ، رفأ.

ولا تجتمع حرفين فاءً وعيناً ، ولا عيناً ولاماً ، وذلك لِثقلِهَا مفردة. فهي أول صوت الحروف مخرجاً ، وبعيدة عنها. وإذا كانت طرفاً صعُب اللفظُ بهَا ، ولهذا فليس في لفظة حرفان منها هما أصلان.

وتُبدل مِن خمسة أحرف وهي : الألف والياء والواو والهاء والعين.

١ — فمِن الألف ما حُكي من حروف قراءة عن أيوب السِختِياني « ولا الضَألين » وعن عَمْرو بن عُبيد « فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جَأْن » وما جاء في شاهد مثل : اشعأَل بهيمُها ، وأبيَأَض وادهأَمَّ ، وهذا لكراهة اجتماع ساكنين.

وأبدلت من الألف في الوقف ، فقد حكى سيبويه : حُبْلأ ، رجُلأ ، ويضرِبُهأ. ولم تزل هذه الظاهرة حتى اليوم في استعمال حرف النفي : لأ ، في : لا ، ومثل هذا قلبُ الواو والياءِ المتطرفتين همزة مثل : كساء ، بناء.

واجتماعُ ألفين في مثل : فاا ، تاا ، يوجب قلبَ أُولاهما همزة والألف الثانية زائدة ومثل : صحراء ، عشراء ، أصلها : صحراا ، عشراا ، فأُولى الألفين زائدة للصيغة وثانيتها للتأنيث ، فكان لا بُدّ مِن تحريك هذه لتُقلَب همزة كما تُقلَب في صيغة الجمع مثل : صحاري ، حباري ، ولولا قلبُهَا لاجتمع ألفان هكذا : صحارِاا ، حبارِاا.

ومما حُكي من إبدال الألف همزة وجاء بعضٌ في شاهد هذه الأمثلة : العألم ، الخأتم ، النأر ، قوقأت الدَجاجةُ ، حلأتُ السَويق ، رثأت المرأة زوجها ، وعدّ ابن جني مثل هذا من الشذوذ ، وأرى أن هذه الهمزة إنما هي مثل قراءة أيوب السِختِياني وعَمْرو بن عبيد : الضألين ، جأن ، أي الهمز كراهة اجتماعِ الساكنين. وهو مثلُ قول العرب في : عَمْرو ، بَكْر ، بعَمْرو ، لِبَكْر : عمُرو ، بكُر ، بعِمِرو ، لبكِره . إذ نقلوا الحركَة ، كأنما الحركة حلّت محلّ الساكن.

٢ — ومِن الياء والواو وهما أصلان في مثلُ : وجوه ، وعد ، وقت : أجوه ، أُعِد ، أُقِّت . ومثل : وسادة ، وعاء : إسادة ، إعاء . ومثل بايع ، قايم : بائع ، قائم . وذلك لوقوع الواو أو الياء بعد ألف زائدة.

وتُبدل الواو همزة باطراد إذا ضُمت ضماً لازماً مثل : وقتت ، أَدُور ، أَثْوب : أُقتت ، أدؤر ، أثؤب . وإذا التقت وأوان في أول الكلمة هُمزت أولاهما مثل : وولى : أولى.

وتركوا إبدال الياء والواو في مثل : عِبايه ، صلاية ، عباوة ، شقاوة ، إذ لحِقت الهاء آخِراً وعلّل ذلك الخليلُ ببناء الواحد على الجمْع ، فإذا أدخلوا الهاء وكانت اللام مِن المثال معتلة أبقَوها على حالها.

وتُبدَل منهما وهما زائدتان في مثل : عِلْباي ، حِرْباي ، عِزْهَاي : علباء ، حرباء ، عزهاء . وتُقلب عن واو زائدة في مثل : صحراوي ، خُنفساوي.

٣ — ومن الهاء في مثل : ماء ، وأصله موه ، وجمعه مياه ، وأمواه ، ومثل أأل ، وأهل . وقيل إن الهاء في «أهل» ليست مُبدَلة من الهمزة . وكذا مثل : رجل تُدْرأ وتُدْره ، لِمَن يدافع عن قومه . ورُوي عن أبي عبيدة : هل فعَلتَ ، وألى

فعَلْت. وفي لهجة لم تزل إلى اليوم في ريف اللاذقية في ضمير المخاطب «أنت» ينطقونه: هَنْت.

٤ ــ ومِن العين في مثل: أُباب البحر وعُبابه، وأن عبد الله: عن عبد الله، أأن تَغنَّت: أعن تغنَّت[1]، وهذه لهجة لتميم تُعرف بالعَنْعنة.

٥ ــ ومِن القاف في لهجة أهل المدن اليوم حيثما كان موقعُ حرفِهَا مِن صيغة الكلمة، مثل قبل وقف، سقف، مشتاق، دقيق، فهم ينطقون هذه الألْفاظ هكذا: أبل، وَأَف، سَأْف، مُشْتاء، دئيء، وهذا ملاحظ في عامية مدن بلاد الشام.

ويُلاحظ على بعض وجوه إبدالها، غير ما هو لهجة مثل لفظي: أهل، وآل، وتسهيلُهَا كما هو الأمر عند قريش ومَنْ وافقها، أنها مثلُ استعمال ألف الوصل عند البدء بلفظ نحو: إبدأ القراءة، أو ألرجل متفهم، وذلك في اللغة الشائعة المستعملة.

فهي في مثل قراءة السِختياني وعمرو: الضَأْلين، وجَأْن، وكذا في مثل: ابيأض، اشعأل، إنما هي حركة فاصلة بين سواكن، وتبيينٌ لِصوت ضعيف متوسِط بين صوتين قويين، فالألف في «ضالين» بين الضاد الصوت المستعلي المفخم واللام الصوت المشدد.

وأمثلة سيبويه في مثل: حُبْلأ، رجُلأ، يضربُهأ، وفي استعمال الناس اليوم حرف النفي: لأ، هذا كله إنما وقَع تَخَلُّصاً من الوقف على حرف ضعيف الصوت.

---

(١) انظر الخصائص ٢/ ١١.

وانقلاب الهمزة الزائدة في آخر الأمثال نحو: صحراء. وصفراء. وماء إنما هو أيضاً لبيان آخر اللفظة ولإمكان تحريكه بأي حركة إعرابية في سياق الكلام.

وما جاء منها في الأمثال أولاً وجاء في غيره بالواو نحو: إعاء. إسادة. ووعاء ووسادة، فهو لهجة كانت شائعة ثم قلّت بتحضُّر الناطقين وبقيت منه بقية. لأن النطق بالهمزة أول صوت في المثال كان موافقا لطبع الناطق بها من الجفاء والخُشونة ولا سيما إذا نَطقه على وجهه في صفة كلام البَدْو الرُّعاة، فإذا غلب التحضُّر على بعض هؤلاء أو أغلَبهم قلبوا الهمزة واواً.

وبمثل هذا يُعلَّل نُطقُ أهلِ المُدن في بلاد الشام لصوت الهمزة بدلاً من القاف فما تقدَّم ذكره.

جـ — زيادتها: وقد زيدت الهمزة أصلاً في الثلاثي مثل: أكبر. أصغر. وفي الرباعي مثل: إصطبل، إبريم، إبراهيم، وزيدت وسَطاً وآخِراً في مثل: بلأز الرجُل، تكرفأ السحاب. وزيدت في الخطاب مثل: هاءِ، هاءا. ورُويت أحرُف وقعت زيادتُهَا فيها وسَطاً وآخِراً مثل: شمأَل، شأْمَل، جُرائِض، الرِئْبال. إحبَنطأ.

وأحسب أن هذه المباني بقيةُ لهجات كانت مستعملة أو منحوتة من لفظين. أو هي مستعارة من احدى اللغات السامية.

وتُستعمل حرفاً لمعنى الاستفهام مثل: أَبِشْرٌ معك؟ ولمعنى النداء مثل: أمصطفى، أُسَمِيّة.

د — حذفها: ورُوي حذفُهَا في مَبان وعدة أمثلة مثل: ويلُمه. ناس. أريت، جَا، يَجي. سا، يسو.

وسبب حذفِهَا في أكثر هذا هو لهجة ، وسبب آخر هو متابعة كما في بعض القراءات القرآنية التي نجدُ فيها عِدة ظواهِرِ مُهِمّة ومعقدة في نطق هذا الصوت.

هـ ــ فلولاه لما نشأت ظاهرة المدّ وأُصوله وعِلله ولا سيما في القراءات مثل : «آمن ، أوتي ، يستهزئون ، متكئين». والمدّ في هذه الألفاظ يقَع في حروف المد واللين عند مجاورتها الهمزة وذلك لأن[1] الهمزة حرف جَلْد ، بعيدُ المخرج ، صعْب في اللفظ ، فلمّا لاصقَت حرفاً خفياً ، خِيف عليه أن يزداد بملاصقة الهمزة له ، خفاء ، فبُيِّن بالمدّ ليظهَر». وللقراء في ذلك أساليب بحسَب ما تَلقّوا على أساتذتهم علماً وتَجربة في سلسلة من الرجال أخَذ المُتأخِر فيها عمّن سبَقه ، وكان له نصيب من اجتهاد واختيار يوافق فيهما وجوه العربية ولا يُخالف عن رَسْم المصحف.

وكذا ظاهرة إلقاء حركتها بعد حذفِهَا من اللفظة مثل : عادَن لُولى في : «عاداً الأُولى» ومَنَ امن في «مَنْ آمن» و«لَرْض» في : «الأَرْض».

وكذا ظاهرة تخفيفِها ، ويكون في إبدالها ألفاً إذا انفتح ما قبلَها مثل : أاندرتهم أادم في : «أأنذرتهم ، أأدم» ، وواوا إذا انضم ما قبلَها مثل : أُومن ، يُومنون في : «أؤمن يؤمنون» ، وياء إذا انكسر ما قبلَها مثل : الذيب ، بيس ، في : «بئس ، » الذئب.

وكذا ظاهرة «بينَ بينَ» أي أن تُجعل الهمزة بين صوتِها والحرفِ الذي منه حركتها ، فالمفتوحةُ بين الهمزة والألف ، والمضمومةُ بين الهمزة والواو ، والمكسورة بين الهمزة والياء.

---

(١) انظر الكشف عن وجوه القراءات ١ / ٤٦.

وكذا ظاهرةُ الوقف عليها آخِراً تخفيفاً أو تحقيقاً بحسب اختيار كلّ قارىء أو مَنْ اشتُهِر منهم بالوقف عليها مُخفَّفة، ومن اشتُهر بالوقف عليها محققة.

وقد أفاضت كُتب عِلل القراءات في هذه الظواهر لأهميتها في علم القراءة وتَلقيها على الأستاذ وما تحتاج من المُتعلم مِن جُهد ودِقّة في استيعابها وفَهْمِهَا. وذلك أن الإخلال بها وفي ضبطها، عند القراءة لآي القرآن الكريم، يوقع في تغيير المضمون، ويَحيد عن نُطق اللفظ المألوف.

و ـــ وقد روعي في نُطقها عدة وجوه ولا سيما في القراءات القرآنية منها:

١ ـــ إخراجها بلطف ورفق. وروي في كُرْهِ بعض القراء وعلماء القراءات عدة آثار أنكروا فيها نُطق صوتها بشدة وتعسّف[1].

٢ ـــ التحفظ بإظهارها مفردةً وهي مضمومة أو مكسورة ولا سيما إذا كان قبلها كسرةٌ أو بعدَها أو قبلَها ضمَّة وهي مضمومة مثل: المنزلُ أُعد، للوالدين إنهما، لبارِئكم.

٣ ـــ الرفق في نُطقها مُسهَّلة إذا كانت معها همزة أُخرى أو جاءت همزتان مُليَّنتان قبلهما همزة محققة مثل: جاء آل لوط، جاء آل فرعون.

٤ ـــ إظهار لفظها عند الوقف عليها لصعوبة ذلك، حتى لا يذهب صوتها أو ينقص بالوقف وصعوبة مخرجها مثل: أسوأ، يستهزىء، جزء، ملء.

---

(١) انظر الرعاية لتجويد القراءة ١٢٠.

هـ ــ التحفظ ببيانها مكسورة قبلها حرفان مشدّدان، لثقل صوتها وثقل الكسرة مثل : ومكر السّيء.

ز ــ ويشبه صوتُ الهمزة مِن أصوات الطبيعة صوتَ إخراج الإصبع من فم الزجاجة الفارغة بضَغْط من الإصبع لحفافي فَمها، ويُشبه أيضاً صوتَ السُعال المألوف[٢]. فصوت الهمزة حَنجري مهموس شديد.

ح ــ وتُلحق ألفُ الوصل بحرف الهمزة للمُشابهة بينهما التي تظهر في صوتهما وفي حذفهما أحياناً وزيادتهما في مواضع من الأبنية والألفاظ.

وصوت ألف الوصل يماثل صوت الهمزة في الحركات الثلاثة فهي مكسورة مثل اِنطلق، اِبتعد ومضمومة مثل : اُستشهد، اُدخلوا، ومفتوحة مثل : اَلطفل، اَلباب.

وتُزاد كثيراً أولاً في المصادر والأسماء مثل : اقتدار، اجتهاد، ابن، ابنه، اثنان، اسم، امروء. وكذا في لام التعريف وهي حرف مثل القمر، النهر. وهي تُحذف في دَرْج الكلام والقراءة.

وأحسَب أن هذا الصوت نشأ في مرحلة متأخرة مِن تكوُّن فصيحة التراث، وذلك لبيان ألفاظ الحروف عند الكلام والإنشاد. وتعليلُ استعماله توصلاً إلى النُطق بالساكن حُجة لِمَن قال إن الحركة فوق الحرف نفسه لا قبلَه ولا بعدَه[١]، وذلك أنها تُحرك بعد أن كانت ساكنة مثل نون التّثنية ونون الجمع والتنوين. وهي أشبه في وظيفتها أيضاً بهاء السكت مثل : وازيداه، واعمراه.

---

(١) انظر An outline... P, 150

(٢) انظر سر صناعة الإعراب ١/ ٣٧.

مخرجاً بعدَ الهمزة.

٢ــ الهاء. وصوتُها هو الثاني

أ ــ ويحدُث بهواء مندفع من الصدر، لا يَحول دونَه عائق غيرَ أن فتحة الوَترين الصوتيين بها شيءٌ من تضييق، والفم مفتوح بمقدار نُطْق صوت القاف من: قبل، إذ يَدعَك النفس الفتحةَ ويَتبدّدُ في فراغ أقصى الحَلْق وبعضِ أدناه. ويرتفِع الحنكُ اللين ليسُد طريقَ الأنف. وهناك خلافٌ عند المتقدمين ولا سيما الخليل في موضعها بين أصوات الحاء والعين. فهي آخر هذه الثلاث عنده. وهذا يحتمِلُ شيئين أحدهما أن هذا الكلام المنقول عن الخليل مضطرب. وثانيهما أن ذوق الخليل للصوت وملاحظته له في اللهجة التي رصَده فيها إنمايُقرِّر هذا الموضع لها. وفيما نُقل عنه من ذلك قوله[1]: «ولولا هَتّة في الهاء، وقال مرة «ههّة» لأشبهت الحاء، لِقُرب مخرج الهاء من الحاء». ولعل لغرض الخليل في نظام معجمه الذي بدأه بصوت العين، وسَمّاه بصوتها ما يُفسِّر موضع الهاء عنده. وصوتها في الإنكليزية كما يرى «جونز» صوت حَنجري ساكن احتكاكي. ومنه في نُطقه عدة أصوات مثل:

أ ــ hard, here, behind, inhabit, heavy, honest

ب ــ استعمالها: وهي تُستعمل أصلاً وبدلاً وزائدة. وأما إبدالها فمن خمسة احرف هي: الهمزة والألف والياء والواو والتاء.

١ ــ وتبدل من الهمزة أصلاً، مثل: إياك، هياك، وتقول طيء: هَنْ فعَل، فعَلْتُ. لِهَنْك قائِمٌ. وقرأ بعضهم: طَأْ في موضع «طَهَ» على معنى وَطَأَ يَطأ وذكر أن «هات» هي آتي. وروَى الأصمعيُّ أن الصَباب تُسمّى هَيْر وأَيْر. وزائدة، مثل: أَرَقْت وهرَقت وأَتْرَتُ الثوب وهتَرْتُه، وأَرَحْت الدابة وهَرحتُهَا، وهَزيد مُنطلِق. وأزيد منطلِق.

---

(١) انظر كتاب العين ٦٤.

(٢) انظر An outline... P. 201

٢ ــ ومن الألف مثل : من هاهنا ومن هُنه ، وأنه في أنا .

٣ ــ ومِن الياء ، مثل : هذه في هذي ، وهُنيهه في تصغير هنة ، وهي في مثل زنادقة فرازنة مثل العِوَض من الياء في : زناديق ، فرازين . وذلك لِطول اللفظة في النُطق .

٤ ــ مِن الواو ، وذلك في حرف واحد هو : ياهَناه ، وذلك في شاهد لامرىء القيس ، وذُكر أنها بدل من الواو في : هناو ، لأن أصلها هكذا مثل عطاو . ورأى ابنُ جني ان تكون بدلاً من الألف أولى لأنها من مخرج واحد . وردَّ ابن جني قول أبي زَيد بأنها للوقف ، وذلك لسقوطها وصلا .

٥ ــ مِن التاء : مثل : لوزة ، وطلحة ، يوقف عليها بالهاء . وطيء تقول : البَناه والأخواه أي البنات والأخوات ، والتابوه أي التابوت .

ويُلاحَظ على كثير من وجوه إبدالها أنها لهجات مثل : إياك وهياك وأرقت وهَرقت وأرحت وحرَحْت وهذه وهذي . وأنها للوقف عليها مثل : أنه ، وهُنه ، وربما كانت مستعارة من اللغة العِبرية في : هزيد ، إذ استُعملت موضع الهمزة ، وهي في العِبرية مثل لام التعريف .

وأما زيادتها ففي الألفاظ التالية : أمهات ، وجاءت في شاهد : أُمهتي خِنْدف ، وذكر ابن جني أن أبا بكر بن السَراج جوَّز أصالتها ، لأنها مثل : تُرهة وأُبهة وقُبرة . وحجةُ ذلك قول الخليل : تأمّهت أُماً فتأمَّهت ، لكنها غير موجودة في المصدر : أمومة ، مما يُرجِّح زيادتها . وقال أبو الحسن الأخفَش بزيادتها في مثل : هجْرع وهِبْلع ، وهما من الجَرْع والبَلْع . وأكثرُ الناس غيرَ ابن جني على زيادتها في : هُركولة ، أي المرأة الضخمة . وتُزاد للتأنيث اللفظي مثل : معاوية وحمزة . ولبيان الحركة القصيرة والطويلة مثل : ماليه ، سلطانيه ، ورَأساه وابُشْرَاه .

جـ — ظواهرها اللهجية: ووقع لِحرف الهاء في بعض لهجات المتقدمين ظاهرتان، إحداهما عُرفت بالفَحْفَحة، وهي أن تُبدل عيناً، وقد سُمِعت في لهجة بني هُذَيل مثل: معَّم في معَهم، وبعد إبدالها تُدغم. والثانية إبدالها حاء مثل: اذبحّاذه، واجبّحاتماً في: اذبح هذه، واجبه حاتِماً. وبعد إبدالها تُدغم.

ولم تزل ظاهرة الفَحفَحة حتى اليوم في نُطق بعض مدن بلاد الشام مثل: معّا، معَّم، إصبَعو، إصبعا في: معَها، معَهم، إصبعه، إصبعها.

ويُلاحَظ ضعفُهَا حتى درجة الإسقاط مثل: فواكِ، صِرّيج في: فواكه وصِهريج.

ويُلاحَظ إدغامها في عِدة حروف منها بالتاء والفاء والسين والصاد والشين والخاء في نُطق بعض نواحي بلاد الشام مثل: خَيْمتا، صُوفا، لِباسا، عقَصا، مخّا، كِشّافي: خيمتها، صوفها، لباسها، عقصها، مُخها، كِشَّها.

وأغلب هذه الظواهر ترجع إلى تقارُب المخارج مرة، والاقتصاد في الجُهد مرة، ومثل ذلك يمكن أن يفسَّر بما في بعض اللغات السامية ولا سيما العِبرية التي مِن شأنها أن تُدغِم مثل هذا الصوت الضعيف أو القريب المخرج في صوت مؤاخٍ له أو مقاربٌ مخرجاً.

د — ما روعي في لفظها:

١ — وروعي ترقيقُهَا بعدَها ألفٌ كما تُلفظ في الحروف: حا، ها. في مثل: هذا، هام، هاد.

٢ — التحفظ بإظهارها لخفائها ولا سيما عند تكرُّرها، مثل: لَهُ هند، عندهُ هدهد، شبهُ هذا. وجهه، إلهه. وإذا شُدِّدت مثل: مهِّل أخاك، طهِّر ثيابك، جهِّز، وذلك في كلمة. وأما في كلمتين فيُنوى السكتُ على الأولى مثل: ماليه هلك، كتابه هداه.

٣ـــ وجوب إظهارها قبل حاء أو بعدَها مثل : فسبِحه ليلاً ، اتقوا الله حقّ تقاته ، دفعاً لخفائها أو إدغامها في الحاء.

٤ـــ وتُبيَّن وهي بين أَلِفين مثل : لواها ، عدّاها ، قوّاها. وذلك لاجتماع ثلاثة أحرف خفية.

٥ـــ التحفظ ببيانها قبلَها أو بعدَها عَيْنٌ مثل : العِهْن ، بايعهُن ، هُرِع ، خشية الإخفاء والإدغام عليها لقُرب المخرج وخفائها.

هـــ ما يُشبِه صوتَها في الطبيعة : يُسمع صوتُهَا في نَفْث الهواء المضغوط من المكواة البخارية.

وـــ فصوتُ الهاء حَنْجَري مهتوت احتكاكي ضعيف.

٣ـــ الألف : وصوتها ثالثُ أصواتِ هذا المخرج.

أـــ ويحدثُ باندفاع الهواء مِن الصدر عبرَ الحنجرة دون عائقٍ ما واللسانُ منخفِض في قاع الفم ، وسقفُ الحنَك اللين مرتفِع والوتران الصوتيان مُتشنِّجان مهتزان شيئاً ما ، ويتبدَّد الهواء في فَراغ الحلق والفم.

وقولُ ابن جني إنها ساكنة تابعة للفتحة ، وكلامُ علماء التجويد على نوعي المدّ المتصل والمنفصِل وتقدير مُدّة كل منهما بحَركات يُجْريها مَنْ يقرأ بأصابعه يضمُّها أو يفتَحُهَا إنما هذا كله يُفيد أن الصوت حركة وليس صوت حرف من حروف العربية[١]. ويُمكن أن نَتبين حجة ذلك في عرضِنا لخصائصها واستعمالاتها.

بـــ استعمالاتها : يجدر أن نلاحِظ ترتيبها في حروف المعجم. فهي في آخرها مثل الياء. وأكّد ابنُ جنّي أن تُجعَل في الرسم بعد اللام هكذا : «لا» ، وذكرَ علّة

---

(١) انظر دروس في علم أصوات العربية ١٥١ وأسباب حدوث الحروف ١٤.

ذلك[1] أنها لا تكون إلاّ ساكنة تابعة للفتحة ، والساكن لا يُمكن ابتداؤه فدُعمت باللام ليقع الابتداء بها وتأتي الألف ساكنة بعدَها ». وسببُ هذا الاختيار أنها تدخُل عليها أي تدخل الألف على اللام في مثل : القمر ، العبد. وهي في الإنكليزية A في مثل الألفاظ : Part, calm, half

وهي تأتي أصلاً وزائدة وبدلا.

١ — ومجيئها أصلاً محصور في حروف المعاني والأسماء المَبنيّة مثل : ما ، إلا ، ماذا يا ، حتى.

٢ — وتُبدل من أربعة أحرف : الهمزة والياء والواو والنون.

أ — تُبدل مِن الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلَها غيرَ طرف ألفاً تخفيفاً مثل : راس شان في : رأس ، شأن. أو تحويلاً مثل : آمن ، آدم في : أأمن ، أأدم. ولا تُخفَّف الهمزة المُجتلبة ولا أصلَ لها مثل : العَأْلم ، الخَأْتم.

ب — وتُبدل مِن الياء والواو في ثلاثة أنواع مثل : ييأس يا أس ، يوجل يا جل ، سار باع ، دعا ، عدا ، أعطى ، استقصى ، ملهى. فالواو والياء في هذه أصلان. والنوع الثاني أن يكونا زائدتين مثل : سَلْقا وجَعْبا في : سلقَيْت وجَعبَيْت. وترخيم اسم عَنوق كما يُرخَم « حار » فيُقال : يا عنا ، فالألف بدَل مِن واو في : عَنوِي. وكذا : يا فَدا ، الذي أصله « فدوكس » إذ رُخم : فَدوك ، وبعد التَسْمية به يُرخَم : فَدَوْ فتُحذَف الكاف وتُبدل الواو ألفاً.

جـ — وتُبدل من النون الساكنة في الوقف : قابلت بِشْراً. ومِن نون التوكيد الخفيفة المفتوح ما قبلَها وقفاً : اسألن خيراً ، اسألا. ومِن نون « إذن » في الوقف : أراك إذا في « إذن » وهذه النون أصل. والنونان السابقتان مثل تنوين الصرف.

---

(١) انظر سر صناعة الإعراب ١٩٠/ ظ.

حـ — زيادتها : وتقع زيادتها تَشْكيلاً أي لتنويع المباني . وهي لا تقع أولاً ، وإنما ثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة مثل : خاتم ، طابق ، خاصم ، شهاب ، لباب ، اصفارّ اخضارّ ، حملاق ، زلزال ، قرْقرى ، حَبْركا ، قِبعثرى ، ضِبَغْطري .

وتقع في الأسماء على ثلاثة أصناف : أحدها للإلحاق مثل : أرْطَى ، مِعْزَى ، صلخدى . وثانيها للتأنيث مثل : حُبارى وسَكرى وكُبرى . وثالثها لغير إلحاق وغير تأنيث مثل : قَبَعْثرى ، باقلاء ، سُمّاناه .

وتُزاد في الاسم المثنى علَماً له ، وهي عند المتقدمين إما أنها حركة إعراب وهو رأي فئة منهم سيبويه والفرّاء ، وإما أنها جزء من المبنى وعلامة للتثنية وهو رأي فئة منهم ابنُ كَيْسان والفارسيّ وابنُ السراج . وأمثلة هذه الألف في : كتابان مسجدان ، للملكين وللطالبين ، ومِذْروان وعُنفوان .

ومِن وظائفها أيضاً إلحاقها في الوقف لِبيان الحركة مثل : أنا في « أن » ، وحَيّهلا في « حيّهَل » . وللفصل بين المُتماثِلات مثل : احفظنانِّ ، جَودنْان ، أأأنا ، أاإِذا . ولِبيان المعنى في هاء الضمير المُؤنث مثل : كتابها ، لها ، وللنُدْبة مثل : واشيخاه ، وارأساه ، وللإطلاق مثل : العِتابا ، الجَميلا في « العتاب ، الجميل » .

وذكر ابنُ جنّي أنّ هذا الصوت تابع للفتحة ، وتقديرُ علماءِ التجويد لمُدّة الصوت بها يوضِح أنها إحدى الحركات فقط . ويؤكد هذا أنها وأُخْتَيْهَا حركتي الواو والياء لم تكن تُرسَم في الخط السامي بنحوٍ عام ، ولم تزل هذه الظاهرة مألوفة حتى اليوم . ويُعَدّ عملُ أبي الأسود الدُؤلي في رَسْم الحركات في المصحف مرحلة مِن مراحل فهم هذه الأصوات واستعمالها في النطق والرسم .

ولذا فهي تُحذف كثيراً في نُطق بعض الألفاظ ودَرْج الكلام في بعض اللهجات وفي القراءة أو الحديث السَريعين أو عند الوَقف مثل : أن أكبرُ منك ، أنَ أخوك في : «أنا أكبر، وأنا أخوك» وهُدَ ، مشَ ، في : «هُدَى ، مَشى» وفلبيت وفِلمعهد في : «في البيت ، وفي المعهد».

وقد اتُخذت علامة في الخَطّ ، بالرغم من أن الرَّسم السامي عامة ورسم اللغة العربية خاصة وَظائِفيٌّ أي يُقابل برموزه الكتابية الرموزَ الصوتية[1] ، مثل استعمالهم لها مع لام التعريف وفَرْقهم بها بين الفعل المتصل بواو الجماعة ماضياً ومضارعاً منصوباً أو مجزوماً ، وصيغة جمْع المذكر السالم المرفوع في حالة الإضافة ، وفي بيان الحركة والضمير كما تقدّمت الإشارة الى ذلك مثل : الدار ، الهدى ، أنا ، لها ، درسوا رعُوا ، لن يُضاموا ، ليفهَموا ، مُدرّسو المعهد ، جميلو الصورة. وهي في بعض هذا لا تُسمع في اللفظ.

د — ظواهرها اللهجية : تُسمع أحياناً في بعض اللهجات مُفَخَّمة فهي مثل الواو أو مُشْرَبة بصوت الواو في نُطْق أهل اللاذقية في سورية مثل : راحْ ، خالِد ، وهذا ما يُعرف بتفخيمها أو تغليظها في بعض القراءات القرآنية. وهي مثل الياء أو مُشْرَبة بصوت الياء في نُطق أهل بيروت وطرطوس وبعض البلدان الاخرى مثل : كتاب وبلاد ، وواحد. وهذا ما يُعرف بالإمالة أو الإضجاع أو البَطْح في بعض القراءات القرآنية.

و — ما روعي فيها : ولذا روعي فيها أن تُنطق مِن غير تغليظ ولا إمالة في اللغة المختارة.

---

(١) انظر دروس في أصوات اللغة العربية ١٥٥.

وروعي إطالة الصوت بها عند مجاورتها الأصوات القوية مثل الهمزة والمشدَّد وغير المشدد، مثل: سؤال، جاء، آمن، العادّون، الصافّون، الظاهر، الواصل.

و‌ــ ويشبه صوتُهَا في الطبيعة صوتَ خُوار البقر شيئاً ما.

ز‌ــ فصوتُ الألِف هذه مجهور هاوٍ في مَخرَجِه، ضعيف.



٢ — مخرج وسط الحلق

وهذا المخرج لصوتي العين والحاء. وضمَّ الخليلُ إليهما صوت الهاء، وجعله بعد الحاء. وحرفا هذين الصوتين يُميِّزان اللغات السامية من غيرها[1].

أ — ونطقُ صوت العين يتمُّ باندفاع الهواء من بين الوترين الصوتيين يهتز معه الوتران، وإذا اندفع الهواء بانفراج الوترين فجأة، وتبدّدَ الهواء في فراغ الحلْق، واللسانُ في هذه الحالةُ مُتراجع إلى الوراء قليلاً وسقف الحنك اللّين مرتفِع أثناء نفاذِ الهواء، سُمع صوتُهَا.

ب — استعمالها: وهي تُستعمل أصلاً وبدلاً.

١ — وقد أُبدِلت مِن الهمزة في لفظة «أأن» في لهجة تميم مثل: أعَن توسَّمت، أعن تغنَّت. وعُرِفت هذه الظاهرة بالعَنْعَنة.

وجاء عن الأصمعي في شاهد: لَأَلّني في: لعلّني. وغيرُ مُعْتلي في: مُؤْتلي.

وذُكِر عن اللِحياني: رجل عِنْزَهْوٌ في: رجل إنزهو. ورُوي عن الأصمعي: أعديته في آديته أي قويته. وعدَّهما ابنُ جني غيرُ مبدلين بحُجّة ظهور الواو في «آديت» لاماً. وهو مثل: يَسروع وأُسروع، ويَلمم وأَلمم، ويَسر وأَسر. وهذا كله لهجتان.

٢ — وأُبدلت مِن الحاء في مثل «عتى حين» أي حتى حين. وفي ذلك خبر

---

(١) انظر دروس في علم أصوات العربية ١١٦.

ذكره ابن الأنباري[1]. وإبدالُها حاءً لهجة لهُذيل. وفي رُبَح بدلا من رُبَع وهو الفصيل، وذُبع بدلا من ذُبح».

٣ـ وأُبدلت مِن الغين فيما حكاه ابنُ الاعرابي عن أبي فَقْعَس في صفة الكلأ: خضَع مضَع مِن مضغ. وفي مثل: لعَن بدلاً مِن لغَن.

٤ـ وسُمع إبدالها اليوم مِن القاف. لهجة لبعض أهل ريف مدينة حلب إذ يقولون: سَلَع، عَلي في سَلَق، قَلي.

ويلاحَظ على أكثر هذه الظواهر أنها لجهات كما هو لهجة هُذيل في «حتى» وما ذهب اليه ابن جني في: عِنزَهو وإنزهو، وأعديته وآديته. وبعض ذلك إنما جاء على ما هو عليه للمجاورة الصوتية وتخلُّصاً مِن توالي الأمثال كما في العَنعَنة.

حـ ـ ما رُوعي فيها: وقد روعي التحفُظ بلفظِهَا، ولا سيما إذا تكرّرت مثل: لا تقَعْ على الأرض، طُبع على. وذلك لصعوبة اللفظ بحرف الحَلْق مكرّراً.

وإذا سكنت وجاء بعدَها غينٌ مثل: دَع غُلَامي، لا تُضِع غايتي. وذلك دفعاً لاندغام العين في الغين لِقُرب المخرجين. وكذلك الأمرُ إذا سكنَت وجاء بعدَها هاء مثل: لا تطِعْه، بايعْهُن، بِعْهَا، وتركُ التَحفُظ بإظهار صوت العين وإظهار الهاء يُقرِب العين من صوت الحاء؛ وذلك أن مخرج الهاء مُتقدِم على مخرج العين. وقد وقع مثل ذلك في: يروع عندنا، حَسَل، خدح، حَبابه في: يروحُ عندنا، عسَل، خدعَ أحبابه.

د ـ ويُشبه صوتُهَا في الطبيعة مِن إفراغ صفيحة زيت ممتلئة بإمالتها إلى جهة فمِها ميلاً شديداً. ومِن غَمْس كأس متوسطة مقلوبة في وعاء ماء ممتلىء ثم إمالتُه ليخرج هواؤه فيُسمع صوتها في الفقاعات المتصاعدة.

---

(١) انظر إيضاح الوقف والابتداء ١٣.

هـ — فصوتها مجهور شديدٌ بعضَ الشيء وهو النظير القوي لصوت الحاء.

١ — ويُنطق صوت الحاء باندفاع الهواء مِن الصدر تجاه وسَط الحلق دون عائق كبير ويكون الوتران الصوتيان مُسترخيين كثيراً فلا يهتزان شيئاً. ويتراجع اللسان إلى وراء ويتسع فراغ الفم ويرتفع سقفُ الحَنك اللين قليلاً.

ب — استعمالها: فهي لا تُستعمل إلا أصلا. وتُبدل ولا تزاد إلا شذوذاً.

١ — فقد أبدلت مِن الخاء في مثل: يَنفَحْن مَنفوحاً أي منفوخا وذلك في شاهد رُوي عن ابن الأعرابي. وفي شاهد لرؤبة: السِنْح بدلاً من السِنْخ.

٢ — ورُوي عن البغداديين وابن السراج إبدالُهَا مِن الثاء في قول تأبّط شرّاً: كأنما حثثوا، في: حثحثوا. وردَّه ابنُ جِني وأبو علي ببُعد المَخْرج.

٣ — وأُبدِلت مِن الهاء في لهجات ذُكرت مثل: طهَر في طَحَر، بمعنى أبعَدَ ونحّى. ومَده في مدَح. وسبب ذلك إما الشذوذ وإما أنه لهجة، وهو قليل.

جـ — ما روعي فيها: حرَصوا على نُطقها غير مفَخَّمة بعدَها ألفُ كما تُحكى في الحروف هكذا: فا، نا، حا.

وبيَّنوا لفظَها خشيةَ خفائِها أو إدغامها قبلَ العين مثل: لا جناحَ عليك، زُحزح عن الناس، المسيح عيسى.

وزادوا بيانَهَا وهي ساكنة لإمكان إدغامها مثل: اصفَح عنه، اصلِح عباءتك.

ويُبيَّن لفظُهَا بعدَهَا حاءٌ لإمكان إدغام المثلين مثل: لا براحَ حتى، الفلاح حمَد.

وتُبيَّن وهي ساكنة بعدَها هاءٌ خشية الإدغام مثل : جَنِّحه ، إذْبَحه ، صحِّحه .

د ــ ويُشبه صوتُهَا في الطبيعة شقٌّ قطعةٍ من القماش الجديد بمِقص بسُرعة .

هـ ــ فصوتُهَا مجهور ضعيف احتكاكي ، وهو نظيرُ العين الضعيف.

٣ــ مخرجُ أدنى الحَلْق للفم

لهذا المخرج صوتان هما الغين والخاء على هذا الترتيب الذي رآه ابن جني والزَمخْشَري وابنُ يعيش وهو خلافُ سيبوَيه.

ويُفهَم مِن كلام ابن جنّي وكلام بعض المُحدثين مِن المستشرقين الباحثين أَنّ صوت الغين قليلٌ في العربية[١]، بل إنه نشأ عن العين في اللغة العربية ومِن أمثلة حُجّتِه في ذلك لفظ «عَبَث» و«غبَث» وهما بمعنى مزج وخلَط، و«عَسَر وغسر» بمعنى ألحَّ على مَدينِه و«عميق وغميق» بمعنى بعيد القعر[٢].

أ ــ ويتمُّ نُطق صوتِ الغين باندفاع الهواء مِن الصدر حتى ينقَطِع بآخر سَقْف الحنك اللين، ويكون اللسانُ متأخراً قليلاً في الفَم ومنخفضاً إلى قَعْرِه والفمُ مفتوحاً ويمرُّ الهواء دون عائق ويهتزُّ الوتران الصوتيان وتتشنَّج اللهاةُ متذبذةً عند حدوث الصوت. وهو قريب من صوت "g" في اللغة الإنكليزية لكن هذا مهموس.

ب ــ استعمالها: : وهي لا تُستعمل إلا أصلاً.

١ ــ وتُبدَل مِن الخاء في بعض الألفاظِ مثل: غَطرٌ في: خَطَر، اسلَغ غَنمَك في اسلخ غنمَك. وفَرَّخا في: فَرِّغْهَا. ويَخسِل في: يَغسِل، وخَسيل في: غَسيل. وهذان المثلان الأخيران يُسمعان اليوم في دمشق وتونس وتلمسان.

---

(١) انظر سر صناعة الإعراب ١/ ٢٤٧.

(٢) انظر دروس في علم أصوات العربية ١١٣.

٢ــ وتبدل قافاً كما يُلفظ صوت" g " في اللغة الإنكليزية في لهجات عدة مناطق من البلاد العربية منها غربي الصحراء الجزائرية والسودان وبعض مدن فلسطين، مثل: الغادر في: القادر، والغائد في القائد، وغليل في قليل، وغِفل في قِفل.

٣ــ وتبدل مِن العين، وجاء ذلك في شاهد، مثل: صقَغ في: صقَع. والغُلام بمعنى الصَقْر في: الغلام.

٤ــ ورُوي بالعين والغين عدة ألفاظ هي لهجتان، مثل: لغَنّي ولعَنّي في: لعل وارمَعلّ وارمغَلّ، وعلَثَ وغلثَ، والنُشوع والنُشوغ.

جـ ــ ما روعي فيها: بيانُهَا بعدَها عينٌ أو قافٌ لقُرب المخرجين مثل: لا تزغ قلوبنا، أفرِغ علينا، تَزيغ قلوب.

وإذا تكررت زيد بيانُهَا خشيةَ الخفاء أو الإدغام مثل: ابتغ ِ غيرَه، بلِغ غيباً.

وإذا وقع بعدَها وهي ساكنة صوت الشين بُيِّنت لئلا تقترِب من لفظ الخاء لاشتِراك الشين والخاء في الصِفات وبُعدِ الغَين مِن الشين، مثل: لا تغشَ مجلساً لا نفعَ فيه، لم يغْشَنا الليل بعدُ.

د ــ ويشبه صوتها في الطبيعة صوتُ غلَيان الماءِ وغيرِه مِن السوائل تندفع فقاعاته مِن هنا وهناك في الوعاء.

هـ ــ فصوْتُهَا لَهوي مجهور رِخْو مُسْتعل، وهو النظير القوي للخاء.

أ ــ ويتِمُّ صوت الخاء بما تمّ به صوت الغين لكن الهواء فيه أسلَسُ في طريقه، وذبذبته اللهاة أقلُّ، واهتزازُ الوترين أشَدُّ قليلاً.

ب ــ استعمالها: وهي مثل الغين، لا تُستعمل إلا أصلا.

١ــ ولكن ذكر إبدالها جاء في بعض البلاد التي دخلها العرب واستوطنوها كمالطة، مثل: حدَم في: خدَم يخدُم، وحَمسةْ في: خمسة، وحُك في: أخوك.

٢ــ ونفى ابن جني بدَليَّتها مِن الحاء فيما رواه أبو زيد من: حمَص الجرحُ يحمُص حُموصا: في خمص يخمُص خموصا، إذا ذهب ورَمُه. وعُدَّ ذلك لهجتين ومادتين كلٌ منهما مستقلة.

جــ ما روعي فيها: وقد روعي تفخيمُها وتغليظُهَا وبعدَها ألف كما تُحكى في الحروف: طا، صا، خا. وكذا في: خاصم، خالِدٌ، خائف.

ويلاحَظ تشديدُهَا في عبارة: مَن الأخ، وكذا الباء مِن: الأب. وهو خطأ، والأجدر أن تُخفَّف.

د ــ ويشبه صوتَها في الطبيعة صوتُ قَشْرِ لحاء غُصْن جافٍ وما أشبَهَ.

هــ فصوتها لَهوي مجهور رخو مُستْعمَل، وهو النظير الضَعيف للغين.

وبنهاية الكلام على صوت الخاء من هذا المخرج نكون قد استوفينا بحثَ ثلاثة مخارج هي مخارج الحلق. ونبدأ البحث في مخارج الفم الثلاثة عشر. ولكن نتابع ترتيب مخارج الأصوات أي نعطي أول مخارج الفم رقم المخرج الذي يلي آخر مخارج الحلق إيثاراً لاتصال ذكرها متوالية.

٤ــ وتُسمع في صوت الكاف في بعض لهجات مدن فلسطين، وقد ذكر ابن سينا أنه سمعه في زمانه في مثل: رَكْبَة ورَكَبَة، وكَال، وكَلْب في: رَقْبَة، ورقبة، وقَال، وقَلْب.

٥ــ وسُمع صوتها في صوت الغين كما رأينا في السودان وبعض مدن فلسطين وسورية في مثل: غادر، يَغْدِر، غَليل، غِفل في: قادر، يقدر، قليل، قفل.

٦ــ وسُمع صوتها في صوت العين في ريف حلب الشمالي الغربي في مثل: سَلِع، عَلِي، في سَلِق، قلي.

٧ــ ويُسمع صوتها في صوت الهمزة اليوم في مدن بلاد الشام ومصر في مثل: آل، آلو، أبل، عِلء، ماء، عَئَل، لأب في: قال، قالوا، قَبْل، عِلق، ماقَ، عَقَل، لقَب. وذلك في اللهجة العامية فقط.

وتُعدُّ بعض هذه الظواهر مِن اختلاف اللهجات ولا سيما صوتا القاف الذي يخرج أحدُهما مِن أقصى اللسان الحنكي كما ذُكر في حدوث صوتها في الفقرة «أ» والذي يشبه صوت g الإنكلزي، فهما مذكوران على السواء عند اللغويين القدماء فيما وقفوا عليه مِن حكاية صوتها في اللهجات.

وتعليل الثاني منهما يرجع إلى صوت الحركة ولا سيما إذا كانت كسرةً أو فتحةً مُمالة كما هو ظاهر في لهجة البدو، وفي لفظ قُرَّاء القرآن الكريم اليوم[1].

جــ ما روعي فيها: وقد حرَصوا على تفخيمها كما تُحكى في الحروف مثل: طا، صا، قا. وقام، قاد، قاس.

وفرَقوا بين صوتِها وصوتِ الكاف في تَبيين صوتيهما إذا وقعت قبلَ الكاف أو

---

(١) انظر دروس في علم أصوات العربية ١١١ والأصوات اللغوية ٨٨.

بعدها خشيةَ أن يتجاوز صوت إحداهما الأخرى مثل : فوق كل ، خلقكم ، رزقكم ، لكناك قادر ، لك قول .

وأدغموها ساكنةً قبلَ صوت الكاف في الكاف مع إظهار استعلائها وإطباقها مثل : نخلقكم ، ألم يلحقكم .

وحرَصوا على إظهارها إذا تكررت مثل : يشّقق ، أفاق ، قال ، طرائق قِددا .

د ـــ ويشبه صوتَها في الطبيعة صوتُ شَقّ جِسْم وقلعِه ، وصوتُ الغراب .

هـ ـــ فصوتُهَا أقصى لِساني مهموس مُسْتعْلٍ مُقَلْقَل .

٥ــ المخرج اللساني الحنكي القَصِي

وهو مخرج صوت الكاف. وقد ميزتُه بهذا العنوان للفَرق بين صوتي الكاف والقاف لشدة قربهما. ويُقاس الفَرْق بينهما بالفَرق بين الراء واللام، إذ أن اللام أدخلُ في ظهر اللسان مِن الراء. بل الفرق بين الكاف والقاف أقَل.

أ ــ ويتِمُّ حدوثها بمثل حدوث القاف لكن اللسان معها أقلُ تراجُعاً وارتفاعاً، وإن لامس اللسانُ الحنكَ اللين. ويُسمَع صوتها بانفراج اللسان عن موضعه ونفوذِ الهواء وتشبه صوت "K" في الإنكليزية في مثل لفظ : key, keep, ask, أو صوت "C" الإنكليزي أيضاً في مثل لفظ : come, cut, electric

ب ــ استعمالها : لا تُستعمل إلا أصلاً.

١ ــ فقد ذُكر إبدالها في فصحى التُراث من التاء، وجاء مثل ذلك في لهجة سُحَيم عبد بني الحَسْحَاس قوله : أَحسنْك، أي أحسنْتَ. ورُوي مثل : عصيْكَ في : عصيت.

٢ ــ ورُوي إبدالها بالجيم التي يُشبه نطقها لفظُ صوت "S" في اللغة الإنكليزية في الألفاظ : pressure, assure, sugar في مثل : تَشافر، في كافر. وهو مسموع اليوم في لهجة أهل حوران وفلاحي الأردن مثل : تشَلْب، تشامل في : كَلْب، وكَامل.

٣ــ وأبدل موضعها أو أُلحق بها صوت الشين أو صوت السين في الوقف، وعُرف ذلك في اللهجات القديمة بالكَشْكَشة والكَسْكَسة[1]، ولا سيما إذا كانت الكاف مكسورة. وهي لهجة لم تزل حتى اليوم في حوران وريف الأُردن وذكرها لي صديق أمضى وقتاً في نجد ولا سيما الكَسْكَسة. وكانت في الماضي من خصائص لهجة تميم وأسَد ورَبيعة. وذلك في مثل: عندَشِ، ثوبِشِ، لأمِش، عَلِيش، كتابكِسْ، ثوبُكِسْ، بيتُكِسْ. وربما في مثل: عندكِش، ثوبُكِش في: عندَكِ، ثوبُكِ، لأمِّكِ، عليكِ، كتابُكِ، بيتُكِ.

٤ــ ورُوي في لهجة: رجل كُح، وامرأة كُحة بمعنى: قُح وقحة. أي خالص من اللؤم. وهو مثل: جدف، وجدث. فهما لهجتان.

٥ــ وتُستعمل حرفَ جرٍ واسماً، وبمعنى «على» في مثل جواب مَن سُئل: كيف أصبح؟ «كخير» أي: على خير.

٦ــ وتُزاد للتأكيد مثل قوله عز وجل: «ليس كمثله شيء» أي: ليس مثله شيء. ومثل قول رؤبة: لواحق الاقراب فيها كالمَقق. ومعنى المقق الطول.

ويلاحَظ على أغلب ما ذُكر في إبدالها أنه لهجات غير ما في قول سُحَيم فربما كان ضعفاً في نُطقه، وأنَّ تحولها في لهجتي الكَسْكَسة والكَشْكَشة وفي لفظها بصوت "S" الإنكليزي إنما هو لتأثير الحركات المجاورة لها ولا سيما الفتحة المُمالة خفيفة أو شديدة والكسرة، فلهذا شبيهٌ في بعض اللغات الأوربية كالإيطالية والفرنسية إذ تحول اللفظ اللاتيني فيها إلى مثل ذلك، في: Cera تشيرا Cener تشِنري cire سير Cender «ساندر» في Ceram و Cinerem الإيطاليتين.

(١) انظر المجالس ٨١، ١١٦.

جـ ـ ما روعي فيها : بُيِّن لفظها غيرَ مُغلَّظة كما تُحكى في الحروف : قا ، قا ، كا ، وكانوا ، كالوا ، كامل.

وأظهر لفظها مُكرَّرة في كلمة أو كلمتين خشية الإدغام مثل : ككل ، لك كل ، سلكك نسبحك كثيراً ، إنك كبير.

وبُيِّنت بعدها قافٌ لقُرب المخرجين مثل : لكَ قل ، أهلك قبل.

وتُبيَّن إذا وقعت في لفظة أُلِف أن تُبدَل فيه بقاف مثل : وإذا السماءُ كُشطت. وهي في قراءة أخرى : قُشطت. ومنه أيضاً : كَرَب وقَرَب.

د ـ ويشبه صوتَها في الطبيعة صوتُ العصا إذا ضُرب بها وجه مِن الورق غليظ ، وصوت الماء في «النارجيلة».

هـ ـ فصوتها لِساني حَنكي قصِي مهموس شديد ، وهو نظير الجيم في لهجة أهل القاهرة التي تشبه أحد أبرز صَوتي القاف الملاحَظ في نُطْق البدو.

٦ — مخرج وسَط اللسان ومقابله مِن الحنك الأعلى

ويُعرَف موضع هذا المخرج أيضاً بـ « شَجْر الفم » أي مُنفرَجُه. وتوصف أصواته به. ويسميه بعض الباحثين بـ الأدنى حَنَكي. ويَخرُج منه ثلاثة أصوات هي: الجيم والشين والياء اللينة.

أ — صوت الجيم: هو أول أصوات هذا المخرج. ويتِمُّ حدوثه باندفاع الهواء حتى موضع خروجه، حيث مقدَّم اللسان مرتفِع قليلاً نحو سقف الحنك المخطَّط، بحصْر النفَس بشيء من قوة ويتذبذب الوتران. فإذا تباعد اللسان عن موضعه مِن الحنك نفَذ الهواء وسُمع صوت الجيم التي نسمَعها في نُطق مدن أهل بلاد الشام وتونس، كما هو ظاهر في نُطْق الكلمات الإنكليزية التالية.

gander, gene, general, Jaket, jazz

ب — استعمالها: وقد استعملت اصلا وبدلا.

١ — وليس في استعمالها أصلاً غيرُ ما لحِقها مِن تطور مُلاحَظ بحسَب موضعها مِن اللفظ وما جاورَها من أصوات. ويتبين ذلك فيما ذُكر من ظواهرها اللهجية.

٢ — ويمثِّل إبدالَها ظاهرة قديمة، وهي في موضع اللام مِن اللفظ أو بآخره غالبا. تُبدَل مِن الياء في مثل: عَلِجّ، العَشِجّ، البُرْنجّ، بالصِيصِبج أي: عَلِيّ، العَشِيّ البُرْنِيّ، الصيصية، أي قرن البقرة، وذلك في شواهد ذكرها سيبويه. وذكر أبو عمرو أيضاً: فُقَيْمِجّ، مُرِّج، الصهابجا اي: فُقَيمي، مُرِّي، الصهابي مِن الصُهبة وهي لهجة لبعض تميم وبني سَعد وقُضاعة، وتُسمى العَجْعجة. وذكر

الفرّاء : حُجتِج ، بِجّ ، وفرنج أي : حجّتي ، بِي ، وفَرتي . ومثل ذلك : أمسجتْ .
أمسجَا أي : أمسيت وأمس. ورُوي عن العرب : قرون الأجّل أي الأيّل .

حـ ــ ظواهر لهجية : وفي لفظ صوت الجيم اختلاف يتمثَّل في ثلاثة أصوات أحدها وهو الأكثر الذي تقدَّم الكلام على حدوثه. وثانيها يتمثل في نطق مناطق شمال الجزيرة العربية وأهل اليمن مثل : كمُل ، ركُل. أي : جمَل ، رجُل . وثالثها يتمثَّل في نُطق بعض مناطق مصر ولا سيما الوجه البحري ومواطن البداة وأرياف فلسطين ولا سيما جنوبها اتجاه غزة ، مثل : قَبْل ، نَقْم ، قَوْ ، أي جبل ، نجم ، جو.

ولم تزَل ظاهرة إبدالها ياء في نطق قبائل شمالي الجزيرة العربية والبادية السورية ، مثل يَبْهة ، رَيل ، حايِب ، أي : جَبهة ، رجُل ، حاجِب . وهي في كل أنواع نُطقها تمثِّل صوتاً مزدوجاً ، ويمكن ذكرها بحسب كثرة شيوعها : دْجْ ، قْ يْ ، ي.

وكان نطق صوتها إلى ما قبل خمس سنوات في مثل هذه الكلمات : الجمَل ، الجبر ، الجد ، كما هو مذكور في وَصفِ حدوثه. وبات اليوم مهموساً جداً ، ولا تظهر لام التعريف عندَ نُطقها ، وصوتها معطَّش ، وهذا يتفشّى اليوم على ألسِنة التلاميذ والطلاب أكثر مِن سواهم.

ويمكن أن نلاحظ في إبدالها من الياء في الأمثلة المذكورة شيئاً يُذَكِّرنا بالهمزة في الأمثلة التي أوردها سيبويه وهي : رجلأْ ، حُبْلَأْ ، يَضربُهأْ . وبالشين أو السين في ظاهرتي الكَشْكَشَة والكَسْكَسَة . فقد رأيت في هذه الأمثلة قصْدَ بيان اللفظ عند الوقف عليه . وإبدال الجيم من الياء وهذه صوت ضعيف بمدِّهِ ولينه يبين اللفظ أكثر ويوصح آخره وقفاً . بيد أن نُطقها أي الجيم ياءً في بعض اللهجات المروية واستمرار هذا النطق إلى اليوم يُقوِّي الرأي بأنها لهجة ايضاً.

د ــ ما روعي فيها : وأكثر ما روعي في نطقها إظهارُهَا والتحفُّظ ببيانها ، فإذا

سكنت وجاء بعدها زايٌ مثل : تجزي ، يجزم ، الرجز . وترك بيانها والحرص عليه يصيرها زاياً للمشابهة بينهما . ويراعى إخراج الزاي أيضاً كيلا تقرب الجيم من صوت الشين لضعف هذا ومسارعة اللسان إلى النُطق به .

ويسارع اللسان إلى نطق صوتها شيناً إذا سكنَتْ وبعدَها تاء . فلا بد من إظهار الجيم والتحفُّظ ببيانها ، وصوت التاء مهموس يتلاشى الصوت به في سرعة ، فيضعُف صوت الجيم ويقرُب من الشين ، مثل : خرجت ، يجتبي ، مجتمع .

وكذلك إذا أتى بعد الجيم الساكنة دال لأن هذه أخت التاء في المخرج ، فإذا لم يحرِص على تَبيين الجيم صارت إلى الشين ، مثل : وجد ، المجد ، نجد .

وتُبيَّن مُشددة ومكرّرة ، وكذلك إذا أتى بعدَها وهي مشدّدة أو مكرّرة حرفٌ مشدد خفي تُبيّن هي ويُبيّن الحرف ، مثل : تحاجّون ، لجَّج ، سجادة ، كيف توجّهه ، لا تُجهّله .

هـ ــ ما يُشبهه في أصوات الطبيعة . ويُسمع صوتها الذي خصصناه بوصف حدوثه في إحدى آلات النِجارة التي تجلو ألواح الخشَب بقَشْر طبقة رقيقة منها إذ تُمرَّر بين اسطوانتيها الآليتين فتُصدِر هذا الصوت الذي يُسمع معَه عِدة أصوات متتابعة للجيم ، ويُسمع صوتها المشدّد في سقوط قَطْرة الماء في ماء راكد فتغوص فيه .

و ــ فصوتها شَجْري سِنْخي مجهور شديد . ويُعد صوتها الذي يُسمع في نطق أهل مصر ولا سيما الوجه البحري وبعض مناطق البدو النظير المجهور لصوت الكاف المهموس .

٢ ــ وصوت الشين هو ثاني أصوات هذا المخرج على الترتيب المذكور .

أ ــ ويتمُّ حدوثه باندفاع الهواء حتى موضعه مِن المخرج وطرف اللسان قريب من اللِثَة وسَطْحه مُحدَّب في انبساط يقابل سقف الحنك ، والنفَس لا يحصُره شيء

بل ينفُذ من جانبي اللسان في صوت معروف يختص به حرف الشين مِن بين كل حروف العربية ، ويسمى تَفشّياً ، وتوصف به أحرف عربية أخرى ، لكنها ملحقة في هذه الصفة بصوت الشين.

ب ــ استعمالها : ولا يُستعمل هذا الصوت غير أصل وبدل.

١ ــ فقد ذُكرت بعض الشواهد في إبدال السين منها ، مثل : جعشوش ، في جعسوس أي القميئون القليلون من الناس.

ورُوي مثل : تَنَشَّمت وتنسَّمت ، وذكَر ابن جني أنهما لهجتان. ومعنى اللفظة بالشين ابتدأت بطَرَف مِن العِلْم ولم أتمكن فيه.

٢ ــ ورُوي إبدالها من الجيم ، مثل : مُدْمَش في مُدْمَج.

٣ ــ وأُبدلت من الكاف في الوقف حِرْصاً من أهل هذه اللهجة على البيان في كاف المخاطبة مثل : عَلَيْش ، ومِنْش ، وبِش.

وربما جعلوها كذلك في الوَصْل كما ذكر ابن جني في شواهد ، مثل : فعيناشِ عيناها وجيدُش جيدُهَا.

ومثل : أبغيش ، ولا ترضيش ، أبيشِ ، وتُنَبِّيش ، فِيش ، الدِيش ، أي : أبغيك ، ولا تُرضيك ، أَبيك وتُنبِيك ، فِيك ، الديك.

٤ ــ وتُزاد بآخر الألفاظ المنتهية بكاف المخاطبة زيادة في بيان الكاف وَقْفاً مثل : بكِش ، أعطيتكِش. وعُرفت هذه الظاهرة بالكَشْكَشة[1].

جـ ــ ظواهر لهجية : وأوضح ظاهرة في نُطقها اليوم في بعض اللهجات في

---

(١) انظر في اللهجات العربية ١٢١.

ريف مصر وبعض أحياء دمشق أن تُبدل مِن السين في كلمة الشمس إذ تنطق السين شيناً أو تُبدل السين منها في الكلمة ذاتها فتنطق سَمْس. ويَعُدّ كانتينو هذه الظاهرة قديمة في اللغات السامية[1]. وهذا ما نجد له أثراً في العِبرية التقليدية والفصحى في كلمتين هما: شِمِش شبع أي: سمش، وسَبْع، عدداً.

وتُبدل منها السين في لهجة مسموعة حتى اليوم في كلمة: سجر، سجرة، أي شجر شجرة. وكذا في كلمة: سجيع أي: شجيع من الشجاعة.

ويمكن أن يكون نُطق لفظِ الشمس لهجة ولا سيما إذا أُبدلت الشين من السين الثانية ثم إذا أُبدلت السين منها في الأولى. وأما نطقها سيناً في الموضعين وكذا كلمة سَجَر وسَجرة فهي تطور ضيق مرجِعُه الى البيئة وخصائصها المختلفة.

د ــ ما روعي فيها: الحِرص على تَبيين صِفتها من التَفَشّي عند النطق بها، ولا سيما إذا وقعت بعدَها جيمٌ مثل: شجر، شجاع، أشجار، لأنها مِن مخرج واحد، والشين ضعيفة رُخوة والجيم مجهورة شديدة.

هـ ــ ما يشبه صوتَها في الطبيعة: ويسمع صوتها في تدفُّق الماء بشِدة من أُنبوب ضيّق، وفي صَبّ قليل من الماء في مِقْلى رُفِع عن النار لِوَقْته وبهِ أثُرُ زيتٍ كان يَغلي.

و ــ فصوتها شَجْري احتكاكي رخو متفَش.

٣ ــ وصوت الياء هذه التي تُعرف في العربية بأحد صوتي حرفي اللين، هي ثالث أصوات هذا المخرج.

---

(١) انظر دروس في علم أصوات العربية ٩٨.

أ ـــ ويتمُّ حدوثها باندفاع الهواء حتى مَوضِعه مِن المخرج نفسه ، وطرفُ اللسان يوشك أن يمسَّ أعلى الأسنان السُفلى الأمامية والحنكُ اللين مرتفع قليلاً ، والوتران الصوتيان يتذَبذبان ، كما يتبيَّن ذلك في الكلمات الآتية : كيف ، أين ، بَيْت ، وفي الألفاظ الإنكليزية : child, find, time, fly, yeild, yard, yellow

ب ـــ استعمالها : وتستعمل أصلاً وبدلاً وزائدة .

١ ـــ وتُبدل مِن حروف الألف ، والواو ، الهمزة ، الهاء ، السين ، الباء ، الراء ، النون ، اللام ، الصاد ، الضاد ، الميم ، الدال ، العين ، الكاف ، التاء ، الثاء ، الجيم.

فإبدالها من الألف : في مثل : حِملاق حَماليق ، مِفتاح مفاتيح ، ومِن الواو في مثل : ميقات مِيزان لأن أصلها موقات ، موزان ، لسكون الواو وانكسار ما قبلها. فإذا تحركت وزالت الكسرةُ صحَّت الواو مثل : مواقيت ، موازين . ومِن الهمزة في مثل : ذيب ، بير في : ذئب ، وبئر ، فالهمزة ساكنة وقبلها كسرةٌ ، وقلبُهَا ياءً تخفيفٌ. ومثلُهَا المفتوحة المكسورُ ما قبلَها مثل : لِيُقريك ، مِيَر وأصلها : لِيُقرئك ، ومِئر. وكذا وقوع الهمزة بعدَ ياءٍ صيغة « فعيل » وياء التصغير مثل : خطيّة ، نُبي ، أُريس ، أُفيس ، وأصلها : خطيئة ، نبي ، أُرَيْأس ، أُفيأس ، تصغير رأس وفأس. ومِن الهاء في مثل : دَهْدَيت ، صَهْصَيت ، وأصلها دهدَهْت ، صهصَهت . ومِن السين في مثل : سادي وخامي ، وأصلُها : سادس وخامس. ومن الباء في مثل : الثعالي ، لَبيتُ ، وأصلها : الثعالِب ولَبَّبْت ، وهذه مثل : مَديت في : مددْت. ومِن الراء في مثل : شيراز ، قيراط ، وأصلها : شِرّاز وقِرّاط . ومِن النون في مثل : إيان دينار ، وأصلها : إنسان ، دِنّار. ويجوز أن يكون بدلاً لازماً مثل : عيد أعياد ، ميثرة مياض ، ومنه قراءة : لم يتسنن. ومِن السلام في مثل : أمليت ، وأصله : أملّ. وفي نص القرآن : تُملى عليه ، فليُملل. ومِن الصاد في مثل . قَصّيت أظفاري ،

وأصله : قصصت ، غير أن ابن جني يراه مِن الأقاصي. ومِن الضاد في مثل : تقضّى من الانقضاض ، وتقضيت من القِضّة . ومِن الميم في مثل : يأتمي ، تكمّوا ، وأصلها يأتّم وتكميوا ، وهو مِن الكُم . ومِن الدال في مثل : التَصدية وهو مِن : صَدّ أصُد ، وهو مثل التَحلّة والتَعلّة وأصلها : التحللة والتعللة . ومن العين في مثل : تَلعيت ، وأصلها : تلعَعْت . وهي مثل : تظنيت : تظنَنْت . ومن الكاف في مثل : مكاكي وواحده مكّوك . وهو مثل : سَمّور سمامير . ومِن التاء في مثل : ايتصلت أي اتصلت . ومن الثاء في مثل : الثالي ، وأصله الثالث . ومِن الجيم في مثل : ديّاج وأصله دياجيج .

٢ ـــ وتُزاد لمعنى غالباً ولمبنى قليلاً . وتأتي هذه الزيادة في أول الكلمة مثل : يقوم ، يثني ، يسروع . وفي ثانيها مثل : حَيْزبون ، صَيْرف . وفي ثالثها مثل : كِدْيون ، كُليب ، وفي رابعها مثل : مِنديل ، دِهليز . وفي خامسها مثل : عَنْتَريس ، اسْلَنْقَيت . وفي سادسها مثل : عُنَيْكَبيب . وقراءة : عَباقريّ حِسان .

وتُزاد للتثنية مثل : للزيدين في الصحيفتين . وللجماعة مثل : على المعلمين ، للفلاحين . وللتأنيث وياء الضمير في المضارع مثل : تدرسين ، تسمرين . وللإشباع مثل : الصياريف ، الدراهيم ولجمع دانق وخاتم مثل : دوانيق ، خواتيم . وبعد كاف المؤنث إشباعاً مثل : عليكي ، خالكي في : عليك ، خالك . وللإطلاق في القوافي المجرورة مثل : منك بأمثلي ، وكأنْ قَدي . وبعد لام المعرفة عند التذكر مثل : قام ألي ، يُريد : الإنسان . وكلُ ساكن يُوقف عليه يُكسر ، وتُشبع كسرته للاستطالة والتذكّر مثل : مني ، إذي ، في : مَنْ ، إذْ . وهو من إجراء الوقف مَجْرى الوصل . ومثله الوقف على ياءٍ مكسور ما قبلها فتُلحِقها ياءً أخرى مثل : دفتري ي في : دفتري . ولمعنى الاسم مثل : غلامي ، كتابي . وهي تُفتَح لِتقويتِها لأنها حرف واحد ، وتُسكن استثقالاً لِلحركات . وللنَسَب مثل : دمشقي ، قاهري . وفي

الاستفهام عن النكرة المجرور وقفاً مثل : مِني. بعد قول : مررت برجل. وهي مثل التشديد وقفاً في مثل : بكرّ.

٣ــ وقد تُحذف في مثل : العُطامس ، حام أي العطاميس ، حاميم. وتُحذف وهي أصل مثل : وأخرى تُعطِ بالسَّيْف ، وأخو الغوانِ أي : تعطي ، الغواني. وتُحذف وهي زائدة مثل : مررت به ، عليهم أي : بهي ، عليهمي.

٤ــ واستعملت مضعفة في مثل : يين ، اسم موضع. ويَيَّتُ ياءً حسنة ، أي كتبت ياءً حسنة.

حــ ظواهر لهجية : فقد تقدَّم في صوت الجيم إبدال الياء منها ولا سيما ظاهرة العَجْعَجة ، ونُطق بعض البداة مثل : يَبْهة في : جَبْهَة ، وحايِب في : حاجِب ، ومثل : يَربوع في جَربوع. وأزوَد في أَزيد ، وعُوَينه في تصغير : عين.

ولكن أوضحَ التَطورِ إنما هو في نُطق صوتها في مثل هذه الألفاظ : بِيت ، بِيض ، وقد تحوَّلت إلى حَرف مدٍّ ولين بعد أن كانت حرف لين.

ولهذا الصوت نُطقان أحدهما يُمثِّل استعماله أصلاً. وثانيهما يُمثِّل استعماله حركة إما هي أصلية : أي غيرُ منقلبة ، وإما هي غير أصلية أي مُنقلبة. هذا فضلاً عن الاختلاف اللهجي الذي تقدَّم منه أمثلة في أنواع الاستعمال.

وهي في حالة انقلابها تُمثِّل إحدى الحركات في اللغة العربية التي لا تَنحصِر في الحركات الستِ كما سمّاها ابن جني وغيره : الألف والواو والياء والفتحة والضمة والكسرة ، بل إن هناك حركات أُخَر تَنْشأ عن هذه ، لا بدّ للبحث في أصوات اللغة العربية مِن أن يستخلصها ويعيِّنها ويناقشها ثم يُصنِّفها. ومثل هذا العمل يُمكن أن يسَهِّل دراسة اللهجات التراثية والمعاصرة التي لم تنبَتّ مِن الماضي على نحو دقيق ومفيد.

د ـــ ما روعي فيه : وقد أوجبوا لفظَها مرقّقة بعدَها ألفٌ كما تُحكى في الحروف : تاء ، ثاء ، واو ، ياء ، مثل ، يابس .

وبيّنوها مشدّدة متطرفة ومتوسطة لِثِقَل التشديد فيها ، مثل : إيّاك ، الخيّام ، القيوم ، فتيّ ، وصيّ .

وحَرَصوا على بيانها مشدّدة وقبلَها مشدّدٌ لئلا ينشَغل اللسان بالمشدَّد الأول عن الثاني مثل : السيّئات ، الذُريّات ، الصُيّاغ ،

وتحفَّظوا في إظهارها وبيانها وهي مكرّرة وقد سكَن ما قبل الأُولى وسكَنتِ الثانية مثل : يستحيي ، يُحيي ، أَحيينا . أو تحرَّك ما قبلَ الأُولى ، مثل : الأُنثيين . أو تحرّكت الثانية وقبل الأُولى ساكن ، مثل : أن يحيي . وإذا تحركت الثانية وتحرّك ما قبلَها مثل : مَن حييَ .

وأوجبوا تخفيفَ حركة الياء إذا كانت حركتها الكسرة وقبلهَا فتح أو الفتحة وقبلها كسرة حتى لا يشوبُهَا تشديد أو نَبْر أو يسبِق اللسان بهمزة في موضعها مثل : لا شيِة ، وتعيَها ، وإما ترين .

وكذلك إذا كانت مكسورة وبعدَها ياء ساكنة ، مثل : أفَعَيينا .

وتُخفَّف كسرة الياء التي بعدها ساكن لالتقاء الساكنين أو لإعراب ، مثل : يدي الجبار صاحبي الشاعر ، بقاضي الحقّ ، بساعي الخير .

وتُبيَّن مكرّرة في كلمة أو في كلمتين وإحداهما مشدّدة مكسورة وذلك لِثِقَل التكرير والتشديد والكسر حِرْصاً على لفظها جميعاً ، مثل : أنت وليّي في كل حال ، وإذا حُيّيتم ، العَشي يريدون ، سبيل الغي يتخذوه .

وبُيّنت ساكنة قبلها كسرة خشية الإدغام ، مثل : في يوسف ، فاتبعوني يحببكم الله .

وتحفَّظوا في بيانها وهي لام الفعل متصلة بضمير الرفع لئلا يلحقَها شيء من كسر مثل : أرأيت ، أرأيتم ، ولا سيما في حال تخفيف الهمز لِسُرْعَة الكسر إليها حينئذ.

هـ ــ ما يشبهه صوتَها في الطبيعة : ربما كان صوت محرك كهربائي لبعض السيارات أو الطائرات أو بعض الآلات يمثّل صوتها الذي وصفْنا حدوثَه. وربما سمِع في بعض صوت أمواج البحر في حالة هدوئه.

و ــ فصوت هذه الياء شَجْري ، مجهور ، خفي ، ثقيل.



٧ــ مخرج حافّةِ اللسان وما يَليه من الأضراس «الانحرافي».

ويَقتصر هذا المخرج على صوت واحد هو الضاد. وقد جعلتْه العرب من خصائص لغتهم، ولهذا شاع قولُ «الناطقون بالضاد». بيد أن في نُطقها اختلافاً يطالِعُنا فيما أَلَّفه عِدة لغويين في هذا الصوت والفرق بينه وبين صوت الظاء[1].

أ ــ ويتِمُّ حدوثها بانحباس الهواء في موضِع الحرف حيث طرفُ اللسان حتى جانبه إما الأيمَن وهو الأكثر وإما الأيسَر قريب مِن الأضراس في الفك العلوي ولا سيما الضاحك والناب والقاطعة وطرف اللسان عند أصول الناب والقواطع، والوتران الصوتيان يتذبذبان بالنَفس المتردّد في موضع، وإذا ارتفَع اللسان مِن موضِعه سُمع صوت الضاد. وهو أشبَهُ في حدوثه بحدوث صوت "d" في اللغة الإنكليزية في مثل الألفاظ التالية:

Sudden, bed-time, dome, dine, deal

ب ــ استعمالها: فلا تُستعمل إلا أصلاً. وهي لا تُبدلُ ولا تُزاد.

وروي مثل: نضنض ونصنص. وعن أبي زيد مثل: تَضَوَّك وتصَوَّك. وهما أصلان.

---

(١) انظر زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء.

وذكر ابنُ جني في شاهد لفظ «غائض» بمعنى غائظ وهي عندئذٍ مبدلة. وقال بجواز أن تكون بمعنى ناقص، وحينئذ ليست مبدلة.

جـ ــ ظواهر لهجية: ذكر سيبويه في شاهد إبدال الطاء منها في لفظ «فاطْجَع» وعدَّها ابنُ جني في بعض اللهجات الشاذة.

وهي أحد أحرُف يُدغَم فيهن ولا يُدغمن فيما قاربَهُن وهي: الراء، والشين، والفاء والميم. ومِن ذلك قراءة يَرويها أبو شُعيب الشوسي عن اليَزيدي عن أبي عمرو ابن العلاء هي: «لبعشّأنهم» في: لِبَعْض شأنهم. بيدَ أن أكثر الرواة يَرفضونها.

ومالَ نُطقها في بعض البلاد العربية ولا سيما المدُن مثل القاهرة وبيروت إلى صوت الدال مثل: دَرْب، أَرْد، في: ضرْب، أرْض.

وتُسمع اليوم صوت الظاء ولا سيما في أرياف بلاد الشام وفي العراق مثل: ظبت، ظابط، ظالّ، في: ضبَط، وضابِط، وضَالّ.

وتُسمع في صوت الزاي المفخمة في لهجة أهل القاهرة: الزَبْط، الزابط أي: الضبط، الضابط، ولا شك أن في اختلاف الباحثين القدماء حول نُطق صوتها وما تركوه من كتُب في ذلك يوضِّح شيئاً حول هذا الصوت الذي اختصت به العرب. ولم يعرفه الأعاجم إلا قليلاً.

ويفسِر قانون تطور الأصوات نطقَها بصوت الدال وبصوت الزاي المُفَخمة. وكذلك ظاهرة إدغام بعض الحروف فيها. وذلِك مِن مَيْلٍ إلى الاستخفاف والمجانسَة بين الأصوات.

د ــ ما روعي فيها: فقد بُيِّن تفخيمُهَا إذا جاء بعدَها ألِف كما تُحكى بين الحروف: صاد، ضاد، طاء، ولا سيما إذا أتى بعد حرف إطباق حتى لا يميل اللسان إلى ما هو أخفّ، مثل: اضطر، أنقَض ظهرك، فيقع الإدغام.

وتُميز مِن الظاء ولا سيما إذا كانت الظاء مشدّدة ، مثل : بعض الظالمين ، يعَضّ الظالم .

ويُؤكّدُ بيانُهَا وهي مشدّدة لِتكرّر صفاتها من الإطباق والاستعلاء والجهر مثل : ابيضّ ، ينقض ، غضّ .

وكذلك إذا تكررت ظاهرة ، مثل : اغضض ، يغضضن .

وتُبيّن قبل الياء الساكنة أو بعدها لضَعف الياء وقوة الضاد خشية الإدغام ، مثل : أقرضت ، خضتم ، عرضتم .

هـ ـــ ما يُشبهه في أصوات الطبيعة : ويُسمع صوتها في هَديل الحمام ، أو في انفِقاء فقاقيع كبار مِن الرُطوبات ، أو مِن ضغط « بالون » ممتلىء بالهواء بأصابع اليد .

و ـــ فصوتها انحِرافي مجهور ، مُستَعْل ، مطبَق ، مستطيل ، فيه رُخاوة .

٨ــ مخرجُ حافّة اللِسان اللِثوي المنحرف

لهذا المخرج صوت واحد هو اللام.

أ ــ ويتمُّ حدوثها باندفاع الهواء ليَجد منفذَه عند وسَط اللسان مِن جانب واحد، واللسانُ حينذاك طرفُه متصل بمقدَّم الحنك عند الغشاء المخطَّط في موضِع يلي موضع صوت الجيم قليلاً، فوق الضاحك والناب والرباعية والثنية، والحنكُ اللين في حال ارتفاع، فينفُذ الهواء ويهتّز الوتران الصوتيان.

وفي الإنكليزية عدة أصوات مِن حرف اللام وذلك بحسَب وضع طرف اللسان ملاصقاً لمقدّم الحنك أو فوق اللثة أو عند مُنغرَز الأسنان، غير أنّ منها صوتين مميزين احدُهما واضح في مثل هذه الألفاظ: leave, lake, along

وثانيهما خافت في مثل هذه الألفاظ: feel, field, people

ب ــ استعمالها: وهي تُستعمل أصلاً وبدلاً وزائدة.

١ ــ ورُوي إبدالها من الضاد في: فالطَجع. وأُبدلت مِن النون في: اصيلال وربما كانت زائدة كما في: عَبْدل، هنالك، وزَيْدل. وأما في مثل: فيْشلة فيُحتمل أن تكون الياء زائدة كما في: هَيْق وهيْقل، ولَميس وطيْسَل.

٢ ــ زيادتها: وتكون زيادتها في الاسم والفعل والحرف، عاملةً وغيرَ عاملة. فأما زيادتها عاملة ففي: الدارُ لِسعيد، والحقلُ لأحمد. وحركتُها الكسر. وفي مثل: الجنة له، الرحمة لها، وحركتها الفتح. وهذا الخلاف في الحركة للفرق بين

معنيي الملك والابتداء وموافقة لحركة الإضمار الثابتة التي يغلِب عليها الفتح أو الضم ، والإضمار يرُد الأشياء إلى أصولها . وقد فُتحَت في الاستغاثة مثل : يا للهَ ، يا لأمية ، لأن المنادَى في موقع المضمر.

وتُزاد للتوكيد في مثل : لا أبالك ، لا يدي لك : لا أباك ، لا يديك. ومثله في شاهد : يا بؤس للجهل.

وأما زيادتها غيرَ عاملة فنوعان : أولُها لام التعريف : القمر ، النجم ، فهي هنا للتعريف ، وأُدخلت ألف الوصل للتوصل إلى نطقها لأنها ساكنة ، بيدَ أنّ الخليل ذكر أنها وهذه الألف حرف التعريف وهما مثل قد ، وهل. وذكَر حجة ذلك في شواهد. وحكى قطْعها في مثل : قام ألي ، تُريد بعدَها كلاماً مثل : عباس ، وليد ، أي : العباس ، الوليد ، واحتجاجه بمثل : الله اذن ، الذكرين حرّم ، فليست هذه ألف وصل. ولم يحذفها إلا كثرة الاستعمال ، وحُجّة ثبوتها وجودها في لفظ الجلالة : الله عزّ وجلّ.

وعدّها بعضُ العلماءِ وحدها حرف التعريف بحجة إيصالها أثر حرف الجر إلى المجرور مثل : أقمت في المدينة ، رضي الأب عن ابنه ، ولاتصاله بما عرّفه. وأنها وألفَ الوصل لو كانتا مثل «قد وهل» لما جازَ الفصلُ بين الجار والمجرور ، لأن «قد وهل» كلمتان. واختصاصها بهذا المعنى أي التعريف لمجاورتها أكثر حروف الفم التي هي معظم الحروف ، وبهذا يتسنى التوصل إلى الادغام الذي يقَع في ثلاثة عشَر حرفاً لا تظهَر اللام معَها في حال التعريف. وهي في أول اللفظ بمبعد عمّا يلحَق اللفظ مِن التغيير ولا سيما الحذف.

وتقع للتعريف في أربعة مواضع : تعريفٌ بعهد ، وبغيرِ عهد ، وللجنس ، وزائدة. فالزائدة مثل : الآن ، الذي ، وشبهها مثل : اللات والعُزَى ، ودَليل الزيادة

عدمُ وجودها في أسماء موصولة أخرى : من ، ما . ولأن الصلة هي التي تُعرِّف الأسماء لا اللامُ في مثل : اللات والعزى زائدة لأنهما عَلَمان مثل : يعوق ونسر.

وهي لام الابتداء في : لأنت أخونا ، وسمّاها بعض العلماء لام التفضيل. وتتكرّر لام الابتداء في الخبر: إن سعيداً لَفيكَ لَراغبٌ. وهي حرف جواب القسم مثل : والله لعمرٌ عادِلٌ. وأخصُّ معنييها الابتداء.

وتدخُل على الأفعال عاملة وغيرَ عاملة مثل : ليقرأْ محمد ، لِيأتِ أحمد. إن الرجل لقام ، انك لسعَيت خيراً . وتدخُل في جواب لو ولولا على الفعل الماضي : لولا أخوك لفارَقْناك ، لو تأنّيت لفهمت المراد. وتدخُل في جوابهما على الفعل المستقبل ، وحينئذ يَلزم الفعلَ النونُ مثل : لولا أنه محسن لنُفارقنه.

ولحقت الحروفَ في موضعين : لعلَّ وأصل هذه : عَلّ. وزيادتها للتأكيد. و : لا في نطق حروف المعجم ، توصُلاً للنطق بالساكن ، لأن الألف مدة ساكنة ولا يُبتدأ بها.

جـ ـ ظواهرها اللهجية : فهي تُفتح في بعض اللهجات مثل : الدار لِعُمر. وروى ابنُ جني قراءة سعيد بن جبير « لتزول منهُ الجِبال » . وسمِع الكسائي أبا حِزام العُكْلي في موله : ما كنت لَأبيك. وذكر ابن جني أن أبا زيد سمِع قراءة « ما كان الله ليَعذبهم » . وحكى اللِّحياني كسْر اللام التي للجَر مع المضمر « المال لِه » . وشبَّه ذلك بعض العلماء بمثل : مررتُ بهِ. ورَوى الفرّاء فتحَ اللام العاملة في الفعل : ليَقم زيد وذكر ابن جني حذف لام الأمر في شاهد لضرورة : ... وتسمَعْك مَن دعا ، أي : ولتسمعك.

ورُوي إبدالها ميماً كما في الحديث الشريف الذي يَرويه النَمِر بن تَوْلَب : « لَيس مِن امبِر امصِيامٍ في امسفر » .

ونُسمع اليومَ في بعض لهجة بلاد الشام ميماً ، مثل : امبارح : البارحة . ونوناً مثل : إسماعين: إسماعيل . وبنور : بِلّور . وسِنْسِلة : سِلسلة . زَنزَلة : زَلزلة . وراء مثل : راخَر : الآخر .

وتطورت في دخولها للتعريف ولا سيما الألفاظ التي أولُهَا صوت الجيم مثل :الجمل الجَد ، الجَمال ، الجُمعة ، فأُدغمت في صوت الجيم وباتت لاماً شمسية في نُطقها . وذلك في لهجات بلاد الشام ، وقد زادت هذه الظاهرة مُنذ أقلّ من عشر سنوات .

د ـــ ما روعي فيها : وقد روعي فيها خاصتان هما الترقيق والتفخيم ، وذلك للمشابهة بينها وبين الراء . وروعي بيانها وإظهارها خشية الإدغام .

فإذا سكنَت وبعدَها نُون بيّنوها خشيةَ الإدغام ، وذلك لانحراف اللام في مَخرجه نحو مخرج النون ، ولسرعة اللسان إلى ذلك ، مثل : حلَلْنا ، جعلْنا ، أغفَلْنا ، فالتحفُّظ بإظهار هذه اللام يُبعِدها من الإدغام والإخفاء لأن الفرق بينها وبين النون غُنة النون التي لولاها كانت لاماً .

وإذا وقعت في مثل : قال الله ، إلى الله ، لعل الله ، هو اللطيف ، وما خلق ، الخلّاق ، سلّط ، وهي محركة بأي حركة مشدّدة أو مخفّفة ، وبعدَها لامٌ اخرى مفخمة أو حرف إطباق ، وجبَ ترقيقها لئلا يُسارِع اللسان إلى ذلك .

ويجب ترقيقُهَا حيث وقعت وبأي حركة كانت مشددة أو مخففة إلا في مواضع معلومة ولا سيما قبلها فتحٌ أو ضمٌ أو في الابتداء . وإذا كان قبلها كسرٌ رُقِّقت . فهي مرقّقة في مثل : لي بستان أصلحوا ، اجعل لي نصيباً ، ليتلطف ، علا في الناس . وهي مُغلَّظة في مثل : القمر منير ، الوعد الحق ، له الكتب ، قال الله .

وهي إذا تكررت في مثل : قال لهم ، اجعل لي ، احلُل عُقْدة ، وجبَ التحفُّظ في بيانها مرقّقة خشية الإدغام والتفخيم .

وإذا تكرّرت أكثرَ في مثل : ويل للذين ، ويل للمطفّفين ، غِلاًّ للذين ، مدغمةً وغيرَ مدغمة وجبَ التحفُّظ ببيانِها مرقّقة أكثر.

هـ— ما يشبه صوتَها في الطبيعة صوت اليد عن رطوبة ، أو صوت طعام يُلتّ ، له قِوام مُتماسك ولعل فعل لتّ وبعض تراكيبه يدُلُ بصوته على صوت اللام.

و— فصوت اللام انحرافي ذَلْقي مجهور.

٩ — مخرج طَرَفِ اللسان المُنْحَرِف

وهو مخرج صوت الراء فقط ، وإن قارَب مخرجي النون واللام فإن صِفة التكرير فيه جعلته متميِّزاً منهما .

أ — ويتم حدوث صوتها باندفاع الهواء حتى موضِع طرفِ اللسان فوق اللِثَة باتجاه الحَنَك المخطَّط ، وأغلَبُ كُتلته منخفِض ، والحَنَك اللين مرتفِع ، فيُرعِده مراتٍ ويتذَبذب الوتران الصوتيان ويُسمع صوت الراء.

ولصوت الراء في الانكليزية عِدة أنواع تنشأ بحسَب المجاورة الصوتية واختلاف اللهجات. وهي في مثل : crowd, very, write, far, nearer

ب — استعماله : ولا يُستعمل إلا أصلاً.

والأمثلة القليلة التي ذكر بعضَها ابنُ جني مثل : امرأة جربّانة وجلبّانة فهذان أصلان. ووصف الدرع في قولهم : نَثْرة ونَثْلة ، وهي السعَة ، فاللام أصل أُبدلت منها الراء.

وخاصة التَكرير في هذا الصوت دَعَت إلى تَرقيقه وتَفخيمه في عِدّة درجات. وأصلُهَا في النطق التفخيمُ والتغليظ ، وذلك كل راء ساكنة ومفتوحة ومضمومة. والراء الساكنة ضعيفة ، فإذا سبقتها كسرة لازمة ، أو جاء بعدها ياء ، مثل : فِرعون ، سِرْب ، فِرْية ، فعندئذٍ تُرقق. وترقيقُهَا الميلُ بها نحوَ الكسر إمالة ضعيفة.

وإذا جاء بعدَها حرفُ استعلاء مثل : فِرقة ، رَصد ، رُطب ، رَخاء ، رَغب ، رَضي ، وحرف الظاء أيضاً ، وكذا الراء المفتوحة والمضمومة فالنُطق بها مفَخمة.

وفي الوقف عليها بالسكون أو الروم احكامٌ تناولتها كتُب عِلل القراءات. فهي تُرقق المكسورة في الرّوم وتُفخّمها في الوقف، والمُفخمة في أغلب أحوالها يوقف عليها مفَخّمة إسكاناً وروماً.

ولخاصة التكرير التي في صوت الراء لم تُدْغم فيما يليها، لأن ذلك سَلْبٌ لأبرز صفاتها. وقد ذُكر شيء من إدغامها في اللام في أحرفٍ من القرآن ليعقوب «يَغفِلّكم» في: يَغفر لكم. ولأبي عمرو: «فاغفِلّنا» و«سَخّلّكم» في: فاغفر لنا، وسخّر لكم. ونسَب النحاة ذلك إلى الخطأ.

جـ — ظواهر لهجية: وليس هناك مِن ظواهر لهجية كما في غيرها من الأصوات، وأغلبُ ما ذكر إنما هو أصل في اللام أو بَدل منها كما مرّ ذكره عند الإبدال: نَثْلَة نَثْرة.

وتُسمع في بعض اللهجات الضَيِّقة ولا سيما المعدود مِن عيوب النطق غيناً. وتُسمع لاماً في مثل: أمريكان، أملكان. وهذا متناسب وما حُكي من إبدالها ولهجتها.

د — ما روعي فيه: فقد رُقّق لِما تقدّم من اسباب الترقيق، وفُخّم لِما تقدّم من أسباب التفخيم.

وحُرِص على إخفاء تَكريره لئلا يَنشأ مِن الراء المشددة حروف، ومِن المخففة حرفان في مثل: الرحمن، الراكعين، حُرّم عليكم، اذكر ربك، ولا يضارّ كاتب.

ويُخفى تكريرها أيضاً وهي مكسورة ثمّ تُشدّد مُرَقّقة مثل: بضارّين، متبرّجات، ذرّيّة.

وإذا تكررت وأُولاهما مشدّدة أو مفَخمة أو مخفَّفة أُخفي التكرير وتُحفّظ في إظهارها مثل: تحرير، شرَر، أمر ربهم، محرّراً.

هـ ـ ما يُشبه صوتَها في الطبيعة : يشبه صوتها صوت تدحرُج كُرةٍ على لوح على أن يهتَزَّ اهتزازاً غيرَ مضغوط ، وصوت لوح الخشب في إحدى آلات تنظيف الخشب الكهربائية .

و ـ فصوت الراء ذَلْقي مجهور احتكاكي .

١٠ ـ مخرج طِرف اللسانِ السِنْخي الخَيْشومي

ليس لهذا المخرج سوى صوت النون المتحركة.

أ ـ ويتِم حدوث صوتها باندفاع الهواء حتى موضِع مخرج هذا الصوت، إذ طرف اللسان أدنى قليلاً مِن موضِع اللسان مِن مغارِز الأسنان، والحَنَك اللين منخفض والهواء يمرُّ بطريق الأنف مِن الحلق، وعند حدوث الصوت يتذبْذَب الوتران الصوتيان.

وهذا الصوت في اللغة الانكليزية في مثل هذه الألفاظ:
new, nice, noble, near

وهو فيها إذا كان موقعه مِن اللفظة متأخراً قليلاً، مثل: young, trunk تغيَّر نطقُ اللسان به إذ يتحَدَّب قليلاً، sing, long, handkerchief ليلامس الحنك اللين، ولعل هذا الصوت يقابل عندنا التنوين والنون الخفيفة.

ب ـ استعمالها: وتُستعمل اصلاً وبدلاً وزائدة.

١ ـ فأما إبدالها في مثل: هيمان، سغبان، أُبدلت مِن الهمزة، لأن مؤنث هاتين الصفتين على بناء فعلاء، إذ الهمزة فيه علامة التأنيث. فلهذا تشابهت والهمزة وهو مثل قولهم إذ اضافوا من لفظ صنعاء وبهراء: صنعاني، بهراني. ويُقوّيه ردُّ النون في مثل: إنسان وظربان إلى ياء: أُناسيّ، ظرابي. وحدوث هذا الإبدال لمشابهتها الهمزة إذ كانت الغنة فيها كاللين في حروفه. وإذ عاقبتها في الموضع مثل:

شرنْبَت ، جُرنْفُس : شرأبّت ، جرأفس . وإذ حُذفت مثل حروف اللين مثل : مِلآن ، لاكِ ، لم تلك الحق : من الآن ، ولكن ، ولم تكن الحق . وإذ هي علامة الرفع في مثل : يكتبان تنجحون ، تدرسين . وكذا الألِف والواو في مثل : الزيدان ، المعلمان ، أخوك ، أبوك الفلاحون . فلهذه المشابهة بينها وبين هذه الحروف قلبت الى ما يشبهها .

وأُبدلت من اللام والميم في : لعنّ ، قاتن : لعل ، قاتم .

وهي في التثنية والجمع ثلاثة أنواع : عِوض مِن الحركة والتنوين ، وعوض من الحركة وحدها ؛ وعِوض من التنوين وحدَه ، وأمثلة ذلك هي : رجل ، جارية . الرجلان ، الجاريتان . يا رجلان ، يا جاريتان .

٢ــ وحركتها بالكسر في المثنى ، مثل : الرجلان ، الجاريتان ، وحركتها بالفتح في الجمع ، مثل : المعلمون ، المفلحون . لالتقاء الساكنين . وتحريكها بغير ذلك إنما هو على الشذوذ .

ومِن صوت هذه النون صوت ما يُعرف بالتنوين في مثل : رجلٌ ، لكتابٍ ، اقرأ نصاً . وصورته في الخط غالبا حركتان مقترنتان بحسَب الموقع الإعرابي ، ويرسم ألفاً أو صورة النون في مواضع الكتابة وهكذا يُسمع في الكلام أيضاً . وتقدّم ذكر أمثلة من نطق هذا الصوت في الإنكليزية .

٣ــ وهو في النطق ساكن وكذا في الخط إذا وُقف عليه بيد أنه إما أن يَسقط في النُطق عند الوقف عليه ، وإما أن يُنطق ألفاً . وكذا في الخَط كما تقدّم ذكر ذلك ولكنه يتحرك في النُطق وفي رَسمه . وذلك لثلاثة أشياء : لالتقاء الساكنين مثل : صادفت سعيدَنِ العالِمَ ، ومررت بهشامِنِ الصادق . وللتذكُّر كما ذَكر ذلك سيبويه ، مثل : هذا كتابُني ، إنه زيدُني . ولإلقاء حركة الهمزة عليه ، مثل : سعيد

نَبوك : سعيدُ أبوك وقراءة نافع «وأنَّ الساعةَ اتيتُنَكاد أُخفيها» . و« مِن غيرِ سوء نا يَتنُخرَى» . وأوضح انه يتبع الحركات اللاحقة بعد تمام آخر الكلمة التي هو فيها .

ويشبه هاء السكْت من حيثُ لحَاقه الحركات ، لكنه لا يَثبُت في الخط غالبا ، ويسقُط في الوقف . وإنما لحَاقه في الوصل للاستخفاف في النُطق ، ويتمثّلُ ذلك أي وجوده في الكلام تمييزاً لخمسةِ أشياءَ : (١) فرْقٌ لِمَا يَنصرِف وما لا يَنصرِف ، مثل : لعثمانٍ ، لعثمانَ . (٢) دلالته على التنكير : إيهٍ ، حيهلاً . (٣) معادَلتُه في جمع المؤنث السالِم لِلنون في جَمْع المذَكر السالم : قانتات ، صالحات : قانتون ، صالحون . (٤) معاقبَتُه بما فيه من غُنّة لحروف اللين أواخر القوافي إما مُتمِماً للبناء وإما زائداً : قفا نبك مِن ذكرى حبيبٍ ومنزلن .

يا أبتا علّك أو عساكن — وقاتِم الأعماق خاوي المخترقن . ومنهلٍ وردتُه طامٍ خالن . وزيادته بآخر البيت بمنزلة الخزْم في أول البيت . (٥) عِوضاً من الإضافة : يومئذٍ ، حينئذٍ ، لأن «إذ» أصلها الإضافة .

٤— ويُزاد صوت النون في صيغ الأفعال والأسماء لِمعان ولغير معنى : نكتُب ، نرضى ، انطلق ، انبعث ، لأُسلِمنّ لأقرأن ، تُفلحان ، تحفَظين ، تسمعون . فهذا كله زيادتها فيه لمعنى ، ولغير معنى وهو الإلحاق مثل : نباذير ، جحنفل ، رعشَن أو لسلامة البناء مثل : علمني ، يؤدبني ، إنني ، كأنني وأخواتها .

جـ— ظواهرها اللهجية : إن فيما تقدَّم من ذكر إبدالها مِن اللام والميم : لعنّ مِن لعل ، وقاتِن مِن قاتم ، ما يُشعر بأنه لهجة . ولولا اختلافُ المعنى بين : رعن ، ورعل لكان ذلك أيضاً لهجة . وأحسَب أن في حذفها كما قال ابنُ جني ، في مثل : مذ من منذ ، د دِ من من ددِن ومعناه اللهو ، وكذا هو في الحديث «لست مِن ددٍ

ولا ددٌ مِنِّيه » ، وإن ، إنْ في مثل : « ان يَكاد الذين كفروا ، إنْ كلُّ نفْس ، علم أنْ سيَكون » ، ولعَلي مِن لعلني . أحسَب أن في هذا كله شيئاً من اختلاف اللهجات .

وفي مجاورتها لبعض الأصوات يلحَقها في النُطق شيء من الإبدال يُعرف في اصطلاح القراء بالإخفاء ، مثل : مِن قبل ، مَن كان ، مَن شاء ، إذن ظهر ، إذن ضل ، رجل ذلك ، وبقية الأصوات الآتية : الجيم والصاد والزاي والسين والثاء والطاء والدال والتاء والفاء وعِدتُهَا خمسة عشر ، تتحوَّل النون الساكنة والتنوين عندها إلى غُنّة ، فيُخفيان عندَها في نفسَيْهما ولكن لا يُدغمان فيها[1] .

وإذا لقيت النون الساكنة والتنوين راءً أو لاماً في كلمتين ، مثل : مِن لبانة ، مِن لبْس ، مِن رَهب ، مِن رسول ، وقع إدغامهما في هذين الحرفين دون غُنّة ، وذلك لضعف النون والتنوين وقوة الراء واللام وقُرْب المخارج .

ومثل ذلك وقوعُهما قبل النون والميم في مثل : مِن نور ، مِن نعمة ، مَنْ معك ، مِن ما ، مِن مكان . وتظهَر الغُنة لأن الحرفين اللذين أُدغم فيهما بهما غُنة ولا بدّ من إظهارها .

وكذا الحال عندَ وقوعهما في كلمتين قبل الواو والياء في مثل : مِن ولد ، مِن ولي مَن يؤمن ، مَن يجد ، وبقيتِ الغُنة ظاهرة فيهما .

ويُقلبان إلى صوتٍ مؤاخٍ لهما في مثل : أهلاً بكم ، عونٌ به ، مِن بعد ، أنبِئهم أنْ بورك . ولا بدّ من الغنة في هذا الإبدال ، لأن الحرف المبدَل فيه غُنة أيضاً .

ومضى ذكر إبدالها مِن اللام في الفقرة نفسها من بحث صوت اللام .

---

(١) انظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ١٦٧ .

وفي لهجة أهل اللاذقية ومصر مثل : بتّ ، بتي ، أتّ : بنت ، بنتي ، أنْت . أي أن النون أُدغمت في التاء . وهي كذلك في اللغة العبرية .

وأغلبُ هذه الظواهر إنما سَبَبَه التجاورُ الصوتي ، والميلُ به إلى التناسب بين الأصوات إخفاءً أو إدغاماً أو إبدالاً . وبعضٌ منه لهجات مَروية .

د ــ ما روعي فيه : إذا تكرر صوت النون في كلمتين أو كلمة في مثل : من نرضى : نحن نعلم ، لن نقول . اطمأننا ، بأعيننا ، ننجي . روعي إظهاره خشية إسراع اللسان إلى الاخفاء أو الإدغام .

وبُيِّن في قراءة مَنْ ألقى حركةَ الهمزة على النون في مثل : عجباً أَنْ أوحينا ، رسولاً أَنِ اعبدوا الله . وذلك خشيةَ الإخفاء والإثقال ، إذ تصير في الشاهدين هكذا : عَجَبُننا وْحَينا ، رسولَنَ نَ عبْدوا .

هـ ــ ويشبه صوتُها في الطبيعة صوتُ النَحْلة في الهواء .

و ــ فصوتها سِنْخي خَيْشومي مَجهور .



١١ــ المخرج الأسناني الشديد

وله ثلاثة أصوات على ذكر تواليها : ط ، د ، ت . وذلك بحسب قوتها في الحدوث. فالصوتان الأوليان متقاربان ، والثالث أقوى منهما وأشد.

١ــ ونبدأ بأولها وهو صوت الطاء. وكلام المتقدمين عليه من حيث صِفتُه يُشعر أنه كان مثل الدال مجهوراً ثم تطوّر حتى صار مثل التاء مهموساً أو قريباً من الهمس (١) .

أــ ويتِم حدوثُهَا باندفاع الهواء الى حيث موضِع خروجها إذ طرف اللسان عند مغارز الأسنان ، والحنك اللين مرتفِع يسُدُّ طريق النفَس مِن الحَلْق ، والوتران لا يتذبذبان ولا يجِد الهواء منفَذاً إلا عند النطق بهذا الصوت إذ يندفِع فجأة.

وشبيه هذا الصوت في الإنكليزية نوع مِن صوت "t" يُستعمل في اللفظ قبل صوت "L" ، ويوصف بأنه منحرف منفجِر ، وذلك في مثل :

bottle, at last, talk, tall boy

بــ استعماله : ويُستعمل أصلاً وبدلاً حسب.

ويقَع إبدالُهَا في تاء وزن «افتعل» إذا كان فاء الكلمة أحد أصوات : ص ، ض ، ط ، ظ . مثل : اصطبر ، اضطر ، اطّرد ، اظطلم. وذلك للتقريب بين الأصوات.

---

(١) انظر دروس في علم أصوات العربية ٥٠.

وربما أُبدلت التاء مِن لفظ الصوت وأُدغم أحدُهما في الآخر، مثل: اصَّبَر. اظَّلم، اضَّجع. ولهذا شاهد في لهجة بني تميم يقلِبون تاء الفاعل إلى لفظ الصوت الذي منه أحدُ تلك الأصوات، مثل: حفِظْطَ، خَبَطّ، فحصْطَ: حفِظْت، خبَطت، فحَصت.

جـ— ظواهر لهجية: وقد نُطقت تاء مثل: فرّت، وحتّهم: فرّطت، حطّتهم. وكذا ما تقدّم من إبدال تاء الفاعل من صوت الطاء في لهجة بني تميم.

ورُوي إدغامها في عدة أصوات هي: ت، د، ث، ذ، ظ، س، ز، ص، ش، ض، في مثل: فردّ أرم، فرثّامر، فرذّالب، فرظّالم، فرسّالم، فرزّاجر، فرصّابر، لا تخالشّرًا أربجمّلا، حضّمانك: فرط— دارم، ثامر، ذالب، ظالم، سامر، زاجر، صابر، لا تخالط شرا، اربط جملا، حط ضمانك.

وذكر الزمخشري نُطقاً للطاء بصوت التاء شرقيَّ العراق، وسببُ ذلك أن لغة تلك المنطقة هي الفارسية.

وهذه الظاهرة في نُطق الطاء تُسمع في بعض فئات من أهل مدن بلاد الشام ومصر، مثل: مُسْتفى، تَيِّب، تَويل: مصطفى، طيِّب، طويل.

دَ— ما روعي فيه: إظهار تفخيمها كما تُحكى في الحروف: راء، زاي، طا. وإذا كان بعدها ألف مثل: طاب، طال، أطاق. ولا سيما إذا تكررت مثل: شططا، يطَّوَّف اطيرنا، وذلك لإطباقه واستعلائه وقوته.

وتُبَيَّن بعد صاد أو ضاد، لأنها مبدلة حينئذٍ من تاء «افتعل»، خشية ميل اللسان بها إلى أصلها وهو التاء، مثل: اصطبر، اضطجع.

وهي في مثل: احطت، فرطت، بسطت، تُنطَقُ مُدْغمة في لفظ التاء.

وعندئذ يجب تبيين التشديد متوسطاً ، ويُبيَّن الإدغام ، ويظهَر الإطباق الذي في الطاء .

هـ ــ ما يُشبِه صوتَها في الطبيعة : يُسمع صوتها في تصفيق اليدين دون أن تَنطَبِقَ الراحتان وينحصر بينهما الهواء .

و ــ فصوتُها مغارزي أسناني مهموس ، مُسْتَعْلٍ ، مطبَق .

٢ ــ وصوت الدال هو الثاني في ترتيب أصوات هذا المخرج . وبينها وبين الطاء مُؤاخاة ، ولولا الإطباق الذي في الطاء لصارت دالاً .

أ ــ ويتِمُّ حدوثُها باندفاع الهواء حتى موضِع خروج صوتها إذ طرف اللسان أدنى قليلاً مِن موضعه في صوت الطاء ، والحنكُ اللين مرتفِع يسُدّ طريق النفس مِن الحلق ، والوتران الصوتيان يَتَذبذبان بشيءٍ مِن التقلُّص ، والهواءُ يتردَّدُ بقوة ، فإذا نفذ الهواء سُمع صوتها بشدة .

وهو في اللغة الإنكليزية عدة أنواع ، وأشبهها بصوت الدال في لغتنا الرابع الذي في مثل الألفاظ الآتية : middle, medicine, mode

ب ــ استعماله : وتُستعمل أصلاً وبدلاً .

فهي في مثل : ازدهَر ، ازدَلَفَ ، ازدَجَر ، من وزن « افتعل » مبدلةٌ من التاء ؛ وذلك لِلتَقريب بين الصوت والصوت ، لأن الزاي مجهورة صَفيرية والتاء مهموسة شديدة ، لا تظهر بما تحرَّكت به وهو الفتح ، ولحقت صوتاً أضعف منها تحرَّك أيضاً بالفتح . ومثل هذا نطقُ السين مفخَّمة مستعلية في مثل : صبقت ، صملق ، صويق : سبقت ، سملق ، سويق . وذلك للقاف المستعلية .

جـ ــ ظواهر لهجية : وأغلبُ ظواهرها اللهجية تَقريب بين الأصوات . ومن

ذلك إدغامها في ثمانية أحرف هي : ج ، ز ، ذ ، ص ، ض ، ظ ، س ، ش . وأمثلة ذلك : قد جاء ، قد زين ، قد ذكر ، قد صدق ، قد ضرب ، قد ظهر ، قد سمع ، قد شهد. وهذا كله نجده في بعض القراءات. وذُكر إدغام الدال في التاء والطاء مثل : عُدُّ ، وَدَّ ، ابعطالباً : عدْتُ ، وتد ، أبعد طالباً.

وذُكر قلبُها من التاء في مثل : اجدمعوا ، اجدَز ، دَوْلج : اجتمعوا ، اجتز ، تولج .

د ــ ما روعي فيه : ولفظ بها موقفة بعدها ألف كما تُحكى في الحروف : حا، خا ، دا ، في مثل : دائب ، دام ، داود .

وتُبيَّن ساكنة بعدها نون في مثل : وعدنا ، كدنا ، مددنا ، قد نعلم ، ابعد نادماً وذلك لتقارب المخرجين والاشتراك في الصفة .

وكذا إذا تكرَّرت دون تشديد في مثل : محدّد ، ممدّد ، صدَدنا ، أمدَدْنا ، جدُد ، خشيةَ الإخفاء أو الإدغام .

وتُبيَّن إذا كان أصلها تاء كيلا يميل اللسان بها إلى أصلها ، في مثل : ازدجر ، ازدهى ، ازدلف .

هـ ــ ما يشبه صوتَها في الطبيعة : يشبه صوتَها صوتُ قرعِ الكَفّ بأصبع قرعاً بقوةٍ ما. وصوتُ مِطرقة ضَخْمة في جدار قائم أوْ سَقْف.

و ــ فصوت الدال أسناني شديد مجهور .

٣ ــ وصوت التاء هو ثالث أصوات هذا المخرج . وهو يخالف أخويه بِهَمْسه وعِظم شدته .

أ ــ ويتمّ حدوثه باندفاع الهواء حتى موضع خروجه إذ طرف اللسان ملاصق

لأطراف الأسنان العليا ، والحنك اللين مرتفع يسُدّ طريق النفَس مِن الحلق ، والوتران الصوتيان لا يتذبذبان ، والهواء لا يجِد منفذاً ، فإذا ابتعد اللسان عن موضعه نفَذَ الهواء فجأة بشدة وسُمِع صوتها.

ولهذا الصوت في الإنكليزية عدة أنواع أشبهها بصوت التاء العربية الذي في هذه الألفاظ : taken, talk, tang, tap, tare, trat

ب ـــ استعمالها : وتُستعمل أصلاً وبدلاً وزائدة.

١ ـــ وتُبدل مِن ستة أحرف هي : و ، ي ، س ، ص ، ط ، د. في مثل : تراث ، تقية : وراث ، وقية. وذلك لكيلا تُقلب حرفاً من جنس حركتها ، إذ تُقلب ألفاً إن انفتحت الواو أو ياء إن انكسرت أو تبقى ياء حتّى يعرِضَ لها ما يقلبها. وإبدالها مِن الواو أقومُ لِلوزن وأوفق لأصوات الكلمة. ومثل ذلك في : اتزن ، اتعد ، يتصف ، اتسر ، يتسع ، متسق.

وأُبدِلت من الواو والياء ، وهما لامان في مثل : أخت ، بنت ، هنت ، كلتا. فهذه من : أخو ، بنو ، هنو ، كلو ، وفي هذه أي كلتا اختلاف في أصل لامها. ومِن الياء في مثل : ثنتان ، كيت ، ذيت ، لأن أصل هذه مِن : ثني ، كيّة ، ذيّة وقد نطقَت به العرب ، ثم حَذَفوا الهاء وأبدلوا من الياء الثانية تاء.

وأُبدلت من السين في مثل : ست ، أصلها سدس ، ثم قلبوا السين الآخرة تاء : سدت ، ثم أبدلوا الدال تاء للتوافق في الهمس : ستّ : ومثله : فَرَتُّ ، حتُّهم ، زِتُّ : فَرَّطْتُ ، حُطْتهم ، زِدْتُ.

٢ ـــ وتُزاد أولاً مثل : تلقاء ، تألب. وثانية مثل : اقتدار ، افتقر ، ورابعة : سَنْبَتة أي وقت. وخامسة مثل : جبروت ، ملكوت. وسادسة مثل : عنكبوت ، ترنموت أي صوت تَرَنُّم.

وتزاد أول الأفعال : تكشف ، تفهم . تجلس ، تنجحين ، كتبت ، حفظت ، لبيبات ، عارفات ، صائمة ، تائبة .

وهي زائدة في مثل : ترتُب ، تُدرأ ، لأنه ليس في الأصوات مثلها .

٣ــ وقد أُدغمت لهمسها في أحرف مجهورة هي : ج ، ط ، ص ، ث ، س ، ز . وذكر إدغامها أيضاً في : ظ ، ذ ، ش ، ض . في مثل : وجبَتْ جُّنوبها ، ودَّتْ طَّائفة . هدمَت صَّوامع ، حفظت ثَّلاثة ، جعلت سَّبحان ، وضعت زينة ، وضحت ظاهرة ، باعت ذهباً ، تنفست شهيقاً ، هدَتْ ضالاً . وبعض ذلك وردَ في القراءات مروياً .

جــ ظواهر لهجية : في بعض وجوه الاستعمال مِن إبدال وزيادة وإدغام لهجات مثل : ست ، كيت ، وذيت .

وروى ابن جني في شواهد : النات ، أكيات : الناس ، أكياس . وطست في طس . وخَتيت في : خسيس . وهذا إبدالها من السين . وأُبدلت في شاهد من الصاد مثل : لصت ، اللصوت : لَصٌّ ، اللصوص .

وذكر ابن جني أن التاء في : الذعالت ، والباء في : الذعالب لهجتان .

ومثل ذلك إبدالها من الطاء والدال في مثل : نستاط ، أستاع ، يستيع ، تربوت : فسطاط ، اسطاع ، يطيع ، دربوت .

ولعل سبب بعض هذا حاجة فنية لجأ إليها الشاعر كما في إبدال التاء من السين في الشاهد لقرب المخرجين ، ولأن في التاء في بعض نطقها زائدة تشعر بالسين . وكله يلاحظ فيه تقارب الأصوات .

دــ ما روعي فيه : يجب ترقيقها بعدها ألف كما تُحكى في الحروف : با ، تا ، تاب ، ثنتان ، بستان .

وهي في مثل : بدت تنظر ، أخذت تحكي ، تذكّر ، لقيت تاء أخرى ، وأُدغمت فيها ، فبُيِّن إدغامها وتشديدها.

ويُبيّن تكريرُها في كلمةً مثل : تترى ، تتعالى ، وفي كلمتين مثل : كنت ترجو ، أنت تقدر ، جاءت تضحك . وإذا تكرّرت أكثر مثل : تتتابع ، الساعة تتقدّم ، فيُزاد في تبيينها ، لأن اللسان يصعُبُ عليه النُطق بها ثلاث مرات متتالية.

وتُبيَّن متحركة قبل الطاء لأنهما مِن مخرج ، ولجهر الطاء واستعلائها ، وهمس التاء ، إذ يُسارع اللسان إلى النطق بالطاء ، مثل : استطاب ، يستطيع ، يستطير ، ولهذا أُبدلت التاء في وزن «افتعل» وبعدها حرف مطبق مثل : اصطرخ ، اضطر.

وتُبيَّنُ قبل الطاء وإن فصلَ بينهما فاصل ورُقّقت ، مثل : اختلط ، وكذلك قبل الدال لأن هذه مؤاخية للطاء ، مثل : اعتدنا ، اعتدت.

هـــ ما يشبه صوتَها في الطبيعة : يشبه صوتَها قرعُ الكَفّ بأُصبع بقوةٍ وصوت ضَرْب القلم وما يُشبهه فوق سطح ورق مُقوّى.

وـــ فصوت التاء أسناني شديد مهموس.

١٢ـــ المخرج الأسناني الصفيري

ولهذا المخرج ثلاثة أصوات هي : الصاد ، الزاي ، السين ، بحسب ترتيب ابن جني ، وهو خِلافُ ترتيب سيبويه الذي يجعل الزاي أول ثم السين ثم الصاد.

١ ــ ونبدأ بأولها ، أي بالصاد. وهي أحد أصوات كانت في السامية ، صار إلى رَخاوة في العربية القديمة بعد أن كانت شديدة.

أ ــ ويتِمُّ حدوثُ صوتها باندفاع الهواء حتى موضِع خروجه إذ طرفُ اللسان تُجاه مقدَّم الحنك المخطط بينهما فرجة ملحوظة ، وكتلة اللسان مرتفعة مقابل سقف الحنك ، والأسنان متقاربة ، لكنها غير منطبقة ، والحنك اللين مرتفِع يسُدّ طريق النفَس من الحنك ، ولا يتَذبذَب الوتران ، فينفُذ الهواء باتجاه الثَنيَّتَين العُلين إذ يُسمع صوتها مُصَفِراً مُطبقاً.

وشبيهه في الإنكليزية صوت "S" ونُطقه في مثل : song, saw, so, sun

ب ــ استعمالها : ويُستعمل أصلاً وبدلاً.

وإبدالها ليس مطرداً ، ويمكن عدُّ بعض صُور نُطقها لهجةً . وما رُوعي في شاهد مثل : « صَلْهَب » وأن صوت الصاد فيه مبدَل من السين ، وكذا لفظ « زَمْزَمة » بمعنى جماعة وروايته « صَمْصَمة » فإنما هو لهجة ، كلُّ حرف منهما مستقِل إلّا أن يقوم دليل. وهو مثل : أَنَّى وآن.

جـ ــ ظواهر لهجية : رُويت بعض الألفاظ بصوت الصاد مثل : صقر ،

صراط ، صقت ، صويق ، أصبغ ، صاطع ، صلخ . كما رويت أيضاً بصوت السين في بعضها وبصوت الزاي في بعضها الآخر . وإذا كان هذا مُعَلَّلاً بجوار الأصوات وتناسبها بنَقْل الصوت المستفل إلى ما يوافق الصوت المستعلي ، فإن رواية عدّة ألفاظ منها كما هو أمر قصة الصقر المروية عن الأصمعي (١) يجعلنا نقول إن بعض ذلك لهجات لا محالة . ومثل ذلك لفظُ : صعتر ، زعتر ، سعتر.

وفي بعض لهجة أهل دمشق اليوم نُطقٌ لصوت الصاد في عدة ألفاظ منها : صلخ ، صلخه ، رصول الله ، مُحَصِّبه : سلخ ، سلخه ، رسول الله ، مُحَسِّبه . وفي لهجة أهل مصر مثل : الزبب الأزباب : السبب ، الأسباب .

د ـــ ما روعي فيه : بُيِّن تفخيمُها كما تُحكى في الحروف : نون ، صاد ، لئلا تخرج مِن لفظها إلى لفظ السين ، وذلك بتصفية لفظها وإعطائها حقها من الإطباق والاستعلاء . وهي أكثر من السين تكلُّفاً على اللسان . ويسهُلُ نطقُها إذا كان بعدها حرف مطبق مثل : اصطف ، الصغد ، القصص . ولهذا قُلبت التاء الزائدة في «افتعل» طاءً للتناسب إطباقاً واستعلاء ، وليعمل اللسان عملاً واحداً ، مثل : اصطفى ، اصطلح ، اصطبر .

وهي في مثل : قصد ، يصدر ، الصدّ ، إن لم يُصَفَّ صوتها مازجه لفظ الزاي ، وذلك لأن الصوتين من مخرج واحد ، والزاي في صفتها أقرب إلى الدال .

وكذلك إذا جاء بعدها تاءُ الفاعل ، مثل : حرصتُ ، حرصتُم ، لأن اللسان يميل إلى النطق بالسين لِقُربها من التاء . فلا بدّ فيها من الإطباق والاستعلاء .

هـ ـــ ما يشبه صوتَها في الطبيعة : يُسمع صوتها في تخليصِ قِطع حديد رِقاقٍ مُتشابكة ، وفي سَنّ الموسى بكلٍّ وجهِ شفرته فوق المِسَنّ .

---

(١) انظر الخصائص ١ / ٣٧٤.

و ـــ فصوت الصاد أسناني مهموس صفيري مطبق مستعل.

٢ ـــ وثاني صوت في هذا المخرج هو الزاي.

أ ـــ ويتِمُّ حدوثها باندفاع الهواء حتى موضع خروجه إذ اللسان منخفِض قليلاً، وهو تجاه سقف الحنك، وطرفُه قريب مِن الأسنان السُفلى يكاد يلاصقها، وأسنان الفكين متلاقية تماماً، والحنك اللين المرتفِع يسُد طريق النفَس مِن الحلق، وإذ يُنْطَق بصوتها ينفُذ الهواء ويتذبذَب الوتران الصوتيان.

وشبيهه في الإنكليزية في صوت "Z" وفي بعض صُور نُطق صوت "S" في مثل:

zeal, zest, zoo, raise, easy, trees

ب ـــ استعمالها: وتُستعمل أصلاً وبدلاً دون أن تُستعمل زائدة.

ورُوي إبدالها من السين في لهجة بني كَلْب، مثل: شزب، زقر، لزق: شسب، سقر، لسق. وأُبدلت مِن الصاد كما تقدَّم ذكرُ بعض ذلك في صوت الصاد، مثل: رقز، بزق، زعق: رقص، بصق، قرص، صعق.

وذكر إدغامها في السين أو في الصاد إذا جاءتا بعدَها، مثل: رس سلامة، أو جس صابراً: رز سلامة، أوجز صابراً.

جـ ـــ ظواهر لهجية: تقدَّم ذكر لهجة بني كَلْب، ويُضاف إليها أيضاً إبدال الزاي من الصاد، مثل: شاة زقعاء، ازدقي، زدق، مَزْدَر، مَزْدوقاته: صقعاء، اصدقي، صدق، مصدر، مصدوقاته.

وفي لهجة كثير مِن أهل بلاد الشام والسودان إبدالُها مِن الصاد في مثل: زِغير، زِغار: صغير، صغار.

ولم تزل ظاهرة التناسب بين الأصوات هي التي تفسِر هذا الإبدال بين تلك الأصوات.

د ــ ما روعي فيه : رُقق صوتها بعدها ألفٌ كما تُحكى في الحروف : راء ، زاي. وفي مثل : زاد ، زائر ، زال.

وتُبين مكرّرة في مثل : عَززنا ، جَززت ، هَززتم.

وتُبين بعد الجيم وقبلَها كما تُبيّن الجيم لأن اللسان يُسارع إلى النطق بالسين لأنها مؤاخية للزاي ، مثل : أزجيت الوقت ، ساعة مزجاة ، رجز ، الرجز.

وتُبيّن أيضاً وهي ساكنة بعدَها دال أو تاء حتى لا يقرب لفظُها مِن السين. مثل : ازداد ، يَزدري ، جُزْتم ، حُزتم ، كنزتم.

هـ ــ ما يشبه صوتَها في الطبيعة : ويُسمع صوتُها مِنْ قَلْعِ مِسمار مدْقوق في خشب قاس ، وفي مسح لوح بِلّور بورقة أو بِجِلْد.

و ــ فصوت الزاي أسناني مجهور شديد صَفيري.

٣ ــ وثالث صوت في هذا المخرج هو السين.

أ ــ ويتِمّ حدوثُها باندفاع الهواء حتى موضع خروجه ، واللسانُ وطرفُه وكتلتُه كما هو في نُطق صوت الزاي ، لكن الوترين الصوتيين لا يتذبذبان.

وشبيهه في الإنكليزية نوع من نطق صوت "S" في مثل
casts, takes, laughs, us, single

ب ــ استعمالها : وتستعمل أصلاً وزائدة.

فهي من أحرف الزيادة التي تدخل على المباني ، مثل : استعظم ، استرضى. ورُوي استخذ. ولابن جني فيه توجيهٌ لطيف. فهو عنده في الأصل : اتّخذ ، ثم أُبدلت الأولى سيناً كما أبدلوا في سدس حتى آلت إلى : ست. أو أن أصله : استتخذ ، ثم حُذفت التاء الثانية كما في : تقى ، يتقى وأصله اتقى يتقي.

وكذا اسطاع يسطيع ، السين فيه زيادة كما يَرى سيبويه ، عِوضاً من سكون عين الفعل . ورأى الفرّاء أن اسطعت تُشبَّه بـ : أفعلت ، فأصلها على هذا : استطعت ، ثم حُذفت التاء ، وفُتحت الهمزة.

ورُوي شيء يُفهم منه إبدالها مثل : السِّدة : الشِّدة ، أبدلوها من السين.

جـ ـ ظواهر لهجية : تقدَّم ذكرُ شيء مما أُبدل منها مثل . أكيات ، النات ، زقر ، يُزْدِل : أكياس ، الناس ، سَقر ، يُسْدِل.

ومثله ايضاً : احبِز ، راص ، صوق ، صاق ، صور : احبِس ، راس ، سوق ، ساق ، سور.

وبعض هذا للتناسب بين الأصوات ، وبعض لهجات لا بدّ.

وبعضُ العرب كانوا يَزيدونها بعد كاف المؤنثة المخاطبة ، ولم تزل هذه اللهجة في نجد ، مثل : بِكْس ، ونزلت عليكِسْ. وذلك في الوقف ، فإذا وصلوا حذفوا.

د ـ ما روعي فيه : بُيِّنَ صفيرها في كل حال كما بُيِّنَ إطباق الصاد للفرق بينهما ولا سيما إذا جاء بعد صوت السين حرفُ إطباق كيلا تصير صاداً ، مثل : وسط ، يبسط ، تقسطون ، سطور ، وسطن.

وإذا وقع بعدها حرف إطباق متبق من حرف مطبق أدغم ، أكد إظهار السين مثل : بسطت ، سطت ، أوسطت.

وإن حال بينها وبين حرف الإطباق حائل فلا بد من بيانها ، وذلك لقوة حرف الإطباق مثل : يستطيع ، استصرخ ، استطب ، سوط ، سرق.

وإذا كانت ساكنة بعدها جيم بُيِّنت كيلا يميل اللسان بها إلى الزاي لاتفاق هذه والجيم في صفة الجهر ، مثل : اسجد ، المسجد ، يسجرون ، مسجور.

وتُبين مكررة لثقل التكرير مثل : أسس ، المؤسس ، تحسس.

وتُبين في لفظ معناه بها في لفظ آخر معناه بالصاد ، مثل : أسرّوا النجوى ، أسرّوا الندامة فإن لم يُبيَّن صار إلى : أصروا. ومثله : يُسحبون ، قسَمنا ، تَسير ، لمعنى هو بالسين فتصير إلى معنى آخر هو بالصاد : يصحبون ، قصمنا. تصير ، وبيانها أبداً بإظهار صفيرها.

هـ — ما يشبه صوتَها في الطبيعة : ويُسمع صوتها في حركة الأساور في أيدي النساء وفي سَن الموسى بجَعْل طرف شَفرَته على حافةِ المِسن.

و — فصوت السين أسناني مهموس صفيري.



١٣ ـــ المخرج الأسناني الرِخو

ولهذا المخرج ثلاثة أصوات هي على توالي ذكرها : ظ ، ذ ، ث . وقد كانت هذه الأصوات في اللغة السامية في موضع متقدِّم أكثر مما هي في العربية الفصحى . وهي مؤاخية لأصوات المخرج الأسناني الشديد وهي : ط ، د ، ت .

ونبدأ بأول أصوات هذا المخرج وهو الظاء .

أ ـــ ويتِمّ حدوث صوته باندفاع الهواء حتى موضِع خروجه إذ اللسان مرتفِع سطحه تجاه الحنك وطرفُه ملاصق للثَنيتين العُليين ، والحنك اللين مرتفع يسُدّ طريق لنفَس من الحلق وإذ ينفُذ الهواء من بين طرف اللسان والثَنِيَّتين العُليين يتذَبذَب الوتران الصوتيان ويُسمَع صوتها .

ويشبهه في الإنكليزية صوت الحرفين "th" في بعض نُطقه ، وفي موضع مِن اللفظة مثل : though, thy, thou, thus, father

ب ـــ استعمالها : وهي لا تُستعمل إلا أصلاً .

وقد أُدغمت في عدة أصوات هي : ث ، ذ ، ت ، د ، ط ، س ، ز ، ص ، ش ، ج ، ض . ولعل أكثر هذه الأمثلة التي تُذْكَر على قِلَّتِها شاذة ، ذلك لأن صفة الإطباق التي في الظاء تذهَب بالإدغام ، وهذا خلافُ المألوف في تناسُب الأصوات عند تقارُبِها .

جـ ـــ ظواهر لهجية : جعلت أصوات هذا المخرج تميل إلى الشدة ، ولا سيما عند أهل الحضَر ، وكذلك عند بعض البدو .

فصارت الظاء طاء ، أو ضاداً ، مثل : ضهر ، ضفر ، طهره ، طليلي ، طفرو : ظهر ، ظفر ، ظهره ، ظله .

ومثله قلبُ النَبْطِ لهذا الصوت طاء ، مثل : مستنطر ، مستنظر . وشاهِدُهُ في بيْتِ المُتنبي : نواطير مصر .

ولم تزل هذه المادة مستعملة حتى اليوم في بلاد الشام : الناطور ، ناطر .

وشاع استعمالها اليوم عند العامة وأغلبُ المثقفين في صوت الزاي المغلظة المتمثلة في "Z" اللاتيني ، وهو نطق تركي لم يزل مسموعاً في لهجة أهل مصر في لفظ الضاد والظاء معاً ، مثل : الزابط ، الزبط ، مزبوط ، الزاهر ، زهر : الضابط ، الضبط ، الظاهر ، ظهر .

وفي لهجات بلاد الشام يُسمع في صوت الضاد التي لحقها ترقيق ، مثل : الضهر ، ضل ، ضليت : الظهر ، ظل ، ظليت .

ويفسِّر هذا ومثلَه قانونُ اقتصادِ الجُهْد ، واضطرابُ تعليم اللغة ولا سيما في مراحله المبكرة . وإذا صحَّ أن بعضه لهجة فهي شاذة .

د ـــ ما روعي فيه : تُبيَّن إذا كان بعدَها ألفٌ كما تُحكى في الحروف : طا ، ظا ، الظان ، الظالم ، ظاهر . وتَركُ تجويدِ لفظها يُصيِّرُها الى لفظ الضاد أو الذال . فلا بدّ من إظهار إطباقها واستعلائها حتى لا تزول الى الذال .

وتُبيَّن أكثر إذا وقعت بعد الضاد مع بيان هذه ، مثل : عض الظالم ، انقضَّ ظهرك ، الرَضُّ ظاهر .

وتُبيّن في لفظ يُشبه آخرَ فيه ذالٌ بمعنى آخر لئلا يَنقلب المعنى ، مثل : محظور ، منظور ، منظر ، محذور ، منذور ، منذر .

وإذا سكنت وبعدها تاء المتكلم مثل: وعظت لظظت، اكتظظت، بُيِّنَت خشية الإدغام.

هـ— ما يُشبه صوتَها في الطبيعة: يُسمع صوتها في فصلِ قطعتين من اللَّدين أُلصِقَتا بمادةٍ صِمغية لوقتها.

و— فصوت الظاء أسناني مُطبِق مُستَعل مجهور رِخو.

٢— وصوت الذال هو ثاني أصوات هذا المخرج.

أ— ويتمُّ حدوثُه باندفاع الهواء حتى موضع خروجه إذ طرفُ اللسان ملاصِقٌ لأطراف الأسنان العليا ولا سيما الثَّنِيَّتين، والحنك اللين مرتفِع يسُدّ طريق النفَس مِن الحلق، ويتذبذب الوتران الصوتيان إذ ينفُذ الهواء مما بين طرف اللسان وأطراف الأسنان.

وشبيهه في الإنكليزية صوت الحرفين "th" في مثل:
this, then, the, with, these, they

ب— استعماله: لا تستعمل غيرُ أصل.

وهي في مثل: اذكر، جذوت، تلعذم، حذحاذ، أي سريع طلب الماء، مما رُوي، ليست مبدلة ولا مبدلاً منها، فالأولى على الإدغام فأصله: اذتكر، فأبدلت الذال دالاً وأدغمت فيها تاء الافتعال. وما تبقّى لهجات يقابلها على ترتيبها: جثوت، تلعثم، حثحاث.

بيد أنها أُدغمت في غيرها وأُدغم فيها غيرها مثل: إذ ظلم، إذ ظن، ثلث ذلك، مُلّث ذلك.

ورُوي في القراءة إدغامها في التاء مثل: لتخّت، عتّ: لتخذت، عذت. وجاء ذكرُ إدغامها في: د، ط، س، ز، ص، ش، ج، ض: خدّارِ ما،

صطارداً، ابسامرا، ابزّاجرا، ابصابرا: اتّخشريكا، اجّاء، اعضاربا: خُذْ دارما، صِد طارداً، ابِذ سامراً، ابِذ زاجراً، ابذ صابراً، اتخذ شريكاً، إذ جاء، أعِذ ضارباً.

وأغلبُ هذا الإبدال شاذٌ لأن فيه نَقْصاً للتناسب الصوتي الذي يُحافِظ على الصوت القوي ويظهِر الضعيف إلى جواره دون اضطراب بينهما.

جـ - ظواهرها اللهجية: إن في بعض ما تقدَّم ذكره من صور الإبدال بين الذال والثاء أو بينها وبين الدال وكذا بين التاء ما يُشعر بلهجات تنطق فيها الذال بصوت تلك الحروف إما للتناسب بين الأصوات وإما للاستخفاف.

وهذا موافق لِما أصاب أصوات هذا المخرج من اختلاف نُطْقها على ألسِنَةِ أهل المُدُن دون أغلب أهل البادية[1]. فهي في نطق أهل البادية صوتان أحدهما نطق العربية الفصيحة كما جاء ذكرُه في آلية مخرجه. وثانيهما نطق الزاي فيها تفخيم، بل إن نطقها في الفصيحة بات يَميل إلى الترقيق الشديد.

وتُسمع في بعض الألفاظ دالاً، مثل: قنفد، مِدراة، مِدرّي: قنفذ، مذراة، مذرّي.

د - ما روعي فيه: نُطِقَ بها مرققة بعدَها ألف كما تُحكى في الحروف: دال، ذال، ذلك، ذاق، هذا. وإغفال ذلك يجعلها مفخَّمة فتميل إلى صوت الظاء أو ضاداً.

ويُزاد في ترقيقها إذا أتى بعدها قافٌ كيلا تصير إلى لفظ الضاد للاستعلاء الذي في القاف مثل: ذاق، ذقن، أذقان.

---

(١) انظر دروس في علم أصوات العربية ٦٧.

وكذا إذا أتى بعدها حرفٌ مفخَّم مثل الراء واللام كيلا يدخلها الإطباق فتصير ظاءً، ويقعُ في الكلام تصحيف، مثل: ذرأ، ذرهم، نذر، معاذ الله، ذرة.

وتُبيَّن إذا تكرّرت مثل: والقرآن ذي الذكر، إذ ذهب، منذ ذلك.

هـ— ما يشبه صوتَها في الطبيعة: يُسمع صوتها في اهتزاز ورقَة في مَجْرى هواء كشَقِ نافذة يدخُل منه هواء يُحرّك الورقة، وصوتِ طعام لزِج يُلَتُّ على نفسه.

و— فصوت الذال أسناني مجهور رخو.

٣— وصوت الثاء هو ثالث أصوات هذا المخرج.

أ— ويتِمُّ حدوثُ صوتها باندفاع الهواء حتى موضِع خروجه إذ اللسانُ مسترخٍ وطرفُه بين الثنايا في الفكين المبتعدَين قليلاً جداً بقدَر وضْع طرف اللسان بين الأسنان، والحنَك اللين مرتفِع كشأنه دائماً في مثل هذه الأصوات، فينفُذُ الهواء من بين طرف اللسان وأطراف الثَّنيتين العُلْيَين في فراغ ضَيّق، دون أن يهتَز الوتران الصوتيان.

ويُشبهه في الإنكليزية صوت الحرفين "th" في نُطق بعض الألفاظ مثل:
think, thank, method, sympathy, month

ب— استعمالها: ولا تُستعمل إلا أصلاً.

وتُقلب في بعض الأوزان ولا سيما افتَعل وتُدغم مثل: اتّرد، متّرد، اتّنى، اتّأر: اثْترد، مثْترد، اثْتنى، اثْتأر.

وربما كانت بدلاً مِن الفاء في مثل: أثاث، ثُروغ الدلو، ثوم: أثاف لا أنها مِن ثَفَو يثفو، فرغ، ثوم.

وتُسمع اليوم في نُطق مثل :كَتِير . تُفْل ، لهَت ، ابحَتْ تَم ، تُم ، توم ، تَمين ، تَنّ . اتنان . تنتين ، اتنين ، تلاته ، تَلْج ، مُتَلج ، تَلاجة : كَثير ، ثُمل ، لهَث ، بحَث ، فم ، ثُم ، ثوم ، ثمين ، ثَنِّ ، اثنان ، ثنتين ، اثنين ، ثلاثة ، ثلج ، مثلج ، ثلاجة .

وهذا كله موافق لِتطور هذه الأصوات منذ أبعد عهودها . فهي تَميل إلى الشدة والتقدُّم في الفم . وهي ظاهرة واضحة .

ورُوي إدغامها في القراءة ، مثل : يلهَث ذلك ، يُرِد ثواب . وذُكر أنها تُدغم في الحروف : ظ ، ت ، ط ، س ، ز ، ص ، ش ، ج ، ض ، مثل : ابعظالما ، عبتاجر ، عبدّارم ، عبطارد ، لهّسامر ، عبزاجر ، لهصابر ، أورشعثا ، البجالسا ، عبضارب : ابعث ظالما ، عبث تاجر ، عبث دارم ، عبث طارد ، لهث سامر ، عبث تاجر ، لهث صابر ، أورث شعثا ، البَث جالساً ، عبث ضارب .

وأغلب هذه أمرُه كأمر الذال وإدغامها ، شاذ ، مناقِض للتناسب بين الأصوات ، بعيد عن الاستعمال والكثرة .

د ـــ ما روعي فيه : لا بُدّ مِن ترقيق لفظها بعدَها ألفٌ ، كما تُحكى الحروف : با ، تا ، ثا ، ثاني ، ثابت ، ثامن .

وتُبيَّن مكررة خشية الإخفاء أو الإدغام ، مثل : حيث ثلث ، ثالث ثلاثة .

وتُبيَّن وهي ساكنة قبل الخاء ، مثل : أثخن ، مثخن ، اثخان .

ويُحرص على تَبيينها حيث وقعت لضَعفها ، مثل : النفاثات ، جدَث ، الأجداث ، اثمد ، لاثَ عمامة .

هـ — ما يشبه صوتها في الطبيعة : ويُسمع صوتها في سَنّ الموسى على المِسن ببطء وضغط أكثر، وفي حفّ الخشَب بورَق الحَفّ، وفي صوت إفراغ «البالون» من الهواء بشيء من تضييق فتحته.

و — فصوت الثاء أسناني مهموس رخو.

١٤ ـــ المخرج الأسناني الشفوي

ولهذا المخرج صوت واحد هو الفاء. وربما كان له أصل في اللغة السامية يُنطق مشدداً ومفخماً ثم تطور الى صوت الفاء. وهذا ما يفهم من كلام سيبويه على نطق للباء مستهجن يشبه الفاء[١].

أ ــ ويتمُّ حدوث صوتها باندفاع الهواء حتى موضع خروجه إذ الثنايا العليا ملاصقة لباطن الشَفة السُفلى، والحنك اللين مرتفع والفتحة الحنجرية يمرُّ منها الهواء دون عائق، فينفُذ من بين الثنايا وموضِعها مِن الشفة دون أن يتحرَّك الوتران، ويُسمَع صوتها مُتفشّياً.

ويشبه في الانكليزية صوت "f" بلا اختلاف في الألفاظ:
fit, fence, fun, fear

كما تسمع في أربعة أزواج من حروف الإنكلزية وهي: ph,gh في مثل
philosophy, enough

ب ــ استعمالها: وتُستعمل أصلاً وبدلاً.

فهي تُبدل مِن الثاء مثل: نجح عمرو ثم زيد، جدف، جدث. وربما كانت مبدلة من الثاء في: نفيّ: ثنيّ وكذا في بيت امرىء القيس: من نفيانه.

(١) دروس في علم الأصوات العربية ٤٣.

وهي في مثل : فناء الدار وثناؤها . والعافور والعاثور ، عثر يعثُر ، عفر ، وعُفرة ، وعِفريت فذلك أصلان.

وتُستعمل لِمعان هي : هذا أبوك فعمك . المدرسة فالمسجد ، في العطف . وهي في مثل : ابنك فوجد أي : ابنك وجد . وقرآنا فرتِّل أي : قرآنا رتِّل . ومثله : «وثيابك فطهر» وذلك زيادتها.

وتُحذف تخفيفاً في مثل : أف ، وأصلها أفّ.

وروي شيء في انقلابها باء وانقلاب الباء فاء ، مثل : خده بإفّانه ، أي بإبّانه. وفِسْكل : بِسكل.

وصارت تاء في بعض لهجات بلاد الشام مثل : تم ، فم.

وروي في القراءات إدغامها مثل : نخسِف بهم الأَرض ، لقرب المخرج ولِنَقل الحرف الضعيف إلى الحرف الأقوى.

جـ ظواهر لهجية : وغاب صوتُهَا في لفظ «نصف» في أكثر اللهجات العربية اليوم فهي تُنطق : نصّ ، وتُسمَع في بعض لهجة أهل اللاذقية مدغمة في التاء ، مثل : شتّو أي شفتو بمعنى رأيت وكذا في اللهجات الجزائرية.

وتُسمع أحياناً مشدّدة تقرب من صوت الباء في مثل : فؤاد ، فوق ، فلفل ، فلافل.

د ما روعي فيه : تُرقَق بعدَها ألفٌ كما تُحكى في الحروف : سين ، شين ، فا ، فاء ، فار ، فات.

ويُزاد في تبيينها إذا تكررت ، مثل : ليُخفف ، احفف ، استعفف.

وكذلك إذا تكررت في كلمتين ، لاحتمال الإدغام ، مثل : خلف في ، يوسف وصل ، تعرف في ، كيف فعل ، صوافّ فإذا .

هـ ـ ما يشبه صوتها في الطبيعة : ويُسمع صوتُها في صوت حفيف الأشجار .

و ـ فصوتها أسناني شفوي مهموس متفَشٍ .

١٥ـ المخرج الشَفوي

ولهذا المخرج ثلاثة أصوات هي على ترتيبها : ب ، م ، و صوت اللين.

١ـ ونبدأ بصوت الباء أولها.

أـ ويتِمُّ حدوث صوتها باندفاع الهواء حتى موضِع خروجه وهو الشفتان المغلقتان ، والحنك اللين مرتفِع ، فلا ينفذ إلا بانفِراج الشفتين إذ يتذبذب الوتران الصوتيان ويُسمع صوتها.

ويشبهه في الإنكليزية صوت "b" في الألفاظ الآتية :
baby, boat, bed, bark

ب ـ استعمالها : فهي لا تُستعمل زائدة.

١ـ ورُوي إبدالها في مثل : باسمك : ما اسمك. وروى الأصمعي : معكوكة : بعكوكة.

وأُبدلت منها الواو مثل : والله : بالله ، وذلك لاتفاق المخرج وتقارُب المعنى.

وحركتها وهي أول الكلم مكسورة من دون كل الحروف المفردة التي تلْتي أول الكلمة ، وكُسِرت لمشابهتها اللام في مثل : الكتاب لِعمرو.

وتُفيد في اتصالها باجزاء الكلام عدةَ معان ، منها : الإلصاق : أمسَكْت بأحمد ، والاستعانة : كتبت بالقلم. والإضافة : مررت بعمرو ، إذ أضيف المرور إلى عمرو.

٢ — واستُعمِلت مزيدة لِمعنى مثل : فبما نَقْضِهم ، للتوكيد . وتقع موقِع « في » أو « من » مثل : كفى قوماً بصاحبهم خبيراً أي : كفى بقوم خبيراً . ومثله الآية : « ولا تُلقوا بأَيْديكم إلى التَهْلُكَة » . وشرْبن بماءِ البحر : أي من ماء . وزِيدت في جُزئي الجُملة مثل : بحَسْبِك أن تَفعلَ كذا . وجزاء خير بخير ، إنما أنا بك . كفى بالله خبيراً . أحسِن بعمرو . وزيدت في خبر « لكن » لشبهه بالفاعل ، مثل : ولكن أمراً لو أتيت بعظيم ، أي : عظيم .

جـ — ظواهر لهجية : روي إدغامها ساكنة في القراءات مثل : اذهب فمَنْ تبعك ، أو يَغلِب فسوف ، وإن تعجَب فعَجَب ، اذهب فإن ، ومَنْ لم يتُب فأولئك . لتقارُب المخارج ، وللتناسب بين الأصوات ، وتقويةً لأُولاهما في النطق إذ اختلفا جهراً وهمساً .

وتَلحَق الفعلَ المضارع للدلالة على الزمن الحاضر الذي يقَع فيه الفعل : بَكْتُب ، بِنِشْرب ، بتَأكل .

وأُبدلت مِن الميم في لفظ « متاع » في لهجة أهل مصر للدلالة على المِلْكية فصارت « بتاع » مثل : الكتاب بتاعي ، الحقيبة بتاعهم .

ويقابل هذا الاستعمال في لهجة بلاد الشام لفظ « تبع » على وزن فعَل ، تضاف إلى الضمير بحسَب الحال ، مثل : الكتاب تَبَعي ، الحقيبة تبَعهم .

وروعي إبدالها من الميم في مثل : أربد ، أرمد ، بنات مَخْر ، بنات بَخْر يعني السُحُب . وبعض العَوام يُبدلونها مِن الميم في عبارة « الأمن العام » فيقولون : الابن العام ، أو ابن العام .

وفُتحت في عبارة القسَم في عدة لهجات ، مثل : بالله ، وربما مطلوا فتْحَتَها حتى طول صوت الألف .

د ــ ما روعي فيه: تُرقّق إذا أتى بعدَها ألفٌ كما تُحكى في الحروف: تا، ثا، با، باكر، باطل، باسل، بارىء، بالغ.

وتظهَر بتَحفُّظ إذا تكررت خشية الإدغام، مثل: اذهبْ بكتابي، هبْ باكرا، اصحب بَطلا.

وتُبيّن مكرَّرة في كلمة مثل: سببا، حبّب إليكم، لبِّب.

وإذا تكرّرت والأولى ساكنة فلا بد مِن الإدغام والتشديد، مثل: فلا تضرب بالعصا، إرغب بنفسك، اجلبْ بِرّاً.

هـ ــ ما يشبه صوتَها في الطبيعة: يُسمع صوتُهَا في فَصْل أجسام ليِّنة متلاصقة.

و ــ فصوتها شفوي مجهور شديد.

٢ ــ وصوت الميم هو ثاني أصوات هذا المخرج.

أ ــ ويتمُّ حدوثها باندفاع الهواء بطريق التنفس من الحلق، إذ الشفتان مطبقتان، والحنك اللين منخفِض ليمرَّ الهواء بطريق النفَس نحو فراغ الخَيْشوم، واللسانُ في موضِعه دون أي تغيير، والوتران الصوتيان يتذبذبان إذ يُسمع صوتها الذي يخرج من الأنف.

ويُشبهه في الإنكليزية صوت "m" في نطق الألفاظ:

make, come, small, man

ب ــ استعمالها: وهي تُستعمل أصلاً وبدلاً وزائدة.

١ ــ فقد أُبدلت من أربعة أحرف: و، ن، ب، م. مثل: فم: فوه. عمبر، شمباء، ممبر: عنبر، شنباء، منبر. بنات مخر، أرمد: بنات بخر، أربد.

وروى أبو عَمْرو الشَيْباني : ما زلت رأتماً على هذا : رأتبا . يريد مقيما . ومثله : طامه : طانه ، أي جبَله .

وهي في مثل : مَن معك ، مَن محمد ، مدغمة بعد إعلال النون بقلبها إلى الميم .

٢ — وتُزاد في المواضع الثلاثة من اللفظة ، مثل : مشهد ، ملقط ، عرمس ، هرماس ، دُلامص . شُدقم ، شَجعم ، اللهم ، أنتم ، أنتما ، قمتم ، نجحتم ، بهم ، بهما . وزيادتها في الاسماء خاصة . وهي في الافعال شاذة ، مثل : تَمَغْرق ، تمَسْلم ، تمَنْطق .

جـ — ظواهر لهجية : رُوي إبدالها من اللام في الحديث : ليس مِن امْبِر امْصِيام في سَفر : ليس من البر الصيام في سفر .

ورُوي مثل : مكة وبكة ، نغم ونغب بمعنى جمع جُرْعة .

ورُوي في القراءات إخفاءُ صوتها عندَ صوت الباء في مثل : وقولهم على مَريمْبُهتاناً عظيماً . ولكي لا يعلمْبَعدَ عِلم شيئاً : مريمَ بُهْتانا ، يعلَم بَعد .

وذُكر قلبُهَا نوناً إذا جاء بعدَها حرفٌ شديد ، مثل : انتُقِع ، انتَطل ، مُنطر : امتُقع ، امتَطل ، مُمطر .

وذُكر قلبها نوناً أيضاً وبعدَها صوتٌ حنكي مثل : أنقَع ، أنغَرت ، ينجر : أمقع ، أمغرت ، يمجر .

ورُوي مثل : خرمش وخمّش .

وتُسمع في نطق بعض اللهجات بالشام وفي البادية مفخّمة ولا سيما المشدّدة مثل : أمُّ الخير ، محمّد ، مَروان .

وبعض صور الإبدال لهجات وبعضه للتناسب الصوتي ، وبعض ثالث شاذ .

د ـــ ما روعي فيه : روعي فيها وهي ساكنة عند باء أو فاء أو واو مثل : هم فيها ، لكم وعد ، هم بربهم ، احكم بينهم ، تركهم في : بينهم وليد. إظهارها خشية الإخفاء أو الإدغام لاتحاد المخرج أو قربه.

وإذا كانت ساكنة وأتى بعدَها ميم فإنها تدغم ويظهر التشديد متوسطا ، والغُنة في الساكنة مثل : لكم ما سألتم ، منهم من يؤمن ، لهم ما يدعون.

ويُبَيَّن تكريرها الذي ينشأ مِن إدغام أو مِن غيره ، ولكن يُبيَّن المشدّد منه متوسطاً وكذا الغُنة في الساكنة ، مثل : ومن أظلم مِمّن منع ، ومَن أظلم مِمّن كتم ، وعلى أُمم مِمّن مَعك. يعلم ما ، اضمُم يَدك ، العظمُ مني.

هـ ـــ ما يشبه صوتَها في الطبيعة : ويُسمع صوتُهَا في أول صوت مُواء الهرة وفي هَديل الحمام.

و ـــ فصوت الميم شفوي خيشومي مجهور.

٣ ـــ وآخر أصوات هذا المخرج هو الواو.

وبعضُ الباحثين يَتناولونه على أنه حركةٌ أو نِصف حركة ، بيد أنه لمّا استُعمل أصلاً وأُبدل مِن أصوات هي أصولٌ في الفاظها لزِم أن يُذكَر بين الأصوات الثابتة ، وإن دعا بحثه في موضِع آخر مِن الأصوات على أنه حركة أو نِصف حركة[1].

أ ـــ ويُتمّ حدوثه باندفاع الهواء نحو موضِع مخرَجه إذ الشفتان مستديرتان ، واللسان مرتفِع في أقصاه باتجاه الحنك اللين الذي يكون على حاله من الارتفاع ، ليسُد طريق النفَس مِن الحلق ، فينفُذ ، ويتذبذب الوتران الصوتيان ويسمع صوته مجهورا.

---

(١) انظر دروس في علم أصوات العربية ١٣٧.

ويشبه في الإنكليزية نطق صوت "w" وصوت "ou" في مثل :

we, with, wound, wife, wise, pound, row, now, loud

ب ـ استعمالها : تستعمل أصلاً وبدلاً وزائدة.

وتُبدل من ثلاثة أحرف : الهمزة والألف والياء.

١ ـ فمن الهمزة أصلاً وهي مفتوحة وقبلَها ضمَّةٌ، فتُخفَّف لِتُقلب واواً : جُوَن، بُوَر، يضرب وباك، وقراءة أبي عمرو : «السُفهاء ولا إنهم هم السفهاء» : جُؤَن، بُؤَر، يَضربُ أباك، السفهاءُ ألا إنهم هُم السفهاء».

ومِن الهمزة المبدلة : وحَد عشَر، يضربُ وناة : أحدَ عشر، يضرب أناة. ومِن همزة التأنيث المُبدلة من ألف : حمراوان، صحراوات، خُنفُساوان : حمراء، صحراء، خُنفساء.

ومن الهمزة الزائدة : غلامُ وحمد، يكرمُ وصرم : غلامُ أحمد، يكرمُ أصرم. وتُبدل من الألف ثلاثة أنواع : ألف أصل، إلوان، لدوان، إذاوان : إلى، لدى، إذا : أصل مبدلة، من همزة : أويدم، أويخر، أوادم، أواخر : آدم، آخر، مبدلة مِن ألف مُبْدلة من واو في الإضافة : قنوي، عصوي : قنا، عصا. مُبدلة مِن ياء في الإضافة : فتوي، رحوي : فتى، رحى. زائدة في التصغير : خُويتم، سُويبط : خاتام، ساباط.

وتُبدل مِن الياء، وهي ثلاثة أنواع : أصل : موقن، موسر : أيقن، أيسر. وعند تحركها والياء لا تُقلبان لقوتهما بالحركة : غيرُ، بيُض، عِوض : جمع غيور، وبيوض. مبدلة في : ضيراب، قيتال مصدرين أُخرجا على الأصل من : ضارب قاتل. زائدة في : بوطر، بوقر : بَيْطر، بَيْقر، وذلك عند بناء الفعل للمجهول.

٢ــ وزيادتها ثانية وثالثة ورابعة وخامسة : حوْقل ، طوْمار ، جَدْول ، خِروع ، بَلْهَور ، اعْلوط ، حَيْزبون ، عِضْرفوط . وتُركت زيادتها أولاً لِئلا تُهمَز : أقتت ، أحد ، إشاح : وقتت ، وحد ، وشاح ، وهي في أول اللفظ ثقيلة.

٣ــ وتُستعمل بين أحرف المعَاني لأربعة أُمور : للعطف : نهض سعد وأحمد ، وبمعنى « مع » مضى وشروقَ الشمس ، وللحال : قدم الوالد وهو يبتسم ، وللقسم : والله لأصلين.

جـــ ظواهرها اللهجية : يُعد بعض نطق إبدالها من اختلاف اللهجات : الوكنة ، القلنسوة ، امرأة قصورة ، حَنوت : الأُكنة ، القلنسية ، امرأة قصيرة أي محبوسة ، حنيت.

ونُطق صوتُهَا في بعض القراءات موضع صوت الألف : الصلاة ، الزكاة ، الحياة . وفي لهجة بعض مناطق ببلاد الشام وفي الجزيرة العربية لم تزل واضحة حتى اليوم كما هو الأمر في نطق أهلِ اللاذقية وحلبون وشمال الجزيرة العربية مثل هذه الألفاظ : خالُد ، رأُيح ، صأُيم ، لأبُس.

وذهب بعضُ الباحثين إلى تعليل نُطقِ الألف مفخّمة بصوت الواو ، بمجاورتها الأصوات المفخَّمة ، وأن هذه الظاهرة قديمة[1] .

وقد لحِق هذا الصوت تطور في أكثر اللهجات فأمسى حرف مدّ ولين مثل : صوت ، عون ، نُوء : صَوت ، عَون ، نَوء . وبقي على ما كان عليه في كثير من مناطق ساحل بلاد الشام في مثل : ذَوق ، عَيني ، لَوْني ، خَوفي.

وسقط صوتُهَا في بعض الألفاظ مثل : بِدّي ، فسْط : بودي ، في وَسْط.

---

(١) انظر دروس في علم أصوات العربية ١٦٣.

وأُبدل صوت الياء منها كما أُبدلت هي منها في المشي مثل : أزود ، قيّمة ، صيّاغ ، عياد ، المشو : أزيد ، قوّيمة ، صوّاغ ، أعواد .

د ــ ما روعي فيها : تُبيَّن هي وحركتها دفعاً لإبدالها همزة ولا سيما إذا كانت مضمومة أو مكسورة : وجوه نضرة ، تفاوت الناس بالفضل ، نفقتك مِن وجدك ، لكلّ وجهته .

وتُبيَّن إذا انضمَّت لالتقاء الساكنين أو بعدَها واو أخرى : اشتَروا العلم بالنَفْس ، لا تَرضوا اللؤم . ماوُوفي في مَوْعده ماووري عنه .

وتُدغم إذا كانت ساكنة مفتوحاً ما قبلَها وبعدَها واو في الواو التي بعدَها بتشديد : بلَوا وَليّهم سَمَّوا وَالِدين ، اتّقوا وآمنوا .

وتُبيَّن مدغمة ومكررة : لقاؤنا غدواً وعشِياً ، نَوَوا وجْداً ، سَوّوا وضعاً .

وتُبيَّن متكررة غير مشددة والأولى مضمومة والثانية ساكنة دفعاً للِثِقل : يلوون رؤوسهم ، استووا أصدقاء ، انووا الخير .

وإذا تكرّرت متحركة في كلمة أو كلمتين بُيِّنت أكثر : وورث أُسرته ، ووُضع له كُرسي ، ووفي حقه ، خُذ العفو وأْمر ، هُو ومن مَعه أصدقاء .

وكذلك متكررة إحداهما مشددة في كلمة أو كلمتين : صفواً وهناءة ، حبواً وسعياً ، بالغدوِّ والآصال .

وتُبيَّن مشدّدة مُفْردة مكسورة للثِقل : يُسوِّي الأرض ، يُقوِّي نفسه ، أُفوِّض له الأمر يَخوِّفونك .

وكذا مُتكررة أُولاهما ساكنة قبلها ضَمّة : آمنوا وعملوا الصالحات ، اصبروا وصابروا ، اعفوا واصفَحوا.

هـ ــ ما يشبه صوتَها في الطبيعة : آخر صوت مُواء الهرة ، وآخرُ صوت العُواء.

و ــ فصوت الواو شَفوي مجهور.



١٦ـــ المخرج الخيشومي الأنفي

وله صوت واحد، يُسمع في نُطْق النون والميم الساكنتين والتنوين.

أـــ ويتِمّ حدوثه باندفاع الهواء بطريق الأنف من الحلق، إذ الحنك اللين منخفض، ومؤخَّرُ اللسان مُتحدِّب يلامِس ذلك الموضِع مِن الحنك عند النُطق بتلك الأصوات، والفم مغلَق، والهواء ينفُذ بطريق الأنف، والوتران الصوتيان يتذبذبان.

ويشبهه في الانكليزية صوت "n" في مواضِع من الألفاظ، وينشأ مِن الغنة عدة أنواع بحسب مجاورة الأصوات للنون، مثل:
young, trunk, long, sing, bringing, ink, king, finger, singer

بـــ استعماله: يبدو استعماله في تمييز صفات الأصوات التي يُسمع صوته عند نُطقها وهي أصوات: النون والميم الساكنتين والتنوين، ولا سيما عند إدغامها وإخفائها في بعض الحالات. وذلك واضح في ذكْر ما تقدّم من وظيفة النون الساكنة والتنوين مِن مثل حركة التنوين لالتقاء الساكنين ومَطْل حركة التنوين في التَذكُّر، وإلقاء الحركة عليه، والفَصْل به بَين الحركات، وفرْقُه بين النكرة والمعرفة. بيد أن فيما يَلي مِن ذكر لهجته، وما روعي فيه توضيحاً لجانب وظيفته.

جـــ ظواهره اللهجية: ليس فيه لهجات تَستحِق التوضيح غير اختلاف بعض أهل العلم والناس في إظهار صوته أو إخفائه عند مجاورة الحروف التي يُسمع

فيها بعض أنواع الأصوات ، وإبدال أحد تلك الحروف عند أصوات أخرى حرفاً آخر كإبدال النون عند الباء ميما : العنبر ، جنب .

د — ما روعي فيه : ويختفي صوت الغنة إذا لقي صوتي الراء واللام بعد إدغامه فيهما بتشديد كما هو شأن النون الساكنة : مِن لُبه ، بديعٌ رَّبي ، مرحباً رَّباب ، عِزةٌ له . وذلك لقرب المخارج ، ولتقويته بِنَقْله إلى هذين الصوتين.

ولكن يَبقى صوتُه في أحوال الإدغام الآتية .

عند مجاورته لصوت الميم سواء أُدغم أم لم يُدغم : هدىً مُبارك ، عدل مكين ، نورٌ مبين. وهذا الإدغام إذا وقع لقُرب المخرج ، ولأن في الميم غنة .

وعند إدغامه في صوتي الواو والياء : عظيمٌ واحد ، رؤوفٌ وَّدود ، كتاب يهدى ، خلقٌ يَّسمو . وذلك للمشابهة بين الغُنة وحرفي المد واللين .

وعند إبدال النون الساكنة والتنوين لدى الباء ميما ، لأن صوت الميم فيه غنة فلا بد من إظهار صوته : عن بحث ، من باب ، لطفاً بهم ، عصفاً به . وذلك للمشاركة أو المقاربة في المخرج .

وعند إخفاء النون الساكنة والتنوين جوارَ غيرِ حروف الحلق والشَفتين : مَنْ جاء ، مَن كان ، سعيدٌ شاء ، جريرٌ كان . ويخرُج صوتُه حينذاك مِن الخَيشوم ، وذلك أسهَل في النطق ، لأن النون والتنوين مُخفَيان عندَ تلك الأحرف ، واللسان يعمَل عملاً واحداً ، إذ يُنطق الصوت الذي بعدَهما ، ويُسمع صوت الغُنّة في وقت واحد تقريبا .

هـ — ما يُشبه صوتَه في الطبيعة : صوتُ النَحْلة وهي في الهواء ، أو صوت مولّد كهربائي صغير أثناء عمله .

و ـ فصوت الغُنّة خيشومي أنفي مجهور.

فتلك هي مخارج أصوات العربية بحسب نتائج البحث الصوتي اليوم، ومذاقها في اللغة المشتركة وفصيحة التراث، مع ملاحظة ظواهر التَطور التي تَلحق اللغة على ألسِنة الناس، وصلةُ ذلك بمِثله في اللهجات القديمة، كما جاء ذكرُهَا في التراث.

ولا شك أن فائدة هذه الدراسة مقتصرة على الجانب النظري بالرغم من محاولة القرن بين كثير مِن جوانبها بأبرز نتائج البحث الصوتي ومناهجه ولا سيما في الإنكليزية والمترجَم عنها وعن سواها وبعض البحوث القيمة التي أنجزها علماء في هذا الاختصاص، ودراسات استشراقية للدرس اللغوي بنحوٍ عام لها ميزاتها، وبمألوف الأذن اليوم مِن اللغة وما يُستعمل منها.

وعسى أن يُتاح لمثل هذا الجانب من الدرس اللغوي فُرصة بَحْثه العِلمية التي تستعين بالوسائل المتقدمة، ولا سيما المخابر اللغوية والحاسب الآلي.

الفصل الخامس

الوحدة الصوتية في الصيغة

الوحدة الصوتية في الصيغة

هل تمّ لنا بدراسة أصوات اللغة صفاتٍ ومخارجَ هذا الجانبُ مِن الدرس اللغوي ، أي الجانب الصوتي ، كما يُفيد تعريف اللغة ، ولا سيما عند ابن جني الذي اخترنا تعريفه للغة ، أو أن هناك تتِمّة نحتاج اليها في دراسة الأصوات ، وما تلك التتمةُ ، وما قيمتُها ؟

فقد استوفينا في دراسة كلِّ مخرَج مِن مخارج الأصوات تقريباً الأمور الآتية : ترتيب الصوت فيه ، وأصله ، وصلتَه بصوت مثلِه أو ينشأُ عنه في الأُسرة اللغوية التي تُنسب إليها اللغة العربية إن وُجد ذلك ، وآراء أهل اللغة في ذلك ، وتوضيحها وتفسيرها إن لزم ، ثم كيفية حدوثه منتفعاً بنتائج البحث الجديد ، ومقارنته بلغة أجنبية إن وُجد ، واستعمال الصوت في ألفاظ اللغة صيغة اي من حيث المَبنى ، وكذلك مِن حيث المعنى إن كان الصوت يُستعمل لمعنى ، واللهجات التي تَضمَّنتْه في لغة التُراث والفصيحة المشتركة وبعض العاميات قصدَ الإشارة إلى المُؤثِّرات المختلفة في أصوات اللغة ، ما كان قديماً ولم يزل مستمِراً ، وما استَجدَّ منها ، والوجوه التعاملية مع الصوت في بعض مواضعه مِن الصيغة اللفظية أو مجاورته الصوتية المعيَّنة ، وهو ما يُعرف بالجانب المعياري في الدرس اللغوي الجديد ، وشِبهه من أصوات في الطبيعة ثم خلاصة لمَخرجه وصفاته .

فهل يقابل هذا كله مقصودُ لفظ « أصوات » مِن التعريف عبارة « عن أغراضهم » أي هل استيفاء ما تقدَّم مِن دراسة كلِّ صوت لغوي وجوه استعماله في ألفاظ اللغة ؟ لا شك أن ذلك مستحيل أو شبه مستحيل ، لأن الصوت له في نُطق

الألفاظ ، التي تتضمَّنه مِن مستعمل اللغة دون مُهمَلِها ، عِدة وجوه مِن المسموع . وإدراك[1] «ذلك كان يقود إلى استيعاب جميع اللغة ، وهذا ممّا يَطول جداً» .

ويُلاحظ هذا النقص فيما تقدّم مِن جوانب دراسة الصوت ، ولاسيما استعماله من حيث المبنى والمعنى ، والوجوه التعاملية مع الصوت أو الجانب المعياري ، فقد كان أكثرُ ذلك مختصراً لا يعدو بعض وجوه مسموع نُطق صوته في صيغة اللفظ . ولا يَعني هذا تناولَ وجوه مسموع الصوت وتتبُّعها فذلك شيء استبعدتُه في الفقرة السابقة ، ولكن اختصصته بالبحث والتوضيح مِن حيث أبرز آثار الصوت اللغوي في الصيغة نوعاً ومسموعاً وتشكيلاً ووظيفة . أي دراسة هذه الجوانب للصوت اللغوي مُركّباً بعد أن درسناه منفرِداً .

ومتابعة هذا مِن تمام دراسة الأصوات بحسب تعريف اللغة بنحو عام ، وإن كانت[2] «كل أنظمة اللغة التي تواضَعَ عليها المجتمع لتبنى بناء خاصاً تحظى فيه كلُّ وظيفة لغوية بتعبير شكلي خاص بها يدُلُّ عليها ويختلِف عن كلِّ تعبير شَكْلي آخر يدُل به على وظيفة أخرى مِن الوظائف التي يشتمِل عليها جهاز اللغة» . واتصال هذا بعضه ببعض إنما هو تحقيق لوظيفة اللغة في الحياة .

والأخذ بهذا الجانب مِن دراسة الأصوات هو إتمام لعمل بُدىء به ولمّا يَنتَه ، أو تمَّ نِصفه . وأولُ هذا العمل هو دراسة المخارج على نحو ما تقدَّم . ويُعرف هذا في الدرس اللغوي بمصطلح «الأصوات» وهو في الإنكليزية "Phonetics" وتتمتُه هو دراسةُ مَسموعات نُطق أصوات المخارج في اللفظ وما ذُكر مِن آثاره قبلَ قليل وهو

---

(١) انظر سر صناعة الإعراب ١/ ٤ .

(٢) انظر حوليات كلية دار العلوم ١٢٣ .

ما يُعرف بمصطلح « الصوتيات » وهو في الإنكليزية Phonology [1] . وهما[2] ليسا إلاّ مرحلتين أو خطوتين مِن خطوات البحث ، وكلاهما مرتبط بصاحبه ومعتمد عليه . فمادتُهما واحدة وهي أصوات اللغة ، وهدفُهما واحد ، وهو دراسة هذه الأصوات . والفرق بينهما إنما هو في المنهج والطريقة . ومن ثمَّ لا يجوز الفصلُ بينهما أو عَزل أحدِهما عن الآخر ، شأنُهما في ذلك شأنُ الأحداث اللغوية التي هي موضوع البحث فيهما (وغيرهما مِن علوم اللغة) . فهذه الأحداث ، كما نعلم مكوَّنة من عناصر صوتية وصرفية ونحوية إلخ ، ولكنك لا تستطيع بحال أن تفصل نوعاً مِن هذه العناصر عن العناصر الأخرى ، اللهم إلا عند التحليل اللغوي على المستوى المعين . على أن هذا التحليل الجزئي محدود بوقت وهدف ، وليست له في الواقع قيمة عملية ما لم تنضم نتائجه إلى نتائج التحليل على المستويات اللغوية الاخرى .

وإذا كان لنا أن نفصل بين الفوناتيك والفنولوجيا فإنما يجوز ذلك في حالتين :

(١) عند العرض الخاص لمناهجهما وطرُق البحث فيها ، وتحديد الإطار العام لعمل كل منهما .

٢ــ عند التحليل المرحلي للأصوات . فقد تبدأ بتحليل فوناتيكي ، ثم تُعقبه بآخر فنولوجي . على أن هذا التحليل نفسه محدود وموقوت . فالتحليل الفوناتيكي الصرف ليس هدفاً في ذاته ، وإنما هو خطوة في الطريق ، ولا تعدو أن تكون خطوة ممهدة لغيرها من الخطوات . أضف إلى هذا أن رجل الفوناتيك حين يُمارس هذا التحليل الضيق لا يستطيع أن يتخلص تماماً من التأثير الفنولوجي الذي قد يتمثَّل ، على أقل تقدير ، فيما يجري في ذهنه من أفكار ولمحات فنولوجية ترجع في الغالب إلى انطباعاته الذهنية ، وخبراته السابقة أو الحالية بأصوات اللغة التي يقوم بدراستها » .

---

(١) انظر Introduction to theoretical linguistics, P, 54

(٢) انظر علم اللغة العام ، الأصوات ٧٤.

وكلامُ دانيال جونز على الفرق بين الأصوات الصامتة والأصوات الصائتة يمهّد لمضمون هذا الفصل. فهو يذكر ثلاث خصائص لذلك الفرق هي : طول الصوت ، ونَبْره ونَغمَته[١].

وفيما تقدّم مِن ذكر صفات الأصوات ومخارجها معرفةٌ بما للصوت المفْرَد من خصائص. وعند الكلام على عنصر استعماله ذكرنا شيئاً من خصائصه ، وهو في الصيغة سواء أكانت لفظاً أم جملة. وأرى أن ذلك غير كاف فعدتُ في هذا الفصل لأخص هذا الجانب مِن الصوت على ما وضَّحه مفهوم الفنولوجيا في الفقرة قبل السابقة.

وكلُّ صوت يختلف موقِعُه مِن اللفظ بحسب صيغته فهو فاء أي في أوله مثل الراء في : رضي ، رسم ، رمان ، رجح. وهو عين أي في وسطه مثل الهمزة في : سأل ، دأب ، زوءام ، فؤاد ، تئق ، وهو لام ، أي في آخره مثل العين في : رجع ، سمع ، جامع ، واضع.

وهذا الاختلاف في موقِع الصوت يُغيِّر في خصائصه ويؤثِّر فيه. ومن ثمَّ فإنه ينشأ منه عدة أصوات متباينة في السمع. ولهذا تبايَن استعمالُ الصوت الواحد في صيغ الكلام الفاظاً وجملاً. فالصوت[٢] «المتحرك حشْواً ليس كالمتحرك أولاً ، أوَ لا ترَى إلى صحة جواز تخفيف الهمزة حشْواً ، وامتناعِ جواز تخفيفها أولاً ، وإذا اختلفت أحوال الحروف حسُن التأليف ، وأما إن كانت عينُ الثلاثي ساكنة فحديثُها غيرُ هذا. وذلك أنَّ العين إذا كانت ساكنة فليس سكونها كسكون اللام. وسأوضِّح لك حقيقة ذلك لتعجب من لطف غموضه. وذلك أنّ الحرف الساكن ليست حاله

---

(١) انظر An out line of... P, 74

(٢) انظر الخصائص ١ / ٥٧ وانظر أيضاً
The linguistic sciences and language teaching, P, 44

إذا أدرجته إلى ما بعده كحاله لو وَقَفْتَ عليه . وذلك لأن من الحروف حروفاً إذا وقفت عليها لحقها صُوَيت ما مِن بعدِها ، فإذا أدرجْتَهَا إلى ما بعدَها ضعف ذلك الصويت وتضاءل للحِسِّ نحو قولك : احْ ، أصْ ، اثْ ، افْ ، اكْ ، فإذا قلت : يخْرِد ويضْبر ويسْلم ويثْرد ويفْتح ويخْرج خفي ذلك الصُويت وقلّ وخفّ ما كان له مِن الجَرْس عند الوقوف عليه . وقد تقدَّم سيبويه في هذا المعنى بما هو معلوم واضح . وسبب ذلك عندي أنك إذا وقفتَ عليه ولم تتطاول إلى النطق بحرف آخر من بعده تلبَّث عليه ، ولم تُسرع الانتقال عنه ، فقدزت بتلك اللبثة على إتباع ذلك الصوت إياه . فأما إذا تأَهَّبتْ للنُطق بما بعدَه ، وتهيَّأْت له ، ونشّمتَ فيه فقد حال ذلك بينك وبين الوقفة التي يتمكن فيها مِن إشباع ذلك الصويت ، فيستهلك إدراجُك اياه طرفاً من الصوت الذي كان الوقف يقرّه عليه ويسوغُك إمدادُك إياه به » .

فللصوت بحسب اختلاف موقِعه مِن الصيغة عدة وجوه مِن النطق ، يجمعُهَا كلُهَا الصوت نفسُه . ويُعرف هذا في اصطلاح علم اللغة اليوم بالفونيم Phoneme [١] ، أي وحدة الصوت أو الصوت ذو النُطق المتَعَدِّد .

واختلافُ مخارج الأصوات وتعدُّد صفات الأصوات ثم تأليف الكلام منها يوجب مثل هذه الظاهرة . وما بين الأصوات مِن مشابهة ومماثلة أوجدَ سلسلة من الألفاظ التي ترجع إلى اختلاف اللهجي وسِياق النص وائتلاف الكلام ، وبقي أثر هذه الظاهرة في الصوت اللغوي عند صياغته في اللفظ والجملة [٢] .

وإذا أمكن أن يعُدَّ اللغويون وحدات هذه الأصوات فيما نسميه اليوم بحروف

---

(١) انظر An outline of English... P, 49

(٢) انظر An outline of English... P, 217

الهجاء وأن يبلغوا بها نيّفاً وأربعين، ما بين مطّرِد الاستعمال وشاذِّه [1]. فإنَّ البحث في كل وحدَة منها، وهي مُركَّبة في صِيغ الكلام قريب من الاستحالة [2] «لأن ذلك كان يقود إلى استيعاب جميع اللغة». بيد أن كثيراً من ظواهرها عرَض له الدرسُ اللغوي ولا سيما الإدغام والإمالة وبحوث تجويد القرآن الكريم.

ولذا فسوف نعرِض لظواهر هي من شأن الدرس اللغوي، وتكون مثلاً يمكن الاهتداء به في بحث الوحدات الصوتية مركبة.

١ — أنواع الوحدة الصوتية:

لا تخلو الوحدة الصوتية أن تكون أحد صنفين متحركاً أو ساكناً، وكلُ الوحدات الصوتية يجري عليها السكون والحركة بحسَب اختلاف موقعها مِن الصيغة. وتتفاوت الوحدات فيما بينها ساكنة ومتحركة.

والوحدة الساكنة إما هي مبنية وإما هي متحركة ثم أسكنت. وإذا جاءت ساكنة مبنية وكانت بأول اللفظ احتاج صنف منها إلى حركة تلحقها ليتمكن النُطق بها مثل وحدة النون والخاء والباء والميم والثاء واللام في الصيغ الآتية: انبرى، اخضوضر، ابنة، امروء، اثنتان، الفتى.

وإذا جاءت حَشْواً لم تكن في حاجة إلى حركة كما في الصيغ المذكورة مِن وحدة الميم والكاف والعين والسين والباء: عمرو، بكر، نعمان، مستعد، لبلاب.

وتجيء آخراً في صنفي الصِيغ أي اللفظ والجملة، ويحتاج بعض أصنافها إلى الحركة أو جزء من الحركة في الوقف بحسب الحاجة التي تلازم المعنى في الاستعمال،

---

(١) انظر كتاب سيبويه ٢/ ٤٠٤ وأضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ٢٦٤.

(٢) انظر سر صناعة الإعراب ١/ ٤.

وذلك في مثل وحدة الدال والفاء والسين والهمزة والألف في الصيغ التالية : اعتمد ، الخوف ، وسوس ، الثناء ، الورى .

والوحدة المتحركة كذلك يعرِض لها ما يَسلُبهَا الحركة أو يقصُرها أو يضعِفها في نوعي الصيغة جميعاً .

فما وقَع بأول الصيغة مثل وحدة العين والقاف واللام والشين في الصيغ الآتية : عَلم ، قَطع ، لبَس ، شُكر . وتقصُر حركات هذه الوحدات في صيغها الجديدة التالية : لِعِلم ، بقْطع ، كَلبس ، مِن شُكر .

ومما وقع حشْواً مثل وحدة الضاد والكاف والتاء والخاء في الصيغ التالية : عضُد ، وكَف ، عتِب ، سخِط . وتضعُف حركاتها في صيغها الجديدة : عضْد ، واكِف ، عاتِب ، أَسخَط .

ووقع آخِراً مثل وحدة الهمزة والطاء والنون والياء في الصيغ الآتية : وجه وضيءٌ ، القارب شَطَّ ، الجرسُ رَنَّ ، الصَخرة تهوي .

وجانبٌ مِن هذا الاختلاف في الوحدة الصوتية صيغة إنما يرجع الى قدرة النُطق التي تَبدأ قوية ، وتأخذ في الاضمحلال ، لِما عَرَض للنَفَس من استهلاك الأصوات له [١] . وهذا يعني أن أول اللفظ يكون أوضحَ مِن أجزائه التي تتلوه ، أي أن الوحدة الصوتية في اللفظ والعبارة لها من الوضوح والقوة بحسب موقعها .

ولاختلاف الحركات التي تصحَب الوَحدة الصوتية وتلحَقها وتسبِقهَا أثرٌ في قوة تلك الوحدة أو ضعفِهَا ، وفي وضوحها أو غموضهَا .

---

(١) انظر الخصائص ١/ ٢٣٣ .

٢ — الصيغة والتشكيل :

ولا يقَع هذا التأثير في الوَحدة الصوتية وهي مُفْردة ، ولكن في حال ائتِلافها معَ سواها في بُنى اللغة ، أي وهي مصوغة سواء في ألفاظ أو في جمل ، فمِن ذلك أن[1] «مثال فَعْل أعدل الأبنية ، حتى كثُر وشاع وانتشر. وذلك أن فتحة الفاء وسكون العين ، وإسكان اللام ، أحوال مع اختلافها متقاربة ، ألا ترى إلى مضارعة الفتحة للسكون في أشياء. منها أن كل واحد منهما يُهرب إليه مما هو أثقَل منه ، نحو قولك في جمع فُعْله وفِعْلة : فُعُلات ، بضم العين نحو غُرُفات ، وفِعِلات بكسرها نحو كِسِرَات ، ثم يُستَثْقل توالي الضمتين والكسرتين ، فيُهرب عنهما تارة إلى الفتح ، فتقول : غُرَفات وكِسَرات ، وأخرى إلى السكون فتقول : غُرْفات ، وكِسْرات».

وتختلف الصيغة في وحدة مِن وحداتها. ورُبّما اتّفقت في كل صيغها. ولكن لا بد من اختلاف الدلالة ، وإن تقاربَت في بعض جوانبها ، فمن ذلك صيغة «فَعل» باختلاف حركة وحداته في مثل : الدَهن المصدر والدُهن الاسم ودهَن فلان رأسه بالطِيب ، ودهَن أجيرَه بالعصا يدهَنُه ضربَه بها. والقَطْر جمع قَطْرة ومصدر ، والقُطْر الجانب ، يقال : ما أبالي على أي قُطريه وقع ، أي على أيّ جانبيه . والجَلُّ شراع السفينة ، والجَلُّ أيضاً : مصدر جَلّ البعر يجُلّه جَلاً ، إذا لقَطه . والجُلّ جُلّ الدّابة ، وجُلّ الشيء معظمُه . والعَمُّ الجماعة ، والعمّ الطِوال ، نخيل عُمٌّ ، والقُفْل ما يبِس من الشجر ، القُفل مِن الأقفال.

ومنه اختلاف وحدة الميم والعين والخاء والراء والهاء والطاء في هذه الصيغ :

---

(١) انظر الخصائص ١/ ٥٩.

الشَمَع والشَمْع ، والشعَر والشعْر ، والصَخَر والصخْر ، والقَرَع والقرْع ، والفَهَم والفَهْم ، والسطَر والسطْر[1] .

وعلى هذا كان مبنى اللغة . وربما تنكّب مستعملو اللغة بعض ذلك ، فحرّكوا ما هو ساكن أو سكّنوا ما هو متحرك لِغَرَض واضح ، مثل[2] «إسكانهم نحو رُسْلٍ وعَجْزٍ وعَضْدٍ وظَرْفَ وكَرْمَ وَعَلْمَ وكَتْفٍ وكبْدٍ وعصْرٍ... فهل هذا ونحوه إلا لإنعامهم النَظَر في هذا القدر اليسير المختصر مِن الأصوات فكيف بما فوقه مِن الحروف التوامّ ، بل الكلمة مِن جملة الكلام» .

٣ــ قُرْب مخرج الوحدة وبُعْده :

ومرجع هذه الظاهرة إلى مرحلة كانت اللغة فيها قد استقرّت أبنيتُها وصيغها ، وتمَّ ائتِلافها من أصواتها . وانتفى أن يكون فيها[3] «ما شنُع تألفه منها ، نحو : هَعْ ، وقَجْ وكَق... وكانت الأصول وموادُّ الكلم مُعَرضَة لهم ، وعارِضة أنفُسَها على تَخَيُّرِهم ، جرت لذلك عندَهم مَجرى مالٍ مُلقًى بينَ يَدي صاحبه ، وقد أجمع إنفاق بعضه دون بعضه ، فَميَّز رديئه وزائفه ، فنفاه البتة كما نفَوا عنهم تركيبَ ما قُبح تأليفه ، ثم ضرب بيَده إلى ما أطفَّ له من عُرض جيدِه ، فتناوله للحاجة إليه ، وترك البعض ، لأنه لم يُرِد استيعابَ جميع ما بين يديه منه ، لِما قدمنا ذكره ، وهو يرى أنه لو أخذَ ما تركَ ، مكان أَخْذِ ما أخذ لأغنى عن صاحبه ، ولأدى في الحاجة إليه تأديته ، ألا تَرَى أنهم لو استعملوا لجَع مكان نجَع ، لقام مقامه ، وأغنى مغناه» .

---

(١) انظر إصلاح المنطق ١٢٨ ، ١٧٢ .

(٢) انظر الخصائص ١/ ٧٥ .

(٣) انظر الخصائص ١/ ٦٤ .

ولهذا لزم مُراعاة قُرب مخرج الصوت مِن مَخرج سواه وبعده وهو في الصيغة. فوحدة الهاء والكاف والياء والدال إذا جاءت قبل ألف روعي نطقُهَا مُرقّقة. ووحدة الخاء والغين والقاف والضاد إذا جاء بعدَها الف روعي نطقُهَا مفخَّمة مغلّظة. بيد أن الألف بعيدة المخرج مِن أكثر هذه الأصوات. وإنما ذلك حِرْصٌ على طبيعة كل صوت كيلا ينقلِب إلى غيره أو يُلبَس بصوت آخر قريب، ولأن الألِف صوت ضعيف، ليس بحاجز بين الأصوات. ولذا فإن العرب لم تستعمل همزتين مُحقَّقتين مِن أصل كلمة، وتحرص على نُطقها برِفق ولطف، وتتكلف في نطقها مليَّنة وبينَ بينَ وإلقاء حركتها في مثل: اسأل، يؤوب، شيء، آدم، آمن، هؤلاء، إن، سواء أكان، أئذا، أئفكا، من أصلح، لم أرد، الأمن.

ويتكرر الصوت نفسُه في كلمة وكلمتين باتفاق الحركة وباختلافها، فيُشْكل ذلك في السَمْع ويُلبِس في المعنى مثل: «له هو، عنده هدى، فيه هوان، وجوههم، ألهاه، يشبهه، أطع عليا، انزع عنه، لا أبرح حتى، ربح حتى، مَنْ يشاقِق، لم يبق قُلْ، تشكك فيه، أنك كبيرنا».

وتتقارب الوحدة الصوتية مخرجاً مثل صوتي الحاء والهاء: سبِّحه، وضَحه، له حق، ومثل صوتي العين والحاء: لا جنَاح عليك، زحزِح عن، اصفَح عنه. ومثل صوتي القاف والكاف: خلقكَ رَضي، رزقُكم في السماء، اترُك قولي. ومثل صوتي الضاد والظاء: النقض ظاهر هذا بعض الظلم، حضّ ظريفا.

٤ ــ تشابه الوحدة الصوتية وتماثلها:

وأدت الظاهرة السابقة الى ظاهرة التشابه والتماثل(١) التي نشأت عنها عدة

---

(١) انظر An outline of English... P, 217

ظواهر في اللغة العربية ، كما هو الشأن في غيرها من اللغات ، ولا سيما الإدغام والإمالة والإعلال سواء اللهجي منه أم الصرفي.

ومن ذلك : هذا نخلٌ بل سرو بَن صنوبر. وغلام خامِل وخامِن ، جاء زيدٌ فُم سعد ثم أحمد. وبنات بَخْر وبنات مَخر. وابنُ أعصر ويَعصر. وإناء قَربان وكَربان. وجعشوش وجعسوس. وفَسطاط وفَستاط وفَسّاط.

ومنه ما هو بتأثير السِياق وتقارب مخارج الأصوات أو صفاتها مثل : مَن رّأيت ، من رّاق ، هيتّلقف : هي تَتَلقّف ، مَرضيّة ، مدعُوّة ، اطرد ، اظطلم ، الطّجع ، ازدان ، ادعى ، اذكر. الصوق ، صبقت ، صملق : السوق ، سبقت ، سملق.

ومنه ما هو بتأثير التشكيل الداخلي للصيغة مثل : قلت ، بعت ، مطايا ، عطايا ، قائل ، بائع ، جماديات ، حباريات ، مغزى ، مدعى ، حمراوات ، ومراجعة هذا كله يوضّح هذه الظاهرة التي تمَّ فيها حذفُ عين أولِ فعلين وتبديلُ الأصوات حتى استقرا على صورتهما ، وكذا إبدال الهمزة في الاسمين التاليين بعد قَلْب واويهما ياءين ، وكذا إعلال الواو والياء في اسمي الفاعل مِن : قال وباع ، وكذا قلبُ ألف التأنيث مِن اللفظين التاليين بتحريكها ، وقلبُ الياء في الاسمين الأخيرين المنقلبة عن واو ألفاً وَقَلب الهمزة في آخر هذه الألفاظ واواً بعد أن كانت منقلبة عن ألف تأنيث[1].

وللوحدة الصوتية في هذا كله ما يُوضّحها ، ويكشِفُ عن خصائصها ، واختلافها عن مثلها في مواضع أخرى ، غير أن المهم فيها وضوحُها في الصيغة ، وتعيين كميّتها في النُطق ، ومعرفة أثرها ووظيفتها. ويمكن إغفال مراحل اختلافها

(١) انظر الخصائص ٢/ ٣٤٤.

وتغيُّرها ، كما هو حال الهمزة المتطرفة في الأسماء عند التثنية والجمع ، وأحرف العلة وإعلالها ، وألف التأنيث وقلبها ، والاقتصار على ما لها مِن وظيفة وأثر في الصيغة.

٥ — **وظيفة الصوت** :

فإذا كان للفظة صيغة تدل بها على معنى ، وموضِع في الجُملة تُشارك به في الأداء عن معنى ، فلا بد من أن تكون للوحدة الصوتية في اللفظ مثل ذلك الأثر في اللفظة أو أنها تشارك سواها في إحداثه.

فوحدة الهمزة في مثل : أفعَلُ وأفعُل : أحصد ، أزهر ، أكتب ، أقرأ. ووحدة الميم في : مِفعل ، مَفعول : مبرد ، مِثقب ، معسول ، مشروح. ووحدة الياء والتاء والنون تأتي أوائل الفعل الماضي : يدرس ، يزعمون ، تنعم ، ترضين ، نسعد. ووحدة الألف في : درع دِلاص وأدرع دِلاص أي مَلْساء لَيِّنَة ، عُذافر وجُوالِق بفتح أوله في الجمع وبضمّه دون تغيير الصيغة في المفرد. ووحدة الألف والسين والتاء تَلحق أول الفعل الماضي في صيغة استفعل : استعد ، استمد ، استكتب. ووحدة الألف في صيغة فاعَل : نازل ، واعد ، لابَسَ. ووحدة صوت الهاء بآخر العبارة : واماليه ، سلطانيه ، كتابيه ، واغلاميه[1].

فكل وحدة من الوحدات السابقة إنما دخَلَت لغَرَض. فالهمزة في أول الصيغ لبلوغ الشيء حالة ما ، وفي ثانيتها لإسناد الفعل إلى مَنْ يَفعله ، والميم مكسورة لاسم الآلة ، والميم المفتوحة مشاركة في تكوين اسم المفعول ، وأحْرُفُ المضارعة لتغيير زمن الفعل الماضي ، والألف في تكوين صيغة الجمع ووحدات الألف والسين والتاء لِطلب الشيء ، والألف في «فَاعَلَ» لجعل الفعل اثنين فأكثر ، والهاء لبيان الصوت الذي لحقها. وهكذا.

---

(١) انظر الخصائص ٢/ ٩٤ ، ٤٨٠ ، ١/ ٢٣٥.

وللوحدة الصوتية وظيفة أخرى تظهر في نظام الصيغ اللفظية دون الصيغة عامة ولا تعدوها ، لكنها توحي بأشياء عن هذه الخاصة التنظيمية . وذلك واضح في مجيء مثل مصادر الأفعال الآتية على مثال أفعالها شَمْلَلَ شَمْلَلَة ، صعرر صعررة ، بيطر بيطرة ، حوقل حوقلة ، دهور دهورة ، فهي ملحقة بباب دحرج ، فالأفعال والمصادر على نمط واحد صيغة دون اختلاف . وهذا هو الشرط في وظيفة مثل هذه الوحدات الصوتية . وهي تأتي آخراً . وربما أتت أولاً مثل : ألندد يلندد ، وألنجج يلنجج ، وانقحل بمعنى الرجل الهرم ، وإنزهو بمعنى ذي زهو . ومثله تَجفاف وهو ما يوضع على الخيل وقاية لها من الجراح ، وأملود وأظفور ، وإطريح وإسليح أولهما السنامُ يطول ويميل إلى أحد شقيه ، والثاني شجَر ترعاه الإبل فيغزرُ لبنُها ، ويجمعُ بين هذه الأمثلة شيئان تكرارُ الوحدة الصوتية بآخر الصيغة ، أي إتيان وحدتين مقترنتين ، وهذا هو الأكثر ، وتكرارُها بأول الصيغة ، أو مجيئها مفردة وهو أقل .

ونلاحظ أن هذه الصيغ في تماثلها أفعالاً ومصادر إنما هو تنظيم لأبنية الكلام ، وهذا معنى الإلحاق ، لكن معه غرضاً آخر كما في وحدة النون في صيَغ : انطلق ينطلق ، احرنجم ، يحرنطم ، يقعنسس . ومثلها وحدتا التاء والهمزة في : تهلّل وإطريح . فكأن في النون استمرار معنى المطاوعة ، وفي التاء معنى وقوع الفعل في الزمن الحاضر ، وفي الهمزة الطول والزيادة .

ولهذا فلا تقتصر الوظيفة اللغوية في العربية على اللفظة أي الكلمة أو ما هو قريب منها ، وفي معناها ، مثل حروف المعاني ، وعلى الجملة والعبارة تؤديان عن غرض ، وتتضمنان حدثاً لغوياً . ولكن تتجاوز إلى حروف المباني في كثير من صيغها ، وكانت في كثير من أحوالها مؤدية عن وظيفة ، وهو شيء ملاحظ مشهور[1] . وعلى هذا حشوا بحروف المعاني فحصّنوها بكونها حشواً ، وأمنوا عليها

(١) انظر الخصائص ١ / ٣٣٥

ما لا يُؤمن على الأطراف المعرّضة للحذف والإجحاف. وذلك كألف التكسير وياء التصغير، نحو دراهم ودريهم، وقماطر وقميطر. فجرت في ذلك، لكونها حشْواً، مَجرى عين الفعل المحصّنة في غالب الأمر، المرفوعة عن حال الطرفين من الحذف، ألا تَرى إلى كثرة باب عِدة وزِنة وناس، والله في أظهر قولي سيبويْه، وما حكاه أبو زيد مِن قولهم لابَ لَك، وويلَمُه، ويَابا المُغيرة، وكثرة باب يَد ودَم وأَخ وأَب وغد.. فهذا يدلُك على ضنهم بحروف المعاني، وشُحِّهم عليها، حتى قدّموها عناية بها، أو وَسّطوها تحصيناً لها».

والحجة لهذه الظاهرة قيام الوحدة الصوتية مَقام الأخرى كما تقوم اللفظة مقام الأخرى، والجملة مقام أختها، وهكذا[1]. وهو ما شرحتُه في بحث: اللغة وسيلة ملابسة فوضحت هذا الجانب من استعمال اللغة إذ يؤدي بعضها عن بعض لأسباب ودواع ذكرتها هناك.

٦ — الوحدة الصوتية والدلالة:

فهل يلزم عن الظاهرة السابقة أن يكون للوحدة الصوتية شأنٌ أو أثر في الدلالة وكيفْ يكون ذلك؟.

لا بدّ أولاً مِن نبذ القول الذي شاع رَدْحاً مِن الوقت بدلالة الصوت المعنوية إلا في أحوال ضيقة معلومة مثل أسماء الأصوات وأفعالها. وبعض ذلك لا يَقوى أمام حِجاج المعارضين لذلك.

ولا غروَ أن دلالة الصوت مقترنة بموقعه مِن الصيغة. وفي ظاهرة وظيفته توضيح

---

(١) انظر بابي «تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني» ٢/ ١١٣ و«في استعمال الحروف مكان بعضها مكان بعض» ٢/ ٣٠٦ من كتاب الخصائص.

لهذا الجانب. فليست أَحْرف المُضارعة التي تدخلُ على الفعل الماضي إلا لِتؤثّر في مدلوله فضلاً عن تغييرها في صيغته. وكذلك ألف التكسير وياء التصغير وألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة وتاء الفاعل وتاء التأنيث. فهذا واضح جَليّ. بل إن حروف الإلحاق لَتفيد معناه وتكشف عن شأنها وأثرها في صيغة اللفظ بتعيين صنفه وتحديد نوعه.

غير أن حرصَ العَرب على الدلالة أدّاهم إلى العناية بنُطق الوحدة الصوتية بمقتضى موقعها من الصيغة. فمِن ذلك وحدة الهمزة إذا جاءت بطرَف اللفظ، ووُقِفَ عليها مثل: شاء، جاء، مضيء، سيء، يبوء، ينوء، شيء، سوء. فهي مختلفة في السمع إذا وُقِفَ عليها، ولا بدّ في إظهارها من إطالَة مَدّ وحدة صوت المد واللين وصوت اللين قبلَها، وإلّا فإن الوقف يسلُبُها كثيراً مِن صوتها، ويتسبَّب ذلك في غموض المعنى الذي تتضمنه الصيغة لفظاً وجملة.

ووحدة الهاء ضعيفة لِهَمْسِها وخَفيّة في النُطق، وتركُ إظهارها وبيانها بنفَس يقرِّبُها من صوت الفتحة أو الألف التي لم تطل، أو لحقها جَور مِن صوت مجاوِر، وبيانها مكررة في كلمة أو كلمتين يحول دون ذلك مثل: له جاه، وبه قوه، جباههم مرتفعة، أَلهاه هواه، إكراههم ظلم.

ومثلها وحدةُ الألف التي لا تعدو أن تكون صدى فتحة طالت في فَراغ الحَلْق ولا سيما إذا جاورت صوتاً مهموساً شديداً أو صوتاً مُشَدّداً، فإذا لم تطُل بعضَ الشيء خفِيت جداً حتى كأنها لم تُنطَق، مثل: باء، جاء، وضّاء، للضّالين.

وبعضُ الوحدات تنحَرِفُ إلى أختها في المخرج أو المجاورة لها، وذلك مثل وحدة الشين سبقَتْها أختُها الجيم، فلا بدّ مِن بيانها وإظهار صفة التفشّي فيها حتى لا تتحول الى جيم، مثل: أشجار، شجر، شجع.

ومثلها وحدة الجيم التي تُسكن وتسبِقُها التاء المهموسة الشديدة فإذا لم تُبيَّن الجيم انحرفت إلى الشين، مثل : اجتمع ، اجتماع ، اجتر.

وأكثر من ذلك أن ينحرِفَ اللفظ كله مِن معنى إلى آخر بسَبَب غُموض الوحدة الصوتية فيه ، مثل : أسر ، إسرار ، سحب ، قسم ، سار ، يسير ، فتركُ بيان وحدة السين يُحوِّلُها إلى صاد فتصبح : أصر ، إصرار ، صحب ، قصم ، صار ، يصبر.

ومثلها وحدة الظاء إذا لم تبيّن تحولت إلى ذال ، مثل : حظر ، محظور ، حذر ، محذور.

فلهذا اختار قُرّاء القرآن الكريم طريقة الترتيل التي يُجوِّد المقرىء فيها نُطق الوحدات الصوتية مخرجاً وصفة ، وإن أخذ بالطريقتين الأُخريين ، وهما التدوير والحَدْر مع الحرص فيهما على العناية بالنطق ، ذلك لأن[1] «الكلام إنما وُضع للفائدة ، والفائدة لا تُجنى مِن الكلمة الواحدة ، وإنما تُجنى مِن الجمل ومدارج القول» ومقتضى هذا النُطق المجود لأصوات اللغة ، ومراعاة خصائصها ، لتحقيق الغرض من اللغة.

---

(١) انظر الخصائص ٢/ ٣٣١.

الفصل السادس

المصوتات وما هو مثلُها

المُصوِتات وما هو مثلُهَا

١ — لا يُمكِنُ أن نذكُرَ شيئاً من شأن هذا الصنف مِن أصوات العربية دون أن نرجِعَ إلى تاريخ اللغة . فالعربية هي وريثة اللغات السامية في احتفاظها بكثير مِن خصائص اللغة الأم . ولا نَتبيَّن ذلك في غير الوثائق التي لم تزَل مخطوطات التُراث من العربية تومىء إليه وتكشِف عنه ، وفيما كتَبَ مُؤَرِّخُو اللغات عنها .

والمصوّتات في العربية مثلُها في اللغات السامية جميعاً ، انصرفَ إليها المؤرخون وخصّوها بالبحث . فإن فيفريه إزاء كتابة الفينيقيين يقِفُ حائراً يتساءل[1] «كيف تأَتّى للفينيقيين أن يُحطموا وحْدَةَ المَقْطَع لِيَصِلوا إلى الحرف الصحيح مع إهمال حرف العلة» . ويرى مايّيه أنهم أي الفينيقيون جديرون بمكانة مهمة في اختراع الكتابة . بل يذهب إلى أن الإغريق لم يكن لِيَتَسَنّى لهم أن يوجدوا كتابتهم للأبجدية لولا استخلاصُهم ذلك من الأسلوب الفينيقي[2] .

وهي ، كما بات واضحاً ، ذاتُ أهمية بالغة في نطق اللغة ، بل إنها في أغلب وجوه استعمال اللغة تؤثِّر في تغيير صِيغِها ومدلولاتها . وفي إحصاء يَسير قام به الأب «هنري فِليش» لعدة آيات مِن سورة البقرة نجد أن نسبة ورود الفتحة فيها ٥٤,٤ ٪ ونسبة ورود الضمة ٢٤,٨ ٪ ونسبة ورود الكسرة ٢٠,٨ ، ونسبة ورود المصوتين المزدوجين أي صوتا اللين مرة واحدة[3] .

---

(١) انظر تاريخ علم اللغة ٧٥.

(٢) انظر تاريخ علم اللغة ٨٤.

(٣) انظر العربية الفصحى ٣٦.

وفي الأمثلة التالية بالرغم مِن أنها لا تفي بالغرض تظهَر لنا أهمية هذه الأصوات من حيث اختلافُها برَأْي العين الذي يمكن أن يوحي بوجوه النطق وأثرها في الصيغة والمدلول بعد ذلك.

ففي مادة: ضلّ، وضنّ، ومسّ، وهلم، وخاتِم، وسؤم، وذم، وخزل، بعضُ صور استعمالها دون تعيين للهجة ومستواها: ضلِلت أضَلّ وأضِلّ، وضنِنت أضَن وأضِنّ. ومَسِست أمسّه مسّاً ومسيساً. هلمَّ وهلمّا وهلمّوا وهلمن. وخاتَم وخيتام وخاتام، وسيما وسيماء، وسيمياء، والذيم والذام، والخوزلي والخَيْزلي والخَيزري والخوزري وهي مشية فيها تفكُّك[1].

وتُعدّ هذه الظاهرة من أسباب الإجازة التي تضمنتها أحاديثُ الأحرفِ السَّبْعة المروية بعبارات مختلفة، وقد اقترن أكثرها بوقائعَ في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت إجابته عنها في كل مرّة نصاً من نصوصها، أو تكراراً لنصٍّ منها. والخبر الآتي يشير إلى سبب مضمونها، ويوضّح أهميّة دراسة هذه الأصوات في تعلُّم اللغة قال أبو حاتم السجستاني[2] «قرأَ عليَّ أعرابيٌّ بالحَرَم: «طِيبى لهُم وحُسْن مآب» فقلت: طوبى، فقال طيبى، فأعَدْتُ فقلت: طوبى، فقال: طيبى، فلمّا طال عليّ قلت: طوطو، قال: طي طي».

وهذا الجانبُ نفسُه الذي انصرفت إليه عناية أبي الأسود الدؤلي عندما نقّط المصحف وذلك في قوله للرجل العَبْقَسي الذي تخيَّره[3] «خُذ المصحف وصِبْغاً

---

(1) انظر إصلاح المنطق ٢٠٦، ٢١١، ٢٩٠، ٩٣، ٨٧.

(2) انظر الخصائص ١/ ٧٦.

(3) انظر إيضاح الوقف والإبتداء ٤١ والخبر في البيان والتبيين ٢/ ٢٣٦ ومراتب النحويين ١٠.

يُخالِفُ لونَ المِداد . فإذا فتحتُ شفتيَّ فانقُط واحدة فوق الحرف . وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف . وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله . فإن أتبعت شيئاً مِن هذه الحركات غُنّة فانقط نقطتين» . وتقدَّم قولي في عمل أبي الأسود هذا إنه نتيجة مراحل يسَّرت له ، بتأثير الوقائع الجديدة لتلاوة القرآن الكريم ، أن يستخلص هذه العلامات . والحجة في ذلك وجوه اختلاف جمع المذكر السالم وتثنية الاسم والأسماء الستة . وما في العبرية من ذلك ، لما بين تَنقيط أبي الأسود وموقعه من الكلام وواو الجماعة أو الياء علامة النصب في جمع المذكر والتثنية وألف التثنية والتنوين ، وكذا النون بآخر جَمْع المذكر والمثنى ، مِن مشابهة واضحة بآخر اللفظ . وإن كان مِن المحتمل أن يكون تنقيط أبي الأسود شمل مواقع أخرى من اللفظ .

ويماثل اليوم عمل أبي الأسود الدّؤلي في اتخاذه الشفتين وسيلة في تعيين المُصوّتات ما قام به اللغوي الإنكليزي «دانيال جونز» في استخلاصه الحركات المعيارية[1] .

فهذا شيء مختصر حول أهمية المُصوِّتات وتاريخها رأيت أن أذكره قبل الانصراف إلى الفقرات التالية من هذا الفصل.

٢ ــ الوقف والوصل :

ولا يَخفى أن الكلام فضلاً عن ألفاظه متصل بعضه ببعض . ويلزم عن هذا الاتصال طولُ وقِصر في الأصوات ، وقُوة وضعف ، وظهور وخفاء[2] .

---

(١) انظر An outline of English... P. 29,39

(٢) انظر الخصائص ٢ / ٣٣١ .

و «اعتراض الوقف لا يُحفَل به ، ولا يقع العمل عليه . وإنما المُعتبر بحال الوصل .
ألا تراك تقول في بعض الوقف : هذا بكُرْ ، ومررت ببكِر ، فتنقل حركة الإعراب
إلى حشو الكلمة» ولا يلزم عن الوقف على آخر اللفظ مثلما يَلزَم عن الوصل بين
اللفظ من الحركات . وإن كان للوقف على آخر اللفظ أحكام هي بمكان من الأهمية
لصلتها بأصوات اللغة واختلاف مخارجها وصفاتها ، وتباين اللهجات في نُطْقها ،
وبالنحو ومذاهبه في حركة أواخر الألفاظ ، وبالمعاني ووجوه تمامها وجودتها . بيد
أن الحركات التي تنشأ في الوقف تقتصِرُ في جُملتها على إضعاف قوة الصوت الموقوف
عليه بِطَرْحِ حركته فقط أو بِطَرْحِها وخفائه معاً ، أو ببقاء بعض حركته مع بعض
النُطق به ، مثل : القمر يطلع ، الطفل لن يمشي ، هؤلاء المخلصون. فالعين من
«يطلع» طُرحت حركتها وهي الضمة وآلت إلى شيء من الخفاء ، ولو كانت الهمزة
مكانها لكان خفاؤها أقوى ، وذلك لاختلاف مخرج الصوتين. وحركة الياء وهي
الفتحة قد ذهبت ونطقُ الياء داخَلَ الشين وطغى عليه تَفشّيها إلا إذا زيد في نُطقها
وهو صوت مدّ ولين. وأما الواو مِن «المخلصون» فبقيت وبقيت النون التي هيَ بمَقام
التنوين في المفرد النكرة. وهناك أنواع أخرى مِن أصوات الحركات تنشأ في الوقف
سوف تُذكر في الفقرة التالية. ·

بيد أن الوصلَ تَلْزَم عنه كل أنواع الحركات أي المُصوّتات وما هو في حُكمها ،
لأن الأصوات في الصيغ يتداخل بعضها في بعض. فالناطق محتاج إلى أن يؤدي عن
معان في نفسه . فهو يختار مِن اللفظ بحسَب الحاجة ويسوقها على ترتيبٍ بمقتضى
تلك المعاني ، والأداء عن هذه المعاني يتِمّ بصيغ من اللفظ مختلفة الطول والقصر ،
ومتباينة الموضع والتأليف، ولهذا فإن الوصل يقتضي الاستعانة بكل أنواع
المصوّتات.

٣ـ أصناف الحركات :

لم تزل المُصوتات في العربية محصورة في ثلاثة هي : الفتحة والضمة والكسرة بمقاديرها الستة أي الفتحة القصيرة والطويلة ، والضمة القصيرة والطويلة ، والكسرة القصيرة والطويلة ، وذلك لأثرها في تشكيل الصيغ ونظام الجملة .

وإذا عرض البحث للتفخيم كما في الأمثلة الآتية : الصلٰاة ، الطلٰاق ، بظلٰام . إذ تُلفظ الألف فيها قريبة من لفظ الواو ، وللإمالة كما في الأمثلة التالية : الضُحى ، هُدى ، غافِر . إذ تُلفظ الألف فيها قريبة مِن لفظ الياء ، لم يفرد الكلام على هذه الألف من سواها بل هي ألف في كل حال .

بل إن هناك أنواعاً أخرى من الحركات كثيرة الاستعمال لا تُذكر في المصوتات ويتناولها الحديث في معرض النحو ومذاهبه ، ونظم الكلام دون أن يوفيها حقّها ، أو يضعها في صنف معين من اللغة .

ولهذا فنحن في حاجة إلى دراسة وافية للمُصوتات تعينها وتنظمها في سلسلة بحسَب ماهية أصواتها وصفاتها ووظائفها . وليس ذكرها في هذا البحث إلا إثارة لموضوعها ، وتنبيها على أهميتها . وعسى أن يتسنى لي ولسواي ممن يُعنَون بهذا الجانب مِن الدرس اللغوي القيام بذلك ، أو الشروع فيه .

والمصوتات كما هي الأصوات الصامتة متفاوتة قوة وضعفاً ، ظهوراً وخفاءً . ولا سبيل إلى تناولها بحسَب هذا التفاوت . ولكن سنبدأ بما هو مُطَّرد كثير الاستعمال منها ، ونتبعه بغيره مما هو أقل اطرادا واستعمالا .

فالمصوتات القصيرة لها من الأهمية في تساوق اللفظ وإمكان النُطق بأصوات اللغة ، ما يقصر البحث الدقيق عن إدراك كنهه والإحاطة به . ولكن الاطلاع على

تباين دلالة الألفاظ ، المتّفقة الجُذور ، المختلفة الحركات ، توضيح للغرض . وكذلك الأمر في نظام الكلام .

فالضمة والكسرة في الأمثلة الآتية نابَتا عن سواهما من أصوات هي جذور في اللفظ وأقامتا الأمثلة دون أن يَلحقها خلَل : يَغزون ، يَدعون ، يَسمون ، يَمشون ، يَقضُون ، يكبُون . تَمشِين ، تَهدين ، تَمضين . ومراجعة هذه الأمثلة قبل إسنادها إلى جماعة المذكر والمخاطبة وملاحظة التغيير الذي وقع فيها من إسقاط لام الفعل ، وإنابة الضمة التي كانت مقدرة عليها وجعلها قبل ضمير الجماعة ، وتقديم الكسرة التي بقيت من اللام المحذوفة مِن الافعال المسندة إلى المخاطبة ، كل ذلك يبيّن شأن هذه المصوتات .

وتُمازج الحركةُ الحركة ، أي تُشرَب بعض لفظ أُختها . ومن ذلك خلْطُ الكسرة نُطقَ الضمة في مثل الأفعال الآتية[1] : «قِيل ، سُيء ، سُيق ، حُيل» التي أصل العين فيها واو ثم اعتلت إذ بُنيت للمجهول .

وتتبع الحركة الحركة فيسهُل النطقُ كما في الأمثلة التالية : ادنُ ، ادعُ ، ابتعِد ، استقم ، الحمد لله ، الحمدُ لله ، مدُّ ، عضّ ، فِرّ[2] .

ومصوتُ الفتحة بنوعيها القصير والطويل أكثر في اللغة مِن أخويه الضمة والكسرة ، وذلك لمذاقها استثقالا وخفة . وأمثلة ذلك في كثرة الفتح دون الضم والكسر ، وربما كان اختيار بَلْحارث بن كَعْب لصيغة نصب المثنى بمصوت الألف

---

(١) انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٢٢٩ .

(٢) انظر الخصائص ٣/ ١٧٩ .

في حالاته الثلاث على ما روي[1] من لهجتهم لخفّة مصوت الفتح. وكذلك اقترانها بلام التعريف، وتوالي المصوتين القصيرين منها في المثال وقلة ذلك في الضمة والكسرة.

وينوب المُصوِّت عن الآخر، ويحُل مكانه. وأكثر ذلك في مصوتي الضم والكسر الطويلين من ذلك: الفَتوى، الرَعوى، التَقوى، الفُتوَّة، القُوَّة، النِيَّة، القِسيّ.

وقلبتَ الألف واواً وياء في مثل: نودي، عودي، احتيج، استُميل، لِيم، هِيل. وتُمال نحو الياء في بعض اللهجات، فتدل على أصلها، من ذلك: رِمى، سِعى، هِدِى، رأىِ، أعمِى، بشِرى، الجِار.

وتصل الألف بين جزئي الكلام دَرْجاً وابتداء إذا كان أول اللفظ الذي يُرَاد النطق به محركاً بالسُكون، من ذلك: الصوت انطلق نديا. استمع إليه، واهتمّ بتذوقه. اسع، امضِ، احفظ المعروف. فألف «انطلق واستمع، واهتم» وبقية الأفعال إنما هي حركة، نستعملها في الكلام بحسَب صيغ اللفظ والعبارة، فمرةً هي بلفظ الفتحة، ومرةً بلفظ الكسرة، ومرة بلفظ الضمة، غير أن صورتها في الخط ألف، وذلك لنظام اتبعه واضعوا الخط أو الذين تناولوه بالتطوير فيما بعد.

وتفرُق بين المتماثلين ليمكن النطق بهما، ويظهرا متميزين، في مثل: اسمعنان، اكتبنان، اسألنان، احفظان، ادرسان.

وتُشرَب الألف ايضاً مقداراً من صوت الياء في مثل: الضحَى، الهدىَ، الكتاَب، أسارَى، غاَفِر، رِمىَ، سِعىَ، نهِىَ. فتسمع قريبة جداً من الياء. ويتم

---

(١) انظر الخصائص ٢/ ١٤.

ذلك بأن يُنحى بالفتحة التي قبل الألف نحو الكسرة وبالألف نحو الياء. وهذه الألف في إمالة القراءات نوعان أحدهما هذه أي القريبة من الياء وثانيهما ألف فيها بعض نطق الياء، . وإمالتها بين بين[1].

وتأتي أصوات العلة الثلاثة بآخر بعض الألفاظ وهي أصول فيها، فيغيب صوت الإعراب، وسبب ذلك تواتر الحركات، وهو في نُطق أهل هذه اللغة مستَثْقل بل ممتنع أحياناً. ولهذا اختُلست الحركات هرباً من تواليها. وهذه الأصوات وإن كانت أصولا في صنف من الأبنية فإن نُطقها وخصائصها يُبقيها ضمن أصوات الحركات، مثل ذلك في: النوى، العدى، موسى، عيسى، رجا، قضى، عدا، يمسي، يرمي، يسمو، يكبو.

وهناك ما يُشبه الحركة لكنها دون صوت يسمع منها، وذلك مثل: سعدُ، شيءٌ، نسألُكم، نُسْدِلُهَا. للعلم، ليُهدِ، للمثُل. إذا وُقف عليها، وأُريد بيان أي حركة كانت حركةُ آخرها، أو ما هو في حكم الآخر، حرَّكَ المتكلِم شفتيه بهيئة تلك الحركة سواء كانت ضمة أم كسرة، دون صوتها.

ويعرف هذا بالإشمام الذي هو[2] «في عرف القراء يُطلق باعتبار أربعة: أحدها خلطُ حرف بحرف كما في الصراط، وما يأتي في: أصدق، ومصيطر، والثاني خلطُ حركة بأُخرى كما في: قِيل، وغِيض، وأشباهها. والثالث إخفاء الحَركة، فيكون بين الإسكان والتحريك كما في «تأمنًا على يوسف» على ظاهر عبارة صاحب التيسير. والرابع ضمُّ الشفتين بعد سكون الحرف».

---

(١) انظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ١٧٨.

(٢) انظر إبراز المعاني ٥٦، وأيضاً الحجة في عِلَل القراءات السبع ١/ ١٥٨.

ولكن إذا سُمع بعض صوتها وقفا في مثل : القانتاتُ، العابداتُ، حيثُ، جزءُ، دفءُ، غوادِ، عوادِ، فقد رُمت الحركة، وهو[1] إتيانك في الوقف بحركة ضعيفة غير كاملة يسمعها الأعمى» وذكر الأعمى ههنا تمييزٌ للروم مِن الإشمام. فهذا لا يراه إلا البصير والروم يسمَعه الأعمى والبصير، أي أن هذا يتم بحركة.

وتثقل بعضُ الأصوات أكثر مِن سواها. وهو ما حدا بالمتحدثين بها أن يتخفَّفوا في شيء مِن نطقهم لها كما في مثل : الشَان، الدَاب، المَسُول، الاخرة، الرْض، أنَ بْدأ، عَن خيه، وكانت قبل ذلك هكذا : الشأْن، الدأْب، المسْؤول، الآخرة، لأرْض، أنْ أبدأ، عنْ أخيه. وتخففهم في نطقهم ثمّ بطرح صوت الهمزة، ونقل حركته إلى الصوت الذي قبلها وهو محرك بالسكون. وهذا ما يُعرف بنقل حركة الهمزة[2].

وتَلحَق النون الأفعال الخمسة في حالة الرفع وجمع المذكر السالم والمثنى في غير حالة الإضافة. وهي في الصنفين حركة تدلُّ على موقع معنوي، وصيغة في نظام العبارة. ويزدوج صوتها أحياناً كثيرة ولا سيما في حال وصل الكلام، فكيف تنطق، ولماذا تُنطق مفتوحة مرة، ومكسورة مرة أخرى، ولماذا تسكُن مرة ثالثة؟

ومثل ذلك التنوين، وهو يسمع في الكلام وصلاً ووقفاً، في مثل : لبيبُن أنت، صالحُن القول، هن مُحسناتن إلينا، جاء ضاحكَن، نهضت غاضبَتن، ارحم صغيرَن، ووقِر كبيرَن. وهي تكتب هكذا : لبيبٌ أنت، صالحٌ القول، هن محسناتٌ إلينا، جاء ضاحكاً، نهضتْ غاضبةٌ، ارحَم صغيراً ووقِر كبيراً. وهو صوت كغيره من الأصوات يتأثر ويؤثر في صلة الكلام بعضه ببعض.

---

(١) انظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ١٢٢.

(٢) انظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٨٩.

وصوت الهاء يختِم بعضَ الألفاظ وصلاً ووقفاً ، وذلك في مثل : كتابيه ، نواليه ، غلاميَه ، وأرأساه ، واعمراه ، أسعداه ، أمصطفاه ، وهو في هذا كله توضيح للصوت الضعيف الذي قبله ، وربما زاد في معنى أسلوب الصيغة التي دخلها ولا سيما الندبة والإنكار . فهو في كل حال صوت . ويُشبهه صوت الهاء وهو أصل أو جزء مِن الكلمة في حالة الوقف مثل : طلحه ، حمزه ، السالمه ، واضحه .

وأخيراً حركة السكون ، ما هي أحركة أم لا؟ إن فهم السكون ما هو في نطق الكلام يوضِّح ما هو بين الحركات ، ووظيفته . إن ابن جني في حديثه عن جمع فُعْلة وفِعْلة في صورتيه : فُعُلات وفِعِلات ، مثل : غُرُفات وكِسِرات ، ذكر أنّ توالي الحركات مستثقل . وأهل اللغة يهربون منه إما الى الفتح مثل : غُرَفات ، كِسَرات ، وإما إلى السكون مثل : غُرْفات وكِسْرات ويرى ذلك مِن مضارعة السكون للفتح في اشياء منها الاستعانة بأحدهما في موضع صاحبه كما تقدّم في الأمثلة السابقة وتكسير «فَعْل» الواوي ساكن العين على «فِعال» مثل ثوب ثياب ، حوض حياض ، وكذلك تكسير «فعَل» الواوي مفتوح العين مثل : جواد جياد[1] . وأوضح من ذلك[2] أن الساكن إذا أُدرج ليست له حال الموقوف عليه أنك قد تجمع في الوقف بين الساكنين ، نحو : بَكْرْ وعمْرْو ، فلو كانت حال سكون كاف بكْر كحال سكون رائه ، لما جاز أن تجمع بينهما ، من حيث كان الوقف للسكون على الكاف كحاله لو لم يكن بعده شيء» . وهذا يعني أن السكون ليس تركاً لنطق الصوت والتلفظ به . وإنما هو درجة من النطق تُشبه حال النطق بالصوت المحرك بالفتح[3] «لأن أصل الإدراج للمتحرك إذ كانت الحركة سببا له ، وعوناً عليه ، ألا

---

(١) انظر الخصائص ١/ ٥٩.

(٢) انظر الخصائص ١/ ٦٠.

(٣) انظر الخصائص ١/ ٥٨.

ترى أن حركته تنتقصه ما يتبعه مِن ذلك الصويت، نحو قولك: صَبر، وسَلم. فحركة الحرف تسلُبه الصوت الذي يُسعفه الوقف به، كما أن تأهُّبك للنُطق بما بعده يستهلك بعضه. فأقوى أحوال ذلك الصويت عندك أن تقف عليه، فتقول: اِص. فإن أنت أدرجته انتقصته بعضه، فقلت: اصبر، فإن أنت حركته اخترمت الصوت البتة، وذلك قولك: صَبر. فحركة ذلك الحرف تسلُبه ذلك الصوت البتة، والوقوف عليه يُمكِّنه فيه، وإدراج الساكن يبقّي عليه بعضه». فهل بقي شَكٌّ بعد هذا أن السكون حركة وليس تركاً لنطق الصوت واللفظ به؟ وكيف يكون كذلك ونحن في واقع الحال نسمع الصوت المحرَّك بالسكون؟ والأصوات التي تُحرَّك بالسكون في مختلف مواضع الصيغة مختلفة اختلاف مخارجها وصفاتها. ولهذا فإن بعضها أوضح من بعض في السمع. وليس تحريك الألفاظ روما وإشماماً وإشباعاً لحركتها، وتذييلها بصوت النون، وإثبات التنوين، إلا رغبة في ذلك الوضوح. لكن السكون حركةٌ كغيرها لها وظيفة تؤديها في الصيغة. والأمثلة التالية تكشِف عن حقيقة هذه الحركة المُبْهَمة بين أصوات اللغة العربية: سَعْي، ركْض، قُرْب، مَوْضوع، مُستْباح، ضَيْغم، يَشْرَب، يَنْتحي، يُسبَحِل، يُهَلِّل. فهذه الألفاظ أسماءٌ وأفعال، وهي مختلفة الصيغة، لكنها جميعاً تأتَلِف من أصوات صامتة وصائتة وجميعها أيضاً تتناوبها الحركاتُ مِن فتح وضمّ وكَسْر وسُكون وتَكفي الملاحظة في نُطقها كيف أن الصوت المتحرك يَتلوه صوت ساكن يتلو هذا صوتٌ متحرك. وربما توالى ساكنان، أي صوتان حركة كل منهما السكون. فكيف يتمكّن الناطق مِن تجاوز الصوت المحرك بالسكون بعد لفظه الصوت المحرك الذي قبله إذا كان السكون كما هو مفهوم عامة إلا أن يَتحرَّك ذلك الصوت الساكن، وهذا خلافٌ للمألوف أو أن يَقبل مفهوم السكون الذي نراه، وهو أنه حركة مثل الفتح، وقريب منه، ويُسمع بنُطق الصوت على نحو من السمع به في الأذُن، بحسَب مخرجه وصفاته وموقعه من الصيغة.

٤ــ موضع الحركة من الصوت :

وهذا العنوان يثير الكلام على الفَرْق بين الأصوات بصنفيها : أي الصامتة والصائتة ! والحركات ، على أن الحركات ، في معرض هذا الكلام ، شيء ثانوي ، دخل على أصوات اللغة في صيغها . وللخط ورَسْم اللغة أثر في هذا الإشكال ، كما أن لأسلوب اكتساب اللغة أثراً في الخَلْط بين مفاهيم اللغة ومدلولاتها في الاستعمال .

ففي استقرار منهج اكتساب اللغة من حيث السماع أولا ، وتدوين أصواتها بهذا الخط المعروف ودقة هذا التدوين والكتابة به ثانيا ، ووضوح مفاهيم اللغة اصطلاحاً ومدلولاً ثالثا ، ودقة استعمال ذلك منطوقاً ومكتوباً أو مطبوعاً رابعاً ، في ذلك كله نجاح لاكتساب اللغة واستعمالها .

والبحث في موضِع الحركة مِن الصوت اللغوي يوجب علينا أن نذكُر عِدَة بديهيات في مفردات الأصوات . منها أن الحركة صوت ، وليست شيئاً آخر مخالِفاً لأصوات اللغة إلا في كميته ووظيفته ، وفي كتابة هذه اللغة ، إذ خُصَّ برموز ، جُعِلَت في مواضِعَ من اللفظ .. ومنها أن أصوات اللغة مختلفة في صفاتها ، فكلُّ صوت له عِدة صفات . فهو يؤثر بها في غيره من الأصوات ، ويتأثر بصفات غيرِه في حال تَشَكُّل الألفاظ وصيغ الكلام . والإدغام والإمالة ، والتفخيم والمدّ إنما هي ظواهر نشأت بأثر الصيغة لفظاً وعبارة . ومنها أن أثر الصيغة لا يقتصِر على أصوات من اللغة دونَ غيرها . ولهذا فليست الحركات إلا بعض أصوات اللغة . بيد أن بعض الحركات في العربية ، ولا سيما الفتحة والضمة والكسرة القصيرة تُشكل في النُطق ، فتحمِل الباحثين على الخلاف في موضِعها من الصيغة [1] «وسبب هذا الخلاف لطفُ الأمر وغموض الحال» .

---

(١) انظر الخصائص ٢ / ١١٠ وأيضاً ٣٢١.

فإذا كان نُطق لفظه مثل : بَدأ ، كتاب ، قِنديل ، يُظهرنا على أن الباء من « بدأ » أولُ حرف فيها ، والهمزة آخر حرف . والتاءُ مِن كتاب هو الحرف الثاني ، والباء هو آخر حرف منها ، وأن القاف أول حرف مِن لفظ « قِنديل » والياء رابع حرف ، واللام آخر حرف منها ، فلا بد أن النُطق أيضاً يَقِفنا على حقيقة الحركات في صِيغ هذه الألفاظ وسواها ، كما يقِفنا على حقيقة الحركات في دَرْج الكلام . وحكمُ ذلك لمسموع الأذن ، وما هو في حُكمها ، من أجهزة تسجيل اللغة وأصواتها .

ولا بد مع هذا من أن تكون الحركات الثلاث لِما ذُكِر من صفة خفائها ، إما قبل الحرف وإما معه وإما بعده . وكان لكل حالة مُؤيّدون من علماء السَلف .

وعرض ابنُ جنّي لإبطال قول مَن قال بأن الحركة قبل الحرف ، فمَثَّل لذلك بقلب الواو ياء في ميزان وميعاد اللتين كانتا قبل القَلْب : مِوْزان ، مِوْعاد . ورأيه أن الكسرة لو كانت قبل الميم في اللفظتين لبقيت الواو ، لأن الميم حجَزت بينها وبين الكسرة التي أثرت فيها ، فسبَّبت قلبها ياء . ولهذا فلا بد من أن تكون بعد الميم ليُصبح قلب الواو ياء . وكذلك الإدغام ، فلو كانت الحركة قبل الحرف لحجَزت بين الحرفين المتماثلين ، وبطل الإدغام .

وعرض أيضاً لقول من قال إنها مع الحرف فمثل ذلك بالجمع بين فعلي الأمر من « طَوَى ووَجِل » ، أي اِطْوِ اوْجَل . فالوصل بينهما في حالة الأمر عنده يوجب قَلْبَ الواو مِن اوجل إلى ياء ، لأن الكسرة قبلها تجتذبها إليها ، وتؤثر فيها ، فيُلفظ الفعلان هكذا : « اطوِ ايْجَل » ، وذكر أن هناك تقارُباً صوتياً وتماثلاً . فالكسرة قوية ، والواو لام الفعل الأول ، والواو الثانية فاء الفعل الثاني ، متوافقتان في اللفظ . فهذا كله كان لا بد فيه من التوازن الذي صَيَّرَ الواو مِن « اوجل » ياء . ودلَّ على[1]

---

(1) انظر الخصائص ٢/ ٣٢٣.

«أن الكسرة أدنى إليها من الواو قبلها» وإذا كانت أدنى إليها كانت بعد الواو المحركة بها لا محالة».

وهذا الكلام مع ما مثّل به ابن جني فيه ما يُبطله من حيث إن الحركة بعد الحرف لا قبله ولا بعده. بل إن ابن جني يوشك أن يقول شيئاً آخر، منه قولُ أبي علي شيخِه في صوت النون المتحركة. فهو يرى أنها تحدُث من الأنف كما تحدُث النون الساكنة. فالحركة لا تُفيد في حدوثها إذا كانت تحدُث بعد الحرف. واستدلَّ على أن حركة النون بعدها بانقلاب النون الساكنة ميماً في مثل: عنبر، شنباء: عمبر شمباء. فلولا أن الباء بعد النون وأثّرت فيها لما قلبَتْها ميماً. فكذلك النون المتحركة، لولا أن حركتها بعدها لما اجتذبَتْها مِن الأنف إلى الفم.

ومنه كلامه على إعلال فاء «وعد، ووزن» في صيغة المضارع، فحذَفها لأنها بين ياء وكسرة، وهذا على قول النحويين. فالكسرة على هذا قبل الحرف، وقد أثرت في الواو فحُذفت. ولو أن الكسرة كانت بعد الحرف لما حُذفت. وتفسير ابن جني لهذا[1] «أن غرض القوم فيه ليس ما قدَّرته ولا ما تصوّرته، وإنما هو أن قبلها ياءً وبعدَها كسرةً، وهما مُستَثْقلتان. فأما أن تُماسّا الواو وتباشراها على ما فرضْته وادعيته فلا وهذا كثير في الكلام والاستعمال».

وأما ذكرُه لحركة ألف الوصل في موافقة ما سبَقها في صيغة اللفظ مثل: أُدخُل، أُدنُ، استعِد، استمِل. وتفسيرُه له بأنه غُيّر مقدّماً، لِتوقُّع ما يردُ مِن بعده متأخرا، فمثل آخر على أن الحركة لها أثر قبل الحرف. لكنه ظل يرى أن الحركة تحدُث بعد الحرف بحُجة[2] «أن الحرف لا يُجامع حرفاً آخر فينشآن معاً في وقت

(١) انظر الخصائص ٢/ ٣٢٦.

(٢) انظر الخصائص ٢/ ٣٢٧.

واحد ، فكذلك بعض الحرف لا يجوز أن ينشأ مع حرف آخر في وقت واحد ، لأن حكم البعض في هذا جارٍ مَجرى حكم الكل . ولا يجوز أن يُتصوَّر أن حرفاً من الحروف حدث بعضا مُضافاً لِحرف ، وبقيّته مِن بعده في غير ذلك الحرف ، لا في زمانٍ واحد ولا في زمانين . فهذا يُفسِد قول من قال : إن الحركة تحدُث مع حرفها المُتحرِّك بها أو قبلَه أيضا ، ألا ترى أن الحرف الناشىء عن الحركة لو ظهر لم يظهر إلاّ بعد الحرف المحرَّك بتلك الحركة » .

فليس في هذا دليل قاطع على أن الحرف ، إذا نشأ لِمَطْل هذه الحركات القصار إنما هو الحركة بعد الحرف . ذلك لأن الأصوات في نُطقها مصوغة لفظاً وعبارة ، إنما تتوالى بعضها إثر بعض في اطراد بحسَب تشكيل اللفظ وصيغ اللغة ونظمها . وفي حالة الوقف يُمكن أن يجتمع حرفان ساكنان مثل : عضْدْ ، بكْرْ ، كَتْفْ ، هَمْسْ ، وَقْصْ ، عُنْفْ .

وتوضيح النُطق بالحرف الساكن في عين الكلمة أو في عينها ولامها ، وفي أولها في بعض اللهجات اليوم كما في الساحل السوري ، والجمع بين ساكنين يُضعف القول بأن الحركة تَسبق الحرف . وكيف يكون الحرف ساكناً ويُسمع ، إلا أن تكون حركة السكون كما تقدّم الحديث عنها . بل كيف يَتسنّى للمتكلم أن يُنطق بالحرف الساكن لأن الحركة سَبقته في مثل : سأل بدأ ، مصطفى ، بلال .

وما ألف الوصل ، وما الحاجة إليها في مثل : أُكتُب ، ادفَع ، استمِر ، إلا أن تكون حركة ، كما هو معروف ، للتخَلُّص من النطق بالساكن أو البدء به؟ فهي عندئذ حركة جاءت قبل الحرف . ومتابعة سياق الكلام يُمكن أن يَقِفنا على أن بعض الحركات يجعلها الدَرْج تسبِق الحرف ، وأن بعضها يقترن به ، وأن بعضاً ثالثاً يتلوه !

ولماذا نعُد الكسرة أو الفتحة لالتقاء الساكنين حركة سبقت الحرف في مثل : جاءت الطفلة ، هزُلت الدنيا ، الحمدُ لِله ، ولا نعُدها حركة قبل الحرف ، إما هي حركة ألف الوصل ، وإما هي حركة أول حرف من اللفظة الثانية ؟

فهذا أولى مِن أن نقتصِر على موضِع للحركة بعينه قسْراً . وهي في واقع الحال ، أي حركة ، ولا سيما الثلاث القصار الفتحة والضمة والكسرة ، كغيرها من الأصوات لها من الصفات حيناً ، ما يجعلُهَا تكون قبل الحرف بمقدار ، وحيناً مع الحرف ، وحيناً ثالثاً بعد الحرف ، وحينا رابعاً مع الحرف بزائدة قبل الحرف أو بعده ، بحسَب صفات الحرف في صيغة اللفظة والعبارة . وذلك لأن مِن الحروف ما يمازج الحركة ويتقبَّلَهَا ، ومنها ما يرفِضها ويُبعِدها ، ومنها ما يُتيح لها بعض صوته فتجاوِرُه وتلاصِقه أو تُقارِبه . ولهذا تأثير في موضِع الحركات من الحروف .

٥ — كمية الحركات :

ولموضِع الحركة من الحرف أثر في مقدارها ، فضلاً عن أن للحركات مقادير في أنفُسهَا . فهناك القوي منها والضعيف ، ومنها الطويل والقصير ، ومنها الظاهر والخَفيّ .

فأصواتُ المدّ واللين ، ولا سيما الألف ، إذا كانت حركات ، أطول من أصواتهن الصغيرة التي تُعرف بالمصوتات الصغرى ، أي الفتحة والكسرة . وهذه جميعاً منها أصناف بحسَب اللهجات ، ولا سيما التفخيم والإمالة ، ربما بلغت أكثَر مِن عشْر حرَكات كما في مثل : ملجأًا ، حِسابا ، رجُلا ، إذا وُقف عليها آخرَ عبارة أو في قافية ، كِاَتب ، عِاَلم ، سِاَلم ، الضُحىَ ، الهُدىَ ، الصَلاُة ، الزَكاُة ، الحياُة . قُيل ، سُيق ، خُيف .

وجلاءُ هذا الأمر في عدة ظواهر منها : الاختلاسُ ، وهو في مثل نُطق هذه

الألفاظ : سُئل ، كتب ، منازل ، معادن ، يعلّل ، دمشقُ روح ، العوض . إذا أخفيتَ كسرة الألفاظ الأربعة الأولى ، وفتحة الخامسة والسابعة وضمة السادسة ، فتسمع هذه الحركات كأنما هي بعضُها تقدّر بنصفها أو أقل . ومنها الإشباع كما في مثل هذه الألفاظ : ذهبا ، عذبا ، محمدو ، سعيدو ، ارمي ، اهتدِي . فهذه الأحرف التي بآخر كل لفظة ، وهي أحرف المد واللين ، إنما هي حركات زيد في لفظها فصارت حروفا[1] . ومثلها مدُّ أصوات المد واللين في هذه الألفاظ : جاء ، شاء ، الحاقة ، الضال ، السوء ، يبوء ، يجيء ، يضيء . وليس مقدارها في هذه الحال مقدارها قبل المد ، كما أن مقدار الحركة المختلفة والحركة المشْبعة ليس هو مقدارها قبل اختلاسها وقبل إشباعها .

فالحركات على هذا ذاتُ مقادير في صيغ الكلام لفظاً وعبارة . وهي بهذا بعض أصوات اللغة[2] . ولم يزل لأغلبها في الفصيحة واللهجات العامية أثرٌ في كل وجوه اللغة واستعمالها .

٦ــ تناسب الحركات :

ولأثرها في الكلام كان لا بدّ من أن تكون ذات تناسب أي أن تُساعد على تشكيل اللفظ صورة وخِفّة في النطق ، دون أن يكون لذلك إجحاف بالمعنى . ففي جمع فُعْلة وفِعْلة : فُعُلات مثل غُرفات ، خطُوات ، سبُحات ، وفِعِلات مثل : كِسِرات ، عِنِبات ، خِبِطات . توالت الضمتان والكسرتان فيها . فإذا استُثقِل ذلك

---

(١) انظر الخصائص ١/ ٧٢ ، ٣٧٠ .

(٢) انظر الخصائص ٣/ ١٢٠ .

أبدلت الضمة والكسرة الثانية فتحة أو سكوناً. وفي ذلك تناسُبٌ لا يُشْكل في الصيغة ولا في المعنى، وهو في الوقت نفسه مناسب للنطق.

وليس مدُّ حروف المد واللين بعدها صوت الهمزة أو صوت مشدد أو صوت محرك بالسكون وهو شديد مهموس إلا لهذا التناسب.

وكذلك إشباع الحركة واختلاسها وتحريكها بالسكون. وكذلك بقية الحركات في الصيغة لفظاً وعبارة. فلا بد من أن يوفى الصوتَ حقَّه. وتوفيَه توفية للفظه والجملة[1] «فحركة الحرف تسلبه الصوت الذي يُسْعِفه الوقفُ به، كما أن تأَهُّبَك للنُطق بما بعدَه يَستهلِك بعضه... فإن أنت أدرَجْتَه انتقصْتَه بعضه، فقلت: اصْبِر، فإن أنت حرَّكْتَه اخترمْتَ الصوت البتة، وذلك قولك: صَبِر. فحركة ذلك الصوت تسلُبه ذلك الصوت البتة، والوقوفُ عليه يُمكِّنه فيه، وإدراج الساكن يُبقي عليه بعضه. فصار الساكن المتوسط لِما ذكرنا كأنه لا ساكن ولا متحرك، وتلك حال تخالِف ما قبلَه وما بعدَه، وهو الغرض الذي أُريد منه، وجيء به مِن أجله، لأنه لا يبلُغ حركة ما قبلَه، فيجفو تتابع المتحركين، ولا سكون بعدَه، فيفجأ بسكونه المتحرك الذي قبلَه، فيقض عليه جهته وسَمْته. فتلك إذاً ثلاث أحوال متعادية لثلاثة أحرف متتالية، فكما يحسُن تألُّف الحروف المتفاوتة كذلك يحسُن تتابع الأحوال المتغايرة على اعتدال وقُرْب، لا على إيغال في البعد». وأمثلة ذلك منتشرة في كل اللغة، كما في الإدغام والإعلال والإمالة وحركة التقاء الساكنين وترك البدء بالساكن وغير ذلك.

---

(١) انظر الخصائص ١/ ٥٨.

٧ — وظائف الحركات :

فقد عدّ علماء اللغة عملَ الإغريق ، إذ أضافوا الحركات ، أي الأصوات الصائتة ، إلى أبنية الكَلِم التي تتألّف من الأصوات الصامتة ، ثورةً حقيقية في علم اللغة[1] . كذلك شأنُ الحركات في كل لغة . وهي في اللغة العربية تمثّل جانباً مهماً سواء كانت منطوقة أم مكتوبة .

وينبغي ألا تكون العِناية بوظائف الحركات متصلة بقواعد اللغة فقط . بل العناية بها من حيث هي بعض أصوات اللغة قبل كل شيء ، وإن لها اثراً في استعمال اللغة بكل وجوهها .

وفيما سبق مِن ذكر محاولة أبي الأسود الدُؤلي في وَضْع الحركات ، وقيام القُرّاء منذ عهد مُبكِر جداً بأُسلوب الأداء ، الذي توافَرت له كلّ خصائص الأداء اللغوي لِنص القرآن الكَريم ، واستيفاء علماء القراءات ذلك ، وانتفاع اللغويين والنحويين بهذا كله . في كل ذلك معالم وافية لهذه الوظائف المتمثلة في المد والإدغام والإمالة والتفخيم وظواهر كثير كالرَوْم والإشمام والمَطْل والإشباع وغير ذلك ، مما تقدَّم الحديث عنه .

بيد أن تتبُّع أمثلة مِن أثر الحركة في اللغة من حيث صيغها بنوعيها يوضح بعض جوانب يحسُن أن تُخصّ بالبحث والتوسع فيه .

فمِن وظيفة الحركة في اللفظ تشكيلاً كل ما يشمَل أبنية اللغة مِن مثنى وجمْع بنوعيه ، وأبواب تصريف الأفعال ، والاشتقاق ، والتصغير ، والإلحاق وغير ذلك . وهذه طائفة من أمثلة هذا الصنف : زوجان ، بحران ، زهرتان ، مدرستان ،

---

(١) انظر تاريخ علم اللغة ٨٣ .

معلمون ، صالحون ، فلاحات ، مدرسات ، رجال ، عمال ، نوازل ، عواصم ، مصارف ، ضوابط ، شرح ، اشرح ، استعد ، يستشهد ، قِ ، لُذ ، بع ، امضِ ، مِثقب ، طائرة ، مَخبر ، نَسير ، عَبيد ، عصَيفير ، الشمللة ، البيطرة ، الحوقلة . ويظهر أن كثرة مِن الحركات وما هو في عِدادها دخل في هذه الأمثلة لإقامتها ، نذكر منها الألف كما في المثنى والنون فيه وفي جمع المُذكر ، والألف والتاء في جمْع المذكر ، والألْف في جمْع التكسير ، والواو والسين والتاء والياء والمُصوِّتات الصغار التي ساعدت على ضَبْط الشكْل وإقامة اللفظ .

وأثرُ هذه المُصوّتات يبدو في الأمثلة الآتية : الحَمْل وهو ما في بَطْن أو على شجَرة . والحِمْل وهو ما على ظهر أو رأْس . والرَّق ما يُكتب فيه . والرِّق مِن المِلك . والبَيْن الفِراق . والبِين القطعة من الأرض متسعة . والخَرْق الفلاة لانخراق الريح فيها ، والذي يكون في الثوب . والخِرق السَخيّ الكريم[١] . والرجل الورِع المُتحَرِج . والورَع الضعيف الجبان . وتصريف الفعل من الأول هكذا : ورع يرع ورَعا ورَعة . ومن الثاني هكذا : ورُع يورُع وروعا ، وورْعاً ووراعة[٢] . ولسَبَتْه العقرب تلسَبه لَسباً أي لسعته . ولسِب العسَل والسمن يلسَبه أي لعِقه . وعثر في ثوبه يعثُر عِثاراً . وعثَر عليه يعثُر عَثْراً وعثوراً أي اطلع عليه[٣] .

وبها تتبيَّن وجوه اللهجات واختلافها . وذلك فيما روي من الإبدال اللغوي بين الحروف التي يُعدّ بعضها صنفاً مِن الحركات أو مؤاخياً لها ، ومِن اختلاف المُصوِّتات بصِنفَيْهَا في الألفاظ ، ومن أمثلة ذلك كله هذه الألفاظ : شابّة ،

---

(١) انظر إصلاح المنطق ٣ .

(٢) انظر إصلاح المنطق ١٠٠ .

(٣) انظر إصلاح المنطق ١٩٠ .

شأبة ، مادّة ، مأدة أُقّت وُقّت ، اغرِسَن اغرِسا . لنسفعَن لنسفعا ، اشْهَابَّ ، قبَعْثَرى ، حُبارى ، إياك هِياك ، لأنك لِهَنك ، التابوت والتابوه ، حتى عتى ، خَطر وغَطر ، كشَط وقَشط ، عصيْتَ عصيكا ، فُقَيمج وفُقَيمي ، مُرّج ومُرّي ، قصيت وقصَصت ، أمليت وأمللت ، أُصيلال وأصيلان ، اضْطجع والْطجع ، ونَثْلة ونَثْرة ، خبطْتُ وخبطُّ ، اصطبر واصّبر ، اتّعد مِن وعد ، واتزن مِن وزن ، سوَيق وصَويق ، أسبغ وأَصبغ ، وصقر وزقر وسقر(٤) .

وهذا شيء كثير ، ولم يزل كما كان ملاحظاً في اللفظ والنطق . يُسمع في مشرق البلاد وغربها ، وأَدناها وأَقصاها ، فيما اتّحدَت صورته من الكلم .

وأَثرُ وظيفة الحركة وما هو مِن قبلها إنما هو في نظم الكلام وجمله . ذلك لأن اللغة وسيلة : واستعمالها إنما هو في عبارات وتراكيب ، يفرُق بينها المعنى . والحركات بأغلب أصنافها أوفى دليل على اختلاف المعنى ، ودفع الشبهة فيه .

فصوتا الطاء والدال في صيغة الافتعال مثل : اضطر ، اصطاد ، اضطجاع ، اصطلام . وازدهر ، ازدلف ، ازدحام ، ازدياد ، مُبدلان مِن التاء . فأي شيء نسميهما ، وإلى أي صنف من الأصوات نضمهما؟ أليس أثرُهما في إقامة صيغة اللفظ واعتداله؟ ولمّا كان مجيئهما في هذه الصيغة مطرِداً فمن الحق أن نصنفهما في نوع من الحركات . وهناك طائفة من الأصوات هكذا شأنها ، أذكر منها نون الوقاية التي تسبِق ياءَ المتكلم في مثل : سألني ، أدبني ، سألوني ، أدبوني . لم يسألوني ، ولم يؤدبوني . وأذكر أيضا الألف التي تبدل من التنوين وقفا في مثل : رجُلا ، سعْدا ، خَلاصا ، مُضِيا . وألف الوصل ، وهاءُ السكت وغير ذلك .

---

(٤) كل هذا أستفيد من كتابي سر صناعة الإعراب والخصائص للمرحوم أبي الفتح بن جني .

واختلافُ الاستعمال يؤثر في اختلاف دلالة الحركة مع بقائها في لفظها وصورتها في الخط دون تغير. فمِن ذلك مُصوِّت الضم في مثل: قبلُ، بعدُ، حيثُ هو حركة بناء. فإذا سُمّي بتلك الألفاظ غَدا حركة إعراب. وكذلك شأنُ الكَسْرة والفتحة في الألفاظ الآتية: أمسِ، جيرِ، أينَ، كيفَ. وكذلك السكون فهو في مثل: بُطْنان، ظهْران، صنْوان، غيره في: بطْن، ظهْر، صِنْو. كما أن الألف في مثل: نوقٌ هِجان، أدرُع دِلاص، غيرُهَا في: ناقة هِجان، ودِرْع دِلاص[1].

وهذا من اللطف في دلالة الحركة ووظيفتها بمكان. فأنّى لمستعمل اللغة، بل الذي يتكلمها من عامة الناس، أن يبلغ ذلك ويعرفه إذا لم تكن له بيئة لغوية تتنفّس به، ويفيض عنها سماعاً واستعمالاً؟.

ولن يجدي فهمُ الحركات على هذا النحو ولا سيما في مجال تعليم اللغة وتعلمها إلاّ بدراستها على نحو مستقصى صوتياً، وتنظيمها في زمر، وتعيين صورها في الخط، والاهتمام بها في الدرس اللغوي. وتلك مهمة تحتاج إلى جهد فئة من الباحثين.

ولا ريب أن إنجاز ذلك مُمكن، وإن اقتضَى جُهداً ووقتاً. بيد أن إنجازه، وإنجاز غيره من هذا الجانب في الدرس اللغوي، لا يُجدي إذا لم يقترن بمنهج لإجرائه وظيفياً في مجال التعليم، بحسَب اختلاف مراحله. فالإجراء يمَحِّص مثل هذه البحوث، ويمدُّها بالتوجيه والتقدم. وليس ما للسَلَف مِن اللغويين من جهود قَيِّمة، وتراث عريق، وذكر حميد إلا بما توافر لهم ولجهودهم في هذا الجانب من الإجراء والتطبيق. فكان عملهم في اللغة بحثاً وتعليماً مقْتَرناً بالتطبيق موافقاً لِماهيّة اللغة وخصائصها، تُسمع وتُنطق.

---

(١) انظر الخصائص ٢/ ٩٤، ٣٥٦.

ونفيدَ هذا بما هناك مِن طرائق وأساليب يُجدي في البحث اللغوي نفسه ، ويُسهم في تقويم مناهجه . وحسبُنا شواهدَ ما لدينا من جهود السَلَف وآثارهم التي نجدُها متوافرة في ذخائر التراث ، وجهود سوانا مِن الأُمم التي عُنيت وتُعنى اليوم بلغاتها ، وانتفعت بتقدُّم البحث ونتائجه ، وأخذت به في الدرس اللغوي وإجرائه .

* * *

« المصادر والمراجع »

* **إحصاء العلوم** : أبو نصر الفارابي ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١
* **أخبار النحويين البصريين** : السيرافي ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٦
* **أسباب حدوث الحروف** : ابن سينا ، القاهرة ١٣٣٢
* **أشتات مجتمعات في اللغة والأدب** : عباس محمود العقاد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣
* **أسرار العربية** : أبو البركات الأنباري ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٥٧
* **إصلاح المنطق** : ابن السِّكيت ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٥٦
* **الأصوات اللغوية** : د. ابراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧١
* **أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة** : د. نايف خرما ، سلسلة كتب ثقافية شهرية ، الكويت ١٩٧٨
* **الإعلام ولغة الحضارة** : د. عبد العزيز شرف ، سلسلة كتابك ، دار المعارف
* **إنباه الرواة على أنباه النحاة** : القِفطي ، دار الكتب المصرية ١٣٦٠
* **إيضاع الوقف والابتداء** : محمد بن القاسم الأنباري ، مطبوعات مجمع اللغة العربيه ، دمشق ١٩٧١
* **البُلغة في تاريخ أئمة اللغة** : الفيروزبادي ، منشورات وزارة الثقافة ١٩٧٢

* **البيان والتبيين** : الجاحظ ، مطبعة الاستقامة ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٥٦
* **تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين** : جُورج مونَن ، ترجمة د. بدر الدين القاسم ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٧٢
* **تجديد الفكر العربي** : د. زكي نجيب محمود ، الطبعة الرابعة ، دار الشروق ١٩٧٨
* **الحُجه في علل القراءات** : أبو علي الفارسي ، القاهرة ، ١٩٦٥
* **حَوليات كلية دار العلوم** : العام الجامعي ١٩٦٩
* **الخصائص** : ابن جني ، الطبعة الثانية ، دار الهدى للطباعة والنشر بيروت
* **دراسات في علم اللغة** « **١ ، ٢** » : د. كمال محمد بشر ، دار المعارف مصر ، الطبعة الثانية ١٩٧١
* **دروس في علم أصوات العربية** : جان كانتينو ، ترجمة صالح القرمادي ، الجامعة التونسية ١٩٦٦
* **الرِعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة** : مكي بن أبي طالب ، دار المعارف للطباعة ، دمشق ١٩٧٣
* **زينة الفضلاء في الفَرْق بين الضاد والظاء** : أبو البركات الأنباري ، دار الأمانة ، بيروت ١٩٧١
* **سِر صناعة الإعراب**[1] : ابن جني ، القاهرة ١٩٥٤
* **سر صناعة الإعراب** : ابن جني ، مصور مخطوط بمعهد إحياء المخطوطات ، جامعة الدول العربية ، القاهرة
* **العربية الفُصحى** : هنري فليش اليسوعي ، تعريب د. عبد الصبور شاهين ، المطبعة الكاثوليكية ، الطبعة الأولى بيروت ١٩٦٦
* **علم اللغة العام** « **الأصوات** » : د. كمال محمد بشر ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧١

* **علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة** : د. محمود فهمي حجازي ، المكتبة الثقافية ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠
* **العين** : الخليل بن أحمد ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٧
* **فقه اللغة** : د. علي عبد الواحد وافي ، الطبعة السادسة ، دار النهضة مصر
* **فقه اللغة وسر العربية** : الثعالبي ، مطبعة الاستقامة بمصر ١٩٥٩
* **فقه اللغة في الكتب العربية** : د. عبده الراجحي ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢
* **الفهرست** : ابن النديم ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة
* **في اللهجات العربية** : د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة .
* **كتاب سيبويه** : المصورة عن طبعة بولاق بمصر ١٢١٦
* **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعِللها وحججها** : مكي بن أبي طالب ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٧٤
* **اللغة** : ج . فندريس ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ، محمد القصاص ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠
* **مجالس ثعلب** : أبو العباس ثعلب ، النشرة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٠
* **مجلة اللسانيات** : معهد العلوم اللسانية والصوتية ، المجلد الأول ، جامعة الجزائر ١٩٧١
* **المُخَصص** : ابن سِيده ، مطبعة بولاق ١٣١٨
* **مراتب النحويين** : أبو الطيب اللغوي ، مكتبة نهضة مصر ١٩٥٥
* **المُزْهِر** : السيوطي ، دار إحياء الكتب المصرية
* **المُعَرَّب** : الجواليقي ، مطبعة دار الكتب ، الطبعة الثانية ١٩٦٩

* **معلومات موجزة عن رأس شمرا — أوغاريت** : جبرائيل سعادة ، منشورات المنارة اللاذقية ١٩٦٨ .
* **من أسرار العربية** : د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦
* **منهج البحث في الأدب واللغة** : لانسون ، ماييه ، ترجمة محمد مندور ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٦
* **النشر في القراءات العشر** : ابن الجزري ، مطبعة التوفيق ، دمشق ١٣٤٥
* **الهوامل والشوامل** : ابن مِسْكَويه ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٥١

«المراجع الأجنبية»

An outline of English Phonetics - Daniel Jones, ninth édition, Cambridge, W. Heffer & sons

Introduction to Theoretical Linguistics - John Lyons, Cambridge university press 1971.

The Linguistic sciences and language teaching - MAK Halliday, Angus McIntosh, Peter Strevens Longmans, Linguistics Library 1966

« فهرس المواضيع »

صفحة